تأليف: ستيف ايتان
ترجمة: مطاع صفدي

عين تل أبيب

وثيقة عن المخابرات الإسرائيلية

«عين تل أبيب» وثيقة خطيرة تفضح أسلوب العمل في المخابرات الإسرائيلية، وتكشف الحرب السرية التي تخوضها إسرائيل بواسطة عملائها في العالم ضد الوطن العربي.

وقد كتب هذه «الوثيقة» كاتب صهيوني على علاقة وثيقة بجهاز المخابرات الإسرائيلية، إلا أنه لم يستطع أن يخدم إسرائيل كما أرادت، فقد كشف الغطاء عن الشرور والمحاولات الدنيئة والوضيعة واللاأخلاقية التي يتبعها زعماء إسرائيل.



دار العودة - بيروت

عين تل أبيب

تأليف:
ستيف اتيان
ترجمة:
مطاع صفدي

عين تل أبيب

وثيقة عن المخابرات الاسرائيلية

دار العودة - بيروت

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب بالكتاب العادي الذي يطرح بـين أيدي القراء العرب ، انه يتناول أخطر الموضوعات السرية لدى العدو الصهيوني ، وقد كشف عنه بقلمه ولسانه كاتب صهيوني أخذته غمرة الغرور بالنصر السريع على العرب ، فأخذ وهو في صحو التباهي ، ينشر على العالم الغربـي ما يعتبره عنصرا خارقا من عناصر التفوق الاسرائيلي ، الا وهو عمل أجهزة المخابرات الاسرائيلية • ولقد استهوته قابلية القارىء الغربي للاعجاب بالاعمال البوليسية المتقنة ، وتلذذه بتقنية المغـــامرة ذاتها ، بصرف النظر عن قيمتها الاخلاقية ، وفحواها اللا انساني الرهيب ، فراح يعرض بأسلوب المفاخر المتلذذ بضاعته قصص «بطولات» التجسس الاسرائيلي •

وبالرغم من كل ما حاوله الكاتب من التحوط والحـذر لألا يفرط بالمعلومات ، والكشف عن خبايا وأسرار الاجهزة الخطيرة التي توجـه دولة الحرب والغزو داخل العالـم العربـي ، الا أن الصلف والخيلاء ، ودوران الرأس بأصداء أناشيد الانتصار السابق ، قـد جعل المؤسسة التي وقفت وراء هذا الكتاب ، وكانت موضوعا وهدفا لدعايته ، تمزق عن وجهها البشع أقنعة الصراخ الدعاوي، لتنفلت بعض الحقائق والمعلومات الخطيرة عن واقعها ، وطريقة عملها ، والعقلية الاجرامية المنظمة التـي تسيرها •

وهذا هو كسبنا نحن كعرب من هذا الكتاب • فان من خـلال الاسطر ، وصور التباهي الفارغ ، وأسلوب المغالطات ، واخفاء النواقص

في النفس ، وتضخيمها لدى الآخرين « العـرب » ، تتسرب مع ذلك أشياء كثيرة عن واقع المؤسـسة التجسسية الاسرائيلية •

فهناك مثلا مجموعة من المعلومات عـن تعدد دوائر الاستخبارات وتقسيماتها ووظائفها الاختصاصية، وبعض الخطوط الموضحةلمعالم نشوئها التاريخي • غير ان ذلك كله لا بد من تقربته خلال القراءة عن صيـغ الاسلوب الدعاوي المسردة من خلاله • ومحاولة ربط المعلومات ببعضها تحت ركامألفاظ أدبية تفخيمية، مفخمة على الموضوع الاصلي، تارة بهدف الدعاية ، وتارة بهدف تعمية حدود هذه المعلومات ، وابعاد ذهن القارىء عنها الى موقف الانهيار والانقياد حسب توجيه الكاتب •

وهناك كذلك مجموعة من اللوحات التي تحاول ان ترسم الهيئات الفكرية والنفسية والسلوكية لقادة دوائر الاستخبارات • وهي وان كتبت باسلوب الاثارة البوليسية ؛ الا انها تقدم بالرغم منها نماذج عن هـــذا النوع من الرجال الذين ، اذا ما اخرجوا من قوالب التعظيم ، لبدوا لنـا في صورة رجال المخابرات النازية المصنوعين قبل كل شـــيء من مادة البطش والحقد والكبرياء ، والمتسمين بأيديولوجية التفـوق اليهودي ، وهو المركب المعاكس للمركب اليهودي التقليدي القائم على الشعـــور بالدونية والهامشية • ومن خلال اوصاف هؤلاء الرجال يكتشف القارىء العربي ان مهنة التجسس لدى هذا النوع من القادة ، ليست احترافا بقدر ما هي مذهب له آفاقه الغيبية ، ونوازعه الاجتماعية التعصبية ، ووسائله القمعية المتشربة بأصول التقنية الحديثة• وان الرجال الذين ينتمون لادارة هذا النوع من العمل ليسوا من طراز الموظفين العاديين ، ولكنهم مـن طراز اصحاب الدولة الاسرائيلية ودعاة اهدافها السرية، ومنظمي نشوءها، وعلاقاتها الغربية والدولية •

وبالرغم من ان الكاتب يحاول باستمرار التخفيف من غلواء هذه النماذج ، وتصوير رصيدها من الخبث وكأنه مؤونة طبيعية لرجل المخابرات الاسرائيلية ، وتنزيهها عن الاخطاء ، الا ان القارىء المتمعن يكتشف انه ليس امام رجال يقومون بوظائف ذات مسؤولية شعبية محددة ، ويستدعي الى ذهنه بسرعة نماذج رؤساء الجمعيات الدينية السرية المتطرفة ، وعصابات المافيا ، وسواهم من المؤسسات التخريبية التي لا يمكن ان تنشأ في ظل دولة عادية مشروعة .

وحين يشرع الكاتب في عرض عينات عن عمليات كل جهاز على حدة يتبين لنا في الفصول الاولى خاصة ، كيف ان نشوء هذه الاجهزة كان في الواقع هو نواة الدولة الاسرائيلية . وهكذا يستنتج اي قارىء ان الدولة الاسرائيلية كلها ليست سوى تطوير مضخم لسلوكية العمل السري المنظم . وهذا يكشف بالطبع عن جانب من جوانب ما يؤلف الدولة العسكرية المتمثلة في اسرائيل ، ويوضح هذه العلاقة الغامضة بين شعب اسرائيل ودولته وجيشها ومخابراتها ، وكأنها كلها اشبه بجمعية سرية كبيرة ، شعارها المحافظة على اسرارها ، والانضباط بحسب شرائعها الخفية ، والعمل حسب تكوين باطني مظلم . فالكاتب يفاخر من حين الى حين بهذه السرية والانضباطية ، ويكشف عن ذلك التعاون المطلق القائم بين الشعب والاجهزة والقيادات العليا للدولة . ولكن صورة النموذج الباطني لتكوين هذه الدولة تتسرب من خلال اوصافه وزلقات لسانه . ويقدم براهين عديدة على الطابع (الخاص) لتكوين اسرائيل . وهو في النهاية ليس سوى طابع الدولة المغلقة ، التي تسيرها عقلية التخطيط السلبي لاهداف أقل ما يقال فيها انها تجدد دعاوى النزعات الفاشية

بأسلوب جديد اكثر تعسفا ، وأشد التصاقا بالمفاهيم العدوانية • ويتبين من كلام الكاتب ان المخابرات قد نشأت في ظروف نهاية الحرب العالمية الثانية ، وأنها كانت امتدادا لعصابة الهاجنا • وأن نشاطها الاول كـــان مبطنا لنشاط مخابرات الانكليز خاصة • وأكثر من هذا يكشف الكاتب عن مدى تغلغل الجاسوسية الاسرائيلية داخل دوائـــر الدول الاوربية الغربية وخاصة فرنسا التي يبلغ فيها التعامل التجسسي أرقى درجـــات الوظائف الادارية ، وصولا الى بعض الوزراء انفسهم • وبالرغم من ان الكاتب حاول ان يغطي هذا التغلغل المريب في دوائـــر الدول الغربية للجاسوسية الاسرائيلية ، حتى قبل قيام الدولة المزعومة ذاتها ، يغطي ذلك بما يشبه الرسالة الانسانية للمتعاونين مع هذه المخابرات لانقـاذ اليهود الموقوفين في معسكرات الابادة النازية ، وتنظيم هجرتهم الى فلسطين ، الا ان القارىء يستطيع ان يستنتج بسهولة انه لا شيء يمنع من امتداد هذا التعاون الى قضايا اخرى تتعلق بتوجيه سياسة تلك البلاد التي جند فيها بعض كبار المسؤولين لخدمة اهداف الصهيونية العالمية • وهذا مـا اثبته فيما بعد واقع التأييد العجيب لمختلف اهداف الصهيونية والتسابق على منحها كامل الثقة والعون الى درجة التورط معها في حرب حقيقية ، كحرب عام ١٩٥٦ •

وعندما يصل المؤلف الى عرض بعض نماذج عن عمليات الجاسوسية الاسرائيلية ضد البلاد العربية ، فانه لا ينـفي من هذه العمليات الا مـا يتلاءم مع فلسفة الدعاية الاسرائيلية الموجهة الى اوساط الغرب الاوربي خاصة • ولكن القارىء العربي يكتشف تحت بهارج المباهاة والتفاخـــر بالبطولات ، ان الحقيقة القائلة باتساع التغلغل الجاسوسي الصهيونـي داخل بعض الاقطار العربية ، ليست من المبالغات الدعاويـة • وبصرف النظر عن تأثير نشر هذه المعلومات الكاشفة عن هذه الحقيقة ، فان مـن

واجب الثورة الفلسطينية والثورة العربية بشكل عام الا تتهاون بشـأن هذه المشكلة ، التي برهنت حرب حزيران على مدى خطورتها وتأثيرها الحاسم على مجرى الحرب ذاتها .

غير ان كل ذلك لا يعني ان جميع مؤسساتنا مكشوفة امام اجهزة المخابرات الاسرائيلية ، ولكن مما لا شك فيه ان اسرائيل وحلفاءها الكبار يتابعون شن حرب سرية رهيبة خلف خطوطنا . وقد تكون هذه الحرب الغامضة وراء ظهورنا ، هي الاخطر والادهى من المناوشات والغارات اليومية المكشوفة . وبالتالي فان اعداد دفاعنا ضد التخريب التجسسي هو من أولى مهام الرد والردع .

وهنا لا بد من تنبيه قارىء هذا الكتاب الى ان اجهزة اسرائيل السرية لا تكتفي بجمع المعلومات وتنسيقها عن المؤسسات العسكرية ، بل انها ، كما يكشف هذا الكتاب ، تحاول ان تستوعب كافة وقائع الحياة العربية اليومية ، وليس ذلك بهدف المعرفة فحسب ، ولكن بهدف تخريب انطلاقات الحياة العربية في مجالاتها المتنوعة السياسية والاقتصادية والثقافية . ولعلنا نستطيع تفسير كثير من الظواهر الغريبة التي تنتاب حياتنا السياسية خاصة ، والنكسات والارتدادات العجيبة ، اذا ما اقمنا وزنا لفعالية التخريب الصهيوني ، على ان لا نجعل من ذلك سببا وحيدا، والا نقع اسرى الخوف والوهم والشلل كما تريد الدعاية الاسرائيلية .

ان خطورة هذا الكتاب لا تنبع فحسب عن كونه اول كتاب بقلم صهيوني يزيح الستار عن بعض مغامرات الجاسوسية الاسرائيلية بأسلوب بوليسي مشوق ، ولكنها تتأتى من الخلفيات الرهيبة التي تقع

وراء الأسطر والعبارات والمعلومات المنشورة هنا وهناك • وهي تقرع الانذار تلو الانذار للثورة الفلسطينية وللقوى العربية الصامدة ، من اجل اعادة تقييم واقع التغلغل التخريبي الصهيوني وراء خطوط المعركة اليومية مع هذا العدو ، المسلح برواسب الاحقاد العنصرية التقليدية ، الى جانب تقنية التجسس والتخريب ، كما تعلمها عن اساتذته النازيين ، اذ تحول من ضحية الى منتقم • والانتقام محول الى الشعب العربي •

قد لا يقدم الكتاب معلومات دقيقة لانشغاله بأغراض الدعاية • ولكنه ، بالنسبة للقارىء العربي المدفوع بمعرفة عدوه وما يتملكه هذا العدو من اجهزة الحرب السرية ، سيفيد من معاني الاحداث ، والآفاق الخطيرة التي ترمي اليها اصداء تلك الاحداث ، على صعيد معركة المصير بيننا وبين الصهيونية •

بقي ان ننبه الى ان الكاتب لم يكن امينا في عرضه لكثير من المغامرات الجاسوسية ، وهو كان يتغافل أحيانا عن الجوانب السلبية التي تسيء الى هدف الكتاب ، وهو تعظيم شأن «لعبقرية» الصهيونية ، كما ان الكاتب قد ادى الكثير من الخدمات للقارىء العربي ، دون ان يقصد ذلك ، اذ انه لم يكن لينتظر ان ينتبه العرب «المتخلفون» الى هذا الكتاب وينقلوه الى لغتهم • فهو على الأقل قد ازاح الستار عن الاهمية المطلقة التي تعطيها اسرائيل لفعالية مخابراتها • كما ان قادة المنظمات الفدائية سيدركون منذ الآن خطورة حرب الظل التي تشن ضدهم ، وضد الجيوش العربية • وسيدرك المناضل العربي ان مخابرات اسرائيل وقد اصبحت جزءا من مخابرات الامبريالية الدولية ، انما لا تهدف الى جمع المعلومات بقدر ما تهدف الى تبطين نهضة العالم العربي ببطانة تخريبية

من داخل مؤسساته فالتجسس على العالم الثالث ، ومنه العالم العربي بخاصة ، اصبح يعني تنظيم تخلف مضاد داخل خلاياه الناهضة المتحركة .

ان معرفتنا بوجود مثل هذه الفعالية المنظمة المضادة يكفي وحده ليعمق نظرتنا الى قيمة قوانا الحقيقية، ويفتح بصيرتنا علىالعقلية الجهنمية، التي هي اتحاد بين الخبث والتقنية والشر المنظم ، هذه العقلية الموجهة لدولة اسرائيل ضد أمن وسلامة الامة العربية .

وأمام هذه المبادىء التي أملت علينا تحمل مسؤولية نقل هذا الكتاب الى القراء العرب ، فاننا ابتذلنا الاعتراضات التي يمكن ان تثار باسم المحافظة على روع القارىء ، بجعله جاهلا مزمنا لأعدائه وخطط تدميره .

مرة اخرى نعترف بان هذا الكتاب ضروري لكل قارىء ومناضل وفدائي عربي ، وهو يساهم مساهمة اساسية في المكتبة التي شعارها العلمي : اعرف عدوك ، اعرف قوته وضعفه ، ولا تتجاهله ، والا جهلت نفسك ومصيرك معا .

بقي ان ننبه الى لغة وأسلوب هذا الكتاب ، فلسوف يجد القارىء العربي غرابة في اداء التعابير ، وغموضا احيانا في اختصار الجمل . فالكتاب ألف باللغة العبرية التي ما زالت لغة قاصرة عن اداء الأساليب الحديثة في التعبير . ولقد ترجم المؤلف الكتاب الى الفرنسية، جاذبا اللغة الفرنسية الى التلاؤم مع الأصل العبراني ، وليس العكس . وهذا بالطبع ما زاد بتعقيد الكتاب .

غير أن القارىء سوف يلمس كذلك من خلال اسلوب اللغة والاداء، ذلك الظل المظلم الذي تعكسه نفسية الصهيوني ، بما يمتزج فيها من

رواسب الأيديولوجيات العنصرية والتعصب الديني ، والغرور الى درجة الاكتفاء الذاتي ، والتفاخر على العالم أجمع . ذلك كان ولا ريب بعض رموز عما تعده الصهيونية لذاتها و(لجيرانها) العرب بعد نكسة حزيران ..

غير ان انتصارا واحدا للعرب سوف يبدل كل شيء .

ذلك ما لا نطلقه شعارا ، ولكن نعده معرفة ودقة وصبرا تاريخيا حافلا !

مطاع صفدي

صرح الجنرال موشيه دايان ، الوزير الاسرائيلي للدفاع :

« كل ما استطيع قوله هو ان دور المخابرات كانت لـه اهمية دور الطيران والمصفحات نفسها » •

وكتب السيد محمد حسنين هيكل ، رئيس تحرير الجريدة القاهرية الكبرى «الاهرام» وصفي الرئيس ناصر :

« كان لدى الاسرائيليين معرفة كاملة عن مصر • كانوا يعرفـون حتى اسماء طيارينا ، وكذلك الشيفرة السرية لطيراننا ولآلتنا الحربية» •

وقال الجنرال آرون باريف ، رئيس مخابرات الجيش الاسرائيلي : «ليست مخابراتنا خارقة بالقدر الذي يروجون عنها في كل مكان»•

* * *

ان محاولة تفسير اسرائيل بواسطة مخابراتها لهي محاولة غـير صحيحة • بيد ان فهمها التام دون شرح دور مخابراتها لأمـر مستحيل • قيل عنها انها انجح مخابرات ، فان كانت تلك المخابـرات متميزة بالفعالية والجرأة الا انها عرفت ايضا نصيبها من الاخفاق • ورغم

انها منظمة تنظيما حسنا غير انها غالبا ما تقتصر على الارتجال وعلى «التخبط» • يديرها اشخاص اذكياء وتضم في الوقت نفسه في صفوفها العادين والضعفاء • ان حربهم السرية ، التي تكشف عن نفسها في لمعات، لهي حرب منسقة لا تعرف الشفقة • وتلك الحرب هي الشرط الاساسي لبقاء الدولة قبل ان تكون الضمان لأمنها • ورجالها يستمدون قوتهم من الفي عام من التلمود حتى تقنية العصر الحديث •

القسم الاول

المصالح والرجال

مرة واحدة في الاسبوع ، يجتمع خمسة رجال في مكان ما في الضاحية الشمالية لتل ابيب . في غرفة واسعة عادية ذات جدران بيضاء لبناية عصرية . في الطابق الارضي ، بنك ، يمكن ان يكون مركز بريد او مكتب سياحة ... بعض المخازن تحيط بمدخل مرآب تحت الارض . في البهو بعد اجتياز الابواب الزجاجية لوحات معلقة على الحائط تدل على هوية مختلف المستأجرين : عدة شركات تجارية ، مهندس معماري ، شركات تأمين ، مهندسين مستشارين ، شركة تصدير واستيراد . وقد علقت مباشرة بجوار المصعد على قفص الحارس الصغيرة لوحة كتب عليها بالعبرية والانكليزية «استعلامات» . في آخر طابق ، في مكاتب شركة التصدير والاستيراد يجتمع المسئولون عن الامن ومصالح الاستخبارات لدولة اسرائيل .

الرجل الذي يرأس في آخر الطاولة والذي «يستقبل» في غرفات مصلحته هو رئيس «الموساد» المنظمة المكلفة بجمع المعلومات وبالعمل خارج الحدود . وبمقتضى تقليد يعود الى السنوات الاولى لوجود الدولة فانه برأس كذلك «لجنة التنسيق» . قد يسمونه في بلاد اخرى «الشيخ» او الصديق، في اسرائيل، يسمونه «الميمونة» اي المسؤول. وعلى يمين الميمونة

يجلس رئيس «الآمان» ، وهي مصلحة استخبارات القوى المسلحة ، الذي لم يفتا دوره بالتعاظم منذ حرب الايام الستة • وعلى يسار الميمونة يجلس رئيس « الشاباخ » وهي مصلحة الأمن الداخلي ومكافحة الجاسوسية والعمل «الارهابي» • والى جانبي هذين الرجلين يجلس بالتتالي مدير قسم الابحاث في وزارة الخارجية ، المكلف على الاخص بتقييم الاحوال السياسية في العواصم العربية ، فمدير مصلحة تهتم فقط بمصير اليهود المقيمين «في البلاد المضطهدة» (اي البلاد العربية ، والديمقراطيات الشعبية) • ويشترك كذلك في تلك الاجتماعات الاسبوعية مفتش الشرطة العام ورئيس «الفرع الخاص» بما انهما عاملا تنفيذ للشاباخ في محاربة «الارهاب» ، التي اصبحت مشكلة على جانب عظيم من الاهمية داخل الحدود منذ حرب الايام الستة •

يعاون اولئك الرجال مستشارون وخبراء لا يجلسون حول الطاولة التي يرأسها الميمونة ، انما يجلسون على كراس حول الغرفة ، ويغطي طول الحيطان وعرضها خرائط كبيرة بقياس ١/٥٠ لاسرائيل وللاراضي «المحيطة بها» • وغالبية الذين يحضرون من تلك «الحاشية» هم على العموم العسكريون معظم الرؤساء الأساسيين لفروع الآمان ، والممثلون للحكام العسكريين في الاراضي المحتلة • لكن يوجد بينهم اقتصاديون ، وعلماء اجتماع ومستعربون ، لا تربطهم في الغالب اية صلة بمصلحة الاستخبارات انما كان قد طلب اليهم «دراسة» مسألة تتعلق باختصاصهم•

تهيمن على الجو السائد في هذا الاجتماع شخصية الميمونة (ثلاثة رجال شغلوا هذا المنصب منذ انشاء دولة امرائيل) . تدور في العادة على الحاضرين الذين ساهموا ويساهموا في تلك الاجتماعات ، علب السكاير والقهوة . والتخاطب بصيغة الجمع لا وجود له بالعبرية لكن هؤلاء الرجال يتخاطبون بصيغة المفرد في اكثر اللغات التي هم جميعهم تقريبا

يحسنون التحدث بها على حد سواء : الانكليزية ، الفرنسية ، الروسية ، الالمانية ، والعربية .

ليس لتلك الاجتماعات الاسبوعية عند الميمونة البتة هدف من حيث المبدأ ، في اتخاذ قرار متصل بمهمة معينة . ولكنها تشكل ببساطة ضربا من بورصة تبادل المعلومات بين مختلف مصالح الاستخبارات لتلافي ازدواج العمل وتسرب الاسرار ، ولتسيير بقدر الامكان تبادل المذكرات وكذلك من تبيل الاحتياط وزيادة فعالية العمل . انه لمن المستحيل فعلا فهم عمل تلك الدوائر الخاصة الاسرائيلية دون ادراك اهمية جلسات العمل هذه التي يسودها التباسط المنطلق في تبادل الآراء بين ممثلي منظمات يقضون غالبا في بلاد اخرى قسما من وقتهم ومن نشاطهم في محاربة بعضهم بعضا . تلك المعايشة الضيقة وتلك العلاقات الشخصية هي بالطبع من واقع بلد صغير جدا . لكن من المفيد ملاحظة شفافية كبيرة بين مختلف المصالح الاسرائيلية المكلفة بالاستخبارات والأمن . فأغلب الرجال الذين يشغلون حاليا مناصب مسؤولة في مختلف تلك الاجهزة كانوا قد نشأوا في مدرسة الموساد . وذلك ما يوفر التلاحم بين الجميع . فلقد كان من المتفق عليه بين جميع الزعماء الصهيونيين ان وقوع مواجهة مع الدول العربية على المدى القريب او البعيد أمر لا مفر منه .

الموساد

رغم ان بعض المصالح قد ازداد تجهيزها بعض الشيء على حساب الموساد غداة حرب الايام الستة ، فقد بقيت الموساد التي يمارس عملاؤها نشاطهم في الخارج تلعب دورا مهما . انها تبقى قبل كل شيء المنظمة التي ساعدت بالفعل على ولادة دولة اسرائيل في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا العظمى السلطة المنتدبة تحاول منع وصول اليهود والسلاح

الى فلسطين • لهذه الاسباب التاريخية والعاطفية استمر رئيس الموساد يحمل لقب الميمونة ويغطي مجموع دوائر الأمن والاستخبارات رغم الاهمية المتعاظمة باستمرار للمهمات الملقاة اليوم على عاتق مصالح استخبارات الجيش • تأسست الموساد في عام ١٩٣٧ خلال لقاء جمع بين قادة الحركة العمالية الاشتراكية وقادة الهاغانا الجيش السري • فسميت المنظمة الجديدة بالتحديد : موساد (لعلياه بت) أي (منظمة الهجرة الثانية) • تدل تلك التسمية بجلاء على ان مهمة الموساد الرئيسية منذ ذلك العهد هي تنظيم برنامج للهجرة السرية الى فلسطين • وهو ما كانت تراقبه بريطانيا العظمى بصرامة اذ كانت تطبق سياسة «الكتاب الابيض» آنذاك • فقد قامت الموساد كذلك باتباع مختلف الوسائل للحصول على السلاح • وأخيرا كانت مهمة الموساد الثالثة هي جمع المعلومات : اذ كان ينبغي تجنب (بقدر الامكان) حملات التفتيش التي ينوي الانكليز القيام بها ، في الوقت المناسب ، واستطلاع نوايا البيئات العربية في المنطقة ، وكذلك مراقبة تحركات المنظمات المتطرفة ، الايرغون والليهي عن قرب •

لعل القدماء يذكرون مع بعض الذعر ذلك العهد المضطرب • كانت الوسائل ضعيفة جدا • ما يزال على «الحكومة» ان تولد ، وكان زرع مصلحة استعلامات في الخارج ليس بالأمر الذي يرتجل خلال بضعة شهور • كانت جنيف اول مركز قيادة عامة للموساد وكانت النتائج الاولى تفوق اي تقدير • في عام ١٩٣٨ كانت شبكات قد تأسست حتى في قلب المانيا النازية ، لتسهل فرار اليهود وارسالهم الى فلسطين •

فلقد كان أشد ما يخشاه قادة الهاغانا والوكالة اليهودية آنذاك ان يتجاوزهم المتطرفون• وبطبيعة الحال تفجر الجهاز بكامله في بدء الحرب• وزرع فرع في سويسرا • لكن المركز الرئيسي لنشاط الموساد في الخارج انتقل الى اسطنبول • اذ كان لا يزال ممكنا العمل في تركيا على

انقاذ يهود البلقان ، على الاقل اثناء الفترة الاولى من الحرب .

في عام ١٩٤٥ كانت الصدمة الرهيبة باكتشاف معسكرات الموت داخل امبراطورية النازية . وغدت باريس وجنيف رأس الجسر للموساد، وبدأت المغامرة الكبرى . وتوفر للمنظمة عندئذ وسائل مهمة . استعد مئات الرجال لأي شيء ليهيئوا للناجين من معسكرات الاعتقال الهجرة الى «ارض الميعاد» . وفي العديد من بلدان أوربا تضافر تواطؤ على مستويات رسمية عالية جدا وكان العدو فيتلك المرحلة همالانكليز(١) .

ازاء اتساع المهمة، تم تخصيص عدد من المصالح داخل الموساد في اوروبا : «الهابالا» اعتنت بالهجرة . «البريشا» اختصت بتأمين فرار الناجين من المعسكرات وتسييرهم نحو موانىء الاقلاع . واختصت «الريهيش» بشراء السلاح . وكان (ايهود أفرييل) و(شاؤول أفيغور) هما المسؤولان الرئيسيان . اسمان سنلتقي بهما خلال هذا الكتاب .

لقد كان ينبغي الحصول على سفن بجميع الوسائل . ولم يكن من السهلالعثور عليها بالطبع فياوروبا التي اكتسحتها الحروب، طوال خمسة اعوام . فكان لا بد من شراء بواخر عتيقة بأثمان باهظة جدا من أمريكا او من سواها . وكان على الموساد اقامة معسكرات حقيقية على الشواطىء الايطالية او الفرنسية لمعسكرات (غران أرينا) و(سان جيرو) بالاتفاق او عدم الاتفاق مع السلطات المحلية . وكان عليها تقديم الطعام لاولئك العشرات الآلاف من الاشخاص في بلاد قنن فيه الخبز وأغلب المواد

---

(١) لجميع ما يتعلق بعهد «ما قبل التاريخ» لنشاط الموساد اي للفترة السابقة على انشاء دولة اسرائيل يمكن مطالعة بفائدة الكتاب الممتاز لجاك دي روجيه (قانون العودة) الذي أعاد فيه رواية تاريخ «الرئيس فارفيلد » بادئاً من التفاصيل ، في قصة تلك الباخرة المشهورة التي اتخذت اسم ايكزودرس .

الغذائية . فلقد اقيم على بعد مئات الامتار من محطة سان شارل في مرسيليا مخبر لاعداد كميات لا تحصى من الهويات المزورة . وكان المزور الرئيسي هو الدكتور (زفي ديغيشتين) الذي اصبح اليوم وزيرا ملحقا للمالية . وقامت الموساد «بشراء» قناصل بعض جمهوريات أمريكا الجنوبية بثمن غال، للحصول على سمات هجرة . وكان ينبغي اقامة اجهزة بث كاملة لتسمح لمختلف محطات الموساد ان تبقى على اتصال فيما بينها، وبتل أبيب ، وبالبواخر في عرض البحر . لا بد من سرقة مئات السيارات الشاحنة من الجيوش البريطانية والاميركية لتنقل عشرات الآلاف من الاشخاص عبر اوروبا كلها . كما كان على الموساد ان تصارع ضد الاستخبارات الانكليزية ، وبصورة خاصة ضد جهاز الاستخبارات العسكرية .

في ذلك الاعصار صهرت حقا روح الموساد ووحدتها . وكذلك تصميمها الحازم . وغدت المنظمة بوتقة فعلية جمعت اكثر الناجين من معسكرات الموت شدة وعزما والفلسطينيين الشبان الذين جاؤوا من المستوطنة والبالماخ (فرق الاصطدام للهاجانا) . لكن البحارة نادرون ، اذ لم يكن لمختلف الجاليات اليهودية للدياسبورا اية تجربة بحرية . كان جميع فتيان باليام (الفرع البحري للبالماخ) في اوروبا، وان كان اكثرهم سيصبح قادة مساعدين على بواخر «غير شرعية» ليس بسبب مقدرتهم البحرية انما لمراقبة القبطان الاجنبي الذي لم يكن خاليا من الشبهة . بين هؤلاء الفتيان فتى طويل القامة، لوحت الشمس بشرته، اسمهمازوخاي سترانيوم، اصبح بعد خمسة وعشرين سنة الاميرال ليمون، وهو الذي سيطلق الامر للقوارب الخمسة لتترك ميناء شيربور ليلة الميلاد من١٩٦٩ . وخلال تلك الفترة اكتشف قادة الموساد اهمية النيات الحسنةفي الخارج. ذلك «التعاون» ترك آثارا كثيرة وخلق سابقة . وخلال فترة طويلة ظل

الاسرائيليون يفكرون بامكانية الافادة من مساهمات على مستويات سياسية وادارية عالية جدا في بعض بلدان اوروبا (١) ، بصورة خاصة في فرنسا. ولذلك فان يقظة فرنسا في حزيران ١٩٦٧ ستكون قاسية الوقع لدى الاسرائيليين .

خلال عام كان من الصعب تصور وقوع مثل تلك الردة يوما ما . ففي ذلك التاريخ كان محافظ « بوش دي رون » وجميع مفوضي الشرطة في الجنوب وموظفي الاستخبارات العامة يغضون نظرهم . ولقد احتج في عدة مناسبات وزير الخارجية جورج بيدو «الانكليزي الاتجاه» . في مجلس الوزراء ، واكد أن تلك «الرومانسية» قد تحدث ازمة جدية مع بريطانيا العظمى ، التي تعرف تمام المعرفة ان فرنسا هي رأس الجسر في الهجرة الخفية . وفي لندن كان السيد بيفن جد راض عن موقف « الرجل القصير العزيز » بيد ان هذا الاخير كان وحيدا في موقفه في باريس . فأحدى محطات البث السرية للموساد كانت مقامة في بيت الاستاذ أندريه باومل ، المدير السابق لمكتب ليون بلوم ، ومدير مكتب (ادريان تكسييه) وزير الداخلية غداه التحرير . ويروي(جاك ديروجي)في كتابه الذي سبق ذكره مشهدا له دلالته في مكتب السيد (روجيه فيبو) مدير فرع المخابرات . فقد اكتشف محطة بث مسروقة من الامريكان في ضاحية باريس واوقف صاحب البيت والاشخاص الذين يشغلونها واطلق فيبو سراحهم بعد ان طلب اليهم ببساطة ان يطلعوه على شيفرتهم (٢) . وفي حالات عديدة كان رجاله يغيبون اثار العلماء الاسرائيليين الملاحقين

---

(١) يكشف مؤلف الكتاب بطريقة غير مباشرة كيف كان الصهاينة يشترون السياسيين والموظفين الاداريين الكبار داخل حكومات أوروبا لمساعدتهم على ترحيل اليهود ، والذين اصبحوا فيما بعد عملاء لاسرائيل (م).

(٢) اي ان ذلك المسؤول عن فرع المخابرات اطلق سراح العملاء الصهاينة بعدما اطلعوه على الشيفرة التي تستخدمها الموساد وهذا يعني أنه كان هو الآخر على علاقة بالجاسوسية . (م)

من قبل الاستخبارات الانكليزية . لم تكن اسرائيل دولة بعد ، بيد انها كانت منذ ذلك الحين في فرنسا دولة داخل دولة . كان موقف فرنسا من الصهاينة خاصا جدا غداة الحرب(١) بيد ان العديد من الانكلوساكسون هزتهم مشاهد الجثث المتحركة من معسكرات (برغن بيلسن) و(أو سفيتش) فهبوا لمساعدة الموساد. (ميلفيل مارك) هو مثلا يهودي انكليزي اصله من مانشستر ، كان واحدا من اوائل الضباط الانكليز الذين دخلوا معسكر الابادة . ما ان انتهت الحرب حتى انضم الى صفوف الموساد وقدم لها خدمات ثمينة « كضابط مرافق » . يدير ميلفيل مارك اليوم وكالة كبرى للدعاية في جنيف . عدة ضباط غيره من انكليز واميركان عملوا من اجل «المنظمة» في ذلك العهد ، بل غدوا اعضاء دائمين فيها .

ولقد كانت المهمة الرئيسية الثانية للموساد في الخارج في ذلك العهد اقل شهرة من مهمتها في تنفيذ سلسلة وقائع الهجرة السرية التي اشتهر العديد منها والتي اوحت بمواضيع كتب لاقت نجاحا. تلك المهمة الثانية تهدف الى شراء الاسلحة. فلقد كانت مشكلة صعبة التنفيذ بالنسبة للمسؤول عن حلها وهو (ايهود افريل) رئيس الموساد في اوروبا (والذي سيصبح فيما بعد سفيرا في ايطاليا) وبالنسبة ليهودا ازاري رئيس الريكيش (القسم المكلف بجلب السلاح) فقد كان شخصية مدهشة حقا ، فبين السائحين الذين يتزاحمون في (الرامات اخيف) ، احد اكبر فنادق تل ابيب ، من منهم يمكنه ان يتصور ان صاحب الفندق الذي يجلس على البار هو الرجل الذي وفر لنواة الجيش اليهودي اسلحته الاولى ؟

---

(١) وهذا الموقف الخاص الذي اصبح للاميركان بعد ان ورثوه عن فرنسا في الظروف الحاضرة . (م)

هذا العملاق الاصهب ، ذو الانف المسطح والسمة المميزة لملاكم، كان في البدء رئيس محطة بث في ايطاليا • عند نهاية الحرب انشأ وحدة عسكرية خيالية « فرقة النقل ٤١٢ » التي كانت تتصرف بخمسين شاحنة عسكرية اميركية • تلك « الوحدة » نقلت من قاعدتها وهو مرآب في ميلانو ، عدة مرات ، حمولات من مهاجرين ومن اسلحة ومن ذخائر الى مرافىء اقلاع خفية ، تحت انف البريطانيين • كان السائقون يرتدون الزي العسكري ، ويحتاج المرء الى حساسية الشم عند الكلاب حتى يكتشف مهماتهم المزيفة •

في مزرعة ماغانتا بالقرب من ميلانو اقام أزاري الملقب « الـون » وينادى كذلك « بالشيخ » (اذ كان في الاربعين من عمره وهو من الوجوه القديمة الفعالة في الموساد) • لقد أقام (يهودا أزاري) شبكته فوق اوروبا الغاصة بالاسلحة • وكان اول من وفر الاسلحة جنود الفرقة الفلسطينية اليهودية في الجيش الانكليزي الذين وصلوا الى اوروبا بعد نهاية الحرب • كانت عبارة عن اسلحة خفيفة بصورة خاصة: مسدسات ، بنادق ، قذائف • جمعت من ساحات القتال ، او اتنشلت من ايدي فرق التدمير او «استعيرت» من الجيش الاميركي ، الذي لم يكن مقتصدا البتة في هدر الاعتدة• كان كل ذلك بمثابة هداية جمع المخلفات•

وقد وفق أزاري في التفاهم مع مديري «فابريكا موتتي» وهي عبارة عن مصنع صغير في ميلانو ينتج موادا للاشغال العامة • وسرعان ما اتجهت مصنوعات موتتي الى موانىء فلسطين مزودة بالرخص الجمركية الضرورية ، الا انها كانت محشوة بالاسلحة والمتفجرات حتى في اطارات الاحتياط للبولدوزر •

لكن تلك التغطية سرعان ما ظهر عدم كفايتها ، فكان ينبغي اقامة «جسر بحري» سري بصورة خاصة من اجل نقل المتفجرات التي تحتاجها

الهاجانا بالحاح ، وكان من الخطر نقلها عبر الطرق العادية • وبالفعل كان من اشق الامور على رجال الموساد الحصول على متفجرات ، عسكرية من اسلحة وذخائر • فاضطروا للالتجاء الى حيلة بواسطة عملاء ، مفروض انهم يمثلون مصالح الحبشة• فاغدقت الرشاوى على بعض الموظفين في اديس ابابا بسخاء كبير • ولقد كان استخدام التغطية الحبشية في ايطاليا اسهل منها في بلجيكا او فرنسا •

قطع عملاء الموساد اوروبا كلها ذهابا وايابا للحصول على الاسلحة، اذ ان معلومات الهاجانة يتصاعد نذيرها من يوم الى اخر : ستهجم الجيوش العربية المجهزة بالمصفحات والطيران بالتأكيد لمجرد اعلان استقلال ، يعلم الجميع انه اصبح قريبا ••• والجالية اليهودية في فلسطين لا تعد اكثر من ٦٠٠ الف شخص، وجيشها مكون من ميليشيا سيئة التجهيز• وهكذا كان على الموساد ان تستخدم مختلف وسائلها بسرعة • موفد الموساد (ويلي كاتز) يصل الى رومانيا في نهاية عام ١٩٤٧ ويجتمع بأنا بوكر الذي كان عندئذ السكرتير الاول للحزب الشيوعي و « الرجل القوي » في بلاده • ولكن افضت المفاوضات الطويلة الى فشل • فقد اكدت رومانيا في نهاية المطاف انه ليس لديها سلاح كاف حتى لجيشها الخاص• وجاءت النتائج المخيبة نفسها من يوغسلافيا وبولونيا • ولكن برز الامل من تشيكوسلوفاكيا •

كانت المفاوضات متباطئة في هذا البلد منذ عام ١٩٤٧ وكان رسل الموساد الذين يستعملون « التغطية » الحبشية والتي ما كانت لتخدع احدا في براغ ، لم يتمكنوا من التوصل الى اية نتيجة • فقد كان النظام البرلماني يحتضر ، ولدى الزعماء مشاغل اخرى غير فلسطين • وبغتة تغير كل شيء غداة ، انقلاب براغ ، فقد استلم السوفييت السلطة عن طريق اشخاص وسطاء وكانت سياستهم وقتئذ في الشرق الادنى بسيطة جدا••

(١) تكتب بالالف الممدودة والتاء المربوطة .

هي القضاء على السيطرة البريطانية في المنطقة • وخير وسيلة لذلك هـو اعطاء السلاح الى اولئك اليهود الذين ربما استخدموه ضـد السلطـة المتدبة • وفي الاتجاه نفسه استعدت موسكو لتعطي السلاح الى العرب•

وبعد فترة وجيزة من استـلام الشيوعيين الحكم وصل (ايهـود افريل) رئيس الموساد في اوروبا الى براغ ودخل في مفاوضات فعليـة مع مصانع سكودا • وفي الوقت نفسه افتتحت محادثات مع المجريـين واليوغسلاف لتسوية بعض مسائل الترنزيت • ودون انتظار نتيجة تلك المحادثات التي افضت الى النجاح استأجر الموساد من الولايات المتحدة في اخر شهر اذار ١٩٤٨ طائرة من نوع D C 4 اقلعت من براغ فـي ٣١ اذار محملة برشاشات وبنادق وذخيرة • وكان الرجل الذي هيـأ العملية هو (تيدي كولبك) الذي سيشغل منصب محافظ القدس فيما بعد • ومن ناحية اخرى اشترى (افرام بلليني) الذي هو اليوم صاحب اكبر مصنع للسيارات في اسرائيل والذي بقي فترة طويلة يجمع (الدوفين) الفرنسية في مصنعه في حيفا، اشترى مركبا صغيرا من ايطاليا بمبلغ ٦ ملايين لير يدعى نورا••• ، تركت نورا مرفأ البندقية رسميا وهي محملة بأكياس البطاطا باتجاه فلسطين • وعندما وصلت الى عرض البحر تخلص المركب من تلك الاكياس واتجه نحو مرفأ يوغوسلافي ليحمل كمية مهمة مـن السلاح، مصدرها تشيكوسلوفاكيا• واما البحارة الايطاليون الذين كانوا مشوشي البال من عملية القاء اكياس البطاطا في البحر ادركوا الهـدف اخيرا، عندما تحطم صندوق اثناء نقله وافرغت البنادق من داخله• ووصلت « النورا » الى غايتها في اواسط شهـر نيسان دون ان تثـير شكوك الجمارك الانكليزية •

كانت الحالة في فلسطين تزداد تفاقما في ١٤ ايار بينما كان دافيد بن

غوريون يضع اللمسة الاخيرة على وثيقة اعلان الاستقلال(١) الذي سيقرؤها في اليوم التالي في متحف تل ابيب، اجتمع داخل كوخ خشبي في المرفأ المسؤولون عن عملية «شراء الاسلحة من الخارج» ازرائيل غاليلي رئيس الهاجانا (وزير الانباء حاليا) ترأس الاجتماع الذي حضره ليفي اشكول (الذي سيصبح رئيس وزراء) وبنحاس سافير (وزير المالية الحالي) واغلب قادة الموساد في اوروبا. كان يبدو المستقبل قاتما جدا: فقد صادر الانكليز عشية رحيلهم سفينة محملة بالسلاح قادمة من ايطاليا .

في نهاية الجلسة التي دامت طوال الليل ، ارسل غاليلي البرقية التالية «الى جميع الرفاق في اوروبا»: «السيدة (الاسم المستعار للسفينة) اعترضتها مدمرتان بريطانيتان وسحبتاها الى جهة مجهولة . سقوط كفاراتزيون (قرية يهودية قضي على جميع اهلها) . قرى اخرى من كوش اتيزيون تتابع المعركة . ننتظر غزوا قريبا . الحالة متفاقمة بجد . انتهى. التوقيع هيللي (اسم غاليلي المستعار) .

لم ينتظر عملاء الموساد تلك البرقية ليضاعفوا جهودهم . ست سفن تعبر البحر بصورة متواصلة: وهي الموتته ، السانيو، البوريا، ريزوركتيا، النورا . انها البوريا التي ترسو في ١٣ ايار تحت علم بانامي محملة : (٥) مدافع عيار (٧٥) مم و(٥٠٠) قذيفة من ذلك العيار ، و١٠٠٠ قذيفة عيار ٧٥ مم ، و٢٠٠٠ رشاش «شاكو» مليون خرطوشة عيار ٨ مم . كل هذا العتاد مغطى بـ ٤٥٠ طن من البصل . أمل رجال الموساد ان تمنع الرائحة البحارة البريطانيين من اظهار كثير من الفضول ... ومع ذلــك تلقت البوريا امرا أدهش الجميع ، بالاتجاه الى حيفا ، القاعدة الرئيسية للبحرية الملكية لتفتيش حمولتها . واكتشف موظفو الجمارك تحت البصل حمولة

(١) الصهاينة يسمون انشاء دولة اسرائيل بالاستقلال .

علب عصير بندوره • ولم يذهبوا الى ابعد ، وحكم على القبطان الايطالي بغرامة بسبب •• تهريب علب عصير البندوره • وبعد مضي فترة بدأ رجال الموساد بالحصول على الطائرات من كل مكان تقريبا: طائرات كونستلشين وكورتيس عتيقة مشتراة من المخلفات الاميركية عبر اميركا الوسطى وايطاليا • قلاع طائرة محولة الى طائرات مدنية ، حولت الى قاذفات حين وصولها • مسترشميث آتية من تشيكوسلوفاكيا • قاذفات من نوع (بوفييترز) وهي من صنع بريطاني وقد اقلعت من انكلترا الى اسرائيل عبر كورسيكا واتخذت تغطية لها تصوير شريط سينمائي تمجيدا لذكرى الطيارين النيوزيلانديين •

وقد مول الفيلم من قبل دار انتاج انشئت خصيصا لتلك الغاية • ثم طائرات من نوع (سبيتفاير) (دوغلاس) (سكايماستر)• فكأنها مجموعة متنوعة يضمها مزاد علني حقيقي •• والنادر من تلك الطائرات الغريبة اقتنيت بطريقة «نظامية» • لذلك فان المقارنة بين هذه الافعال وبين ما اثارته قضية اختطاف الزوارق الخمسة من (شيربورغ) الميناء الفرنسي بعد واحد وعشرين عاما تدعو الى الدهشة والتأمل (١) •

جرى كل ذلك في عهد الموساد «العظيم» ايام الحركة المحتدمة والرومانسية المجنونة والارتجال الدائم وسط الزوبعة • كان من المؤكد، غداة حرب «الاستقلال» التي ساهمت الموساد بقسط كبير في كسبها ،

---

(١) لقد وردت هذه العبارة بصيغة تركيب ضعيف ومبهم مترجم عن العبرية التي ما زالت تنقصها الدقة . ولذلك حاولنا توضيحها في العربية بقدر الامكان ولعل قصد الكاتب الاصلي انه يعجب لتطور الراي العام من النشاط الصهيوني اذ بينما تلك العمليات من تهريب اليهود والاسلحة والطائرات تمضي دون ضجة عالمية ظاهرة فان اختطاف الزوارق قد قوبل بضجة سلبية واستهجان عالمي .

أن تتطور تلك «المنظمة» تطورا جذريا وأن تتخذ صفة مصلحة استعلامات تقليدية رغم ان النزعة التقليدية في اسرائيل في هذا المجال (١) ...

ايسير هاريـــل

هو ضئيل ، نحيف ، عريض الكتفين جدا ، قصير الذراعين جدا . عينان رماديتان زرقاوان وحاجبان كثيفان جدا . ينتعل الصندل علـــى الدوام . ويتحرك باستمرار كأنه ركب على نوابض . كلماته موجزة ، متقطعـــة . ذلك هو ايسير الملقب بايســير هاريــل والملقب بايســـير القصير والملقب ايسير الرهيب . مؤلف كتاب لم تسمح المراقبة فـــي تل ابيب بنشره . كان الكتاب قنبلة متفجرة ، مؤيد بمستندات وحجـج وذلك هو السبب .. احتفظ ايسير هاريل بجميع اسرار اسرائيل طـوال ما يقرب من ١٥ سنة . انه اليوم نائب ، وعند افتتاح الدورة البرلمانيــة في تشرين ١٩٦٩ . انتشرت نكته خلال بضعة ايام في طول البلـــدان وعرضها . فحين اقترب حاجب من النائب الجديد الذي طلب الكلام ومد اليه الميكروفون القائم على عصا ، بحث النائب المحترم في جيبه واخرج غرضا صغيرا وهو يقول : «لست بحاجة اليه فلدي ميكروفوني الخاص». نائب عجيب هذا الرجل الذي انضم الى الصف العادي والذي كان واحدا من اقرب معاوني بن غوريون قبل ان يتخاصم مع الشيخ .

ولد ايسير هالبيرين عام ١٩١٢ ، في روسيا في فيتسك ، مدينـــة شاغال (٢) . وكان ابوه صناعيا صغيرا وصهيونيا متحمسا . وفـــي عام

(١) ترك المؤلف هذه العبارة ناقصة هكذا وهو يريد ان يوحي بـأن الكلاسيكية الاسرائيلية نزعة قديمة لتمسك اليهود بتراثهم المفرق في القدم .

(٢) شاغال فنان معاصر شهير انتقل الى فرنسا ولمعت شهرته هناك .

١٩١٧ انتقلت عائلة هالبيرين الى (دفيتسك) في ليتوانيا • درس ايسير الصغير في تلك البلدة حتى عام ١٩٣١ ، العام الذي «صعدت» (١) العائلة خلاله الى فلسطين • غير ايسير هالبيرين اسمه كما يفعل غالبية المهاجرين وصار ايسير هاريل • واستقر فيمستوطنة «شفايم» بالقرب من هيزلياء درس الزراعة وعمل فيها وخاصة حفر الترع وهناك تعرف في شفايم على (ريفكا) التي ستغدو امرأته بعد فترة وجيزة • وقد جعلته مهماته في المستوطنة على اتصال يومي تقريبا بعرب القرى المجاورة ، الذين كان يحاول اقناعهم بفوائد الاسقاء • وبسرعة تعلم لغتهم خلال المحادثات الطويلة وتفهم نفسيتهم • ومنذ وصوله الى فلسطين تطوع بالطبع في الهاغانا ، الجيش السري ، حاله في ذلك حال أغلب لداته • فراح ينقل المعلومات التي يحصل عليها عن اوضاع القرى العربية التي يزورها الى (الشالي) وهي مصلحة استعلامات الهاغانا • مثل موقف المختار والمفتي، خلافات الأسر المتوقعة ، الابنية الحديثة التي تقام : جميع الاخبار ثمينة بهدف احتمال شراء أراض او في حالة الحوادث التي تقع بين الجاليتين• منذ ذلك الحين راح ايسير هاريل يجمع معلومات دون ان يدري ، مثله مثل اغلب سكان المستوطنات اليهودية •

في عام ١٩٣٦ ، بناء على أوامر رؤسائه تطوع في فرع من الشرطة الاضافية ، انشأها البريطانيون ، ويضع افرادها على رؤوسهم قلنسوة فرو عجيبة • كانت تلك وسيلة الهاغانا لتدريب اعضائها عسكريا على نفقة السلطة المنتدبة في عهد ندر فيه السلاح • وكانت تلك وسيلة ايضا لاحباط بعض حملات الشرطة البريطانية التفتيشية • عين ايسير هاريل في وظيفة حارس شاطىء لكن لفترة وجيزة • وعندما سخر ضابط

---

(١) كلمة الصعود هي اللفظة الصوفية التي يستخدمها اليهود بدلا من الهجرة الى فلسطين وتعني العودة الى ارض الميعاد.

بريطاني أمامه بألفاظ جارحة من رجل ديـن يهودي ، صفعه • ثم طرد من الخدمة بعد ان نفذ الجزاء المسلكي • ألحق بعمل جمع البرتقال، وهو عمل لم يعجبه • وفي عام ١٩٣٧ جند تجنيدا كاملا في مصلحة استخبارات الهاغانا ، بواسطة ازرائيل زابلو دفسكي (والذي سيصبح اسمه الجنرال أمير في المستقبل) وقد كان يدير وقتئذ شبكات منطقة هيزليا • كان ذلك منطلق مستقبل براق له في مهنة الاستخبارات • فسرعان مـا عين رئيس قسم تل ابيب الكبرى ، اكثر المناطق ازدحاما بالسكان وأكثرها اهمية• ففي تلك الفترة تعرف على دافيد بن غوريون ودامت صداقتهما مـدة طويلة • وكانت اولى «مآثره» في عام ١٩٤٧ حين أكد للقادة الصهيونيين هجوم الجيوش العربية المتحالفة عند اعلان «الاستقلال» وقدم وثيقـة اصلية من الحكومة(١) المصرية تعلن عن بدء الهجوم يوم ١٥ ايار• كان ذلك مهما جدا من الناحية الاستراتيجية • وكذلك من الناحية السياسية • اذ تغلب رأي بن غوريون على رأي موشي شاريت ، القائل بالتفاهم مـع العرب •

في عام ١٩٤٨ رقي الى رتبة عقيد (سفان ألون) وقد كانت الرتبة الثانية في الجيش الاسرائيلي وقتئذ • وكانت المفاجأة كبيرة اذ انه كـان ما يزال مجهولا تماما من الجماهير ومن الكثير من اطارات الجيش • وبدأ الناس يسمونه ، ايسير القصير •• ليميزوه عـن ايسير بيري ، الرئيس الاول لمصلحة الاستخبارات في الهاغانا الـذي هو أطول منـه بمقياس رأس •

سميت المنظمة التي أدارها ايسير هاريل عندئذ شين بيت (مصلحـة الامن) • وقد جمعت الموساد ومصالح الأمن ونال الفرع «الخارجـي للموساد» استقلاله بصورة تامة وسمي رئيسها ايسير هاريل رئيس لجنة تنسيق مصلحة الأمن ، واحتفظ باليد العليا على مجموع تلك المنظمات•

(١) حكومة العهد البائد التي سبقت عهد ثورة ٢٣ يوليو .

انه اول «مسؤول» ، اول «ميمونة» يعمل بالتعاون الوثيق مع رئيس الوزراء ، وهو خاضع لمراقبة لجنة برلمانية محدودة . ولمراقبة (ميغاكرهامدينا) وهي مصاحة كبرى للمراقبة ، يعين البرلمان رئيسها، وهو مكلف بمراقبة حسابات الامة ، ويصلح الضرر الذي تلحقه الدولة بالافراد .

ما هي اعظم نجاحات ايسير القصير ؟ انه يجيب هو نفسه : «المرتين اللتين قبلني فيهما بن غوريون، قضية أيخمان ، وقضية يوسيل شيرماجز» .

لم تعد الحاجة كبيرة لاعادة رواية كيفية اختطاف قائد .د. .د السابق أدولف ايخمان . فقد نشر العديد من الكتب حول هذا الموضوع، خاصة كتاب موشي بيرلمان . لنذكر فقط انه في فجر ٢١ ايار ١٩٦٠ وبعد مطاردة طويلة ، كان ايسير القصير من جملة مجموعة من رجال يرتدون لباس طيران شركة (العال) يحملون ويدفعون باتجاه طائرة من طراز (بريتانيا) أحد زملائهم ، الذي يبدو مترنحا ومخمورا من شدة الافراط في المجون في ملاهي (بيونس ايرس) . كان ذلك الزميل هو ريكاردو كليمنت (ايخمن) . فلقد كان (الميمونة) وهو ايسير الاسرائيلي قد اخذ على عاتقه مراجعة ومراقبة العملية بنفسه واتخاذ اي قرار ملائم في حالة بروز طارىء غير متوقع . اما عملية (شوماخر) التي هي أقل شهرة ، بيد انها ليست اقل اثارة . فقد اوكل ابوان علمانيان ولدهما (يوسيل) وعمره تسع سنوات الى جده المتدين جدا . ورفض الجد بعد مضي بضعة اشهر ان يعيد الولد الى ابويه . فأقام الوالدان دعوى امام المحكمة العليا ، وهاج الرأي العام وغضب بن غوريون الذي لا يريد ان يسمح للمتدينين فرض قانونهم على البلاد . حدث هذا في عام ١٩٦٢ . وكلف بن غوريون شخصيا ايسير هاريل بالتحقيق . وجرت مطاردة عبر الدنيا بأسرها . فلقد ارسل يوكسيل خفية من ياشيفة الى (لدسيرن) ثم

نقل الى فرنسا في سيارة كولونيل فرنسي، وهو يهودي شديد التعصب، ثم اعيد الى سويسرا وأرسل بعدها الى (فيللا مسبورغ) الحي اليهودي في نيويورك ◦ وهناك عثر عليه عملاء ايسير هاريل المتنكرين بلباس باعة الحليب ◦ فأرسل برقية الى بن غوريون : «عثر على يوسل» وقبلات من «الشيخ» ◦ وعاق مرسل البرقية الذي بدأ الناس يطلقون عليه لقب «ايسير الرهيب» : «انها عملية اكثر صعوبة من عملية ايخمان ◦ فان كسر حلقة تضامن اليهود المتدينين لأشد صعوبة من التسرب الى بلد عدو في حالة حرب» ◦ ومع ذلك تراخت على مر السنين صلات الصداقة والثقة بين هاريل وبين بن غوريون ◦ اذ تصرف هذا الميمونة ، الصاخب احيانا والذي يشغل مكتبا بجوار مكتب رئيس الوزراء ، وكأنه دولة داخل دولة ◦ ولم يكن بن غوريون من الذين يغضون الطرف عن بعض مبادهات شخصية◦ بصورة خاصة تلك الدعاية التي رافقت قضية (ازرائيل بيئير) ◦ اذ كشفت مخابرات الميمونة بضجة كبرى ان بيئير المستشار العسكري لرئيس الوزراء، هو في الواقع عميل سوفييتي وأنه يبلغ موسكو بعض المقررات التي تتخذ على مستويات عالية جدا ◦

اعتبر بن غوريون نفسه موضوع سخرية ودنت القطيعة بينهما ◦ ووقعت فعلا بعد بضعة اشهر في اول نيسان من عام ١٩١٣ بمناسبة قضية (بن غال) المسماة ايضا قضية العلماء ◦ تلك القضية سنعود اليها فيما بعد ، والتي نوجز الان خطوطها العريضة بما يلي : اثار هاريل حملة تخويف «قوية» ضد العلماء الالمان في مصر ، الذين كانوا يحاولون اقامة صواريخ قريبة الشبه بصواريخ «ف ٢» اي طرود متفجرة ◦ تهديدات ، محاولة خطف ابنة احد اولئك العلماء ، جميع الوسائل ابيحت في الفترة التي كانت المانيا بزعامة المستشار ايزنهاور ، تقدم بالسر الى اسرائيل كميات كبيرة من الاسلحة وتدفع لها تعويضات مالية باهظة ◦

فغضب بن غوريون وهو يرى سياسته معرضة لخطر التصدع من جـراء تصرفات رجال ايسير هاريل وأصدر امره الى رئيسهم بايقاف «حماقاته» فورا . وقدم رئيسهم استقالته فورا .

في تلك الفترة عرف ايسير الصغير لأول مرة في حياته بحبوحـة مادية نسبية . (فالميمونة مكافأ بشكل وافر جدا) واصبح رئيس شركـة مالية للتوظيف . لكنه لم يقنع بترك مقدمة المسرح . في ٣ ايلـول ١٩٦٥ عرض عليه ليفي اشكول الذي خلف بن غوريون في منصب الرئاسة ، منصب مستشار عام لقضايا الامن .. ولم يكن رئيس الوزراء الجديـد الذي كانت قطيعته مع بن غوريون مدوية ، مستاء بضمه اليه احـــد معاوني سلفه القدامى ، والذي هو فوق ذلك رجل مفتن . قبل هاريـل المنصب في الحال لكنه سرعان ما ندم . خسر مكتبه بجوار مكتب رئيس الوزراء وارجع القهقرى الى آخر المعبر . واعتبر هذا المنفى غير مقبول، علاوة على ان الميمونة الجديد ، الجنرال ماير أميت ، عقد عزمه على ان يكون ميمونة بلا منازع. وطوال عشرة اشهر ستكون مهمة ايسير الصغير الوحيدة تهيئة تقرير ضخم عن اوضاع العرب في اسرائيل .

في ٢٩ حزيران ١٩٦٦ قدم ايسير هاريل استقالته من جديد وهـو اكثر سخطا على ليفي اشكول مما كان ساخطا على بن غوريون ، الذي شرع في التفاهم معه . وانتهز اوقات فراغه لكتابة كتابه الشهـير الذي سيمنع نشره مرؤوسوه القدامى فـي مصالح المراقبة. ويرفع لهذا السبب دعوى امام المحكمة العليا في ٣ ايار ١٩٦٨ . وفي حزيران ١٩٦٩ يتـرك حزب ماباي الذي كان احد اعضائه العاملين القدامى ليرشح نفسه فـي ايلول ضمن «قائمة الدولة» لبن غوريون وفاز بالنيابة لكنه لم ينجـح في تسميته عضوا في اللجنة البرلمانية للدفاع والخارجيـة ، مما اثار دهشته وغضبه .

تلك هي عظمة وبؤس الميمونة القديم •• فان ايسير الصغير هو اليوم وجه شخصية فولكلورية في اسرائيل ، وأخبار غضباتـه وحماقاته مشهورة • الامكانية والاحتمال ضعيف في ان ينجح ويعود يوما الـى مقدمة المسرح • غير ان نشر كتابه المحتمـل مرتقب بفضول كبير ••• ومنذ ان استقال ايسير الصغير فقد تبدل كل شيء داخل الموساد • ان زمن الشخصيات الصارخة الالوان قد ولى وجـاء زمن العسكريـين والتقنيين •••

الجنرال ماير أميت ، الميمونة الثاني لدولة اسرائيل ، عين في هـذا المنصب غداة استقالة ايسير هاريل • وتخلى عن منصبه في ايلول ١٩٦٨ بعد مضي بضعة اشهر على حرب الايام الستة • ازدادت سرعة الايقاع ، وقدرت الحكومة المذعورة تصرفات ايسير الصغير ، ان مـن الضروري مضاعفة حركة الدوران فان مناصب الميمونة بحاجة ايضا الى ان يعـاد تقديمها •

لم يكن ماير أميت ، بخلاف سلفه ، كثير الكلام • «ان اخـراج حجر من الماء لأسهل من سحب كلمة من هذا الرجل» ذلك ما قاله عنـه صحفي من جريدة «معاريف» بعد ان حضر المؤتمر الصحفي الوحيد الذي اعطاه في حياته ، غداة دخوله الى القطاع الخاص «اي الاستخبارات» •

ولد هاريل في روسيا• اما أميت فهو «صبرا»(١) ، فقد ولد في طبريا عام ١٩٢١ من والدين قدما من روسيا ، بعد دراسة في المدرسة الزراعية في (حيفان هاشلوت) ومدرسة (بلفور) في تل ابيب نال البكالوريا فـي ١٩٣٩ • بقي مدة احد عشر عاما عضوا في مستوطنة (ايلونيم) • منـذ ١٩٣٦ تطوع ، وهو ما يزال تلميذا في الهاغانه والحق بمصلحة النقليات ، بعد ان تابع دروس قائد فصيلة • ومر هو ايضا في صفوف الشرطـة البريطانية الملحقة ، قاد فصيلة من الهاغانه في ١٩٤٤ • عين قائـد مشـاة

(١) من مواليد فلسطين المحتلة .

خلال حرب «الاستقلال» وساهم في القتال ضد الجيوش العراقية والسورية والاردنية في معركة مستوطنة داجانيا • جرح امام جنين واشترك قبل ان يلتئم جرحه في معركة الجليل الادنى ، بعد الهدنة الاولى في حزيران ١٩٤٨ • وفي كانون الاول ١٩٤٨ اشترك على رأس فيلقه في الاستيلاء على ايلات •

في كانون الثاني ١٩٥٠ عين في الشمال قائد كتيبة (غولاني) ، احدى الوحدات النخبة في الجيش الاسرائيلي • سلكه العسكري لامع منتظم • في ١٩٥٥ يحل محل الجنرال افيدار المعين سفيرا في موسكو على رأس مكتب العمليات • قاد معركة الجنوب في ١٩٥٦ ايام حملة سيناء ثم منطقة الجنوب • في تموز ١٩٥٨ جرح جرحا عميقا اثناء قفزة في التمرينات اضطرته الى لزوم الفراش طوال ستة عشر شهرا • وبذلك بدا ان مهنته العسكرية اصبحت منتهية • الا انها قد بدلت شكلها فحسب••

ما ان تماثل الى الشفاء حتى سافر الى الولايات المتحدة حيث مكث عامين ، نال خلالهما دبلوما في «ادارة الاعمال» • وحين عودته الى اسرائيل وبينما كان يسعى الى عمل في «القطاع الخاص» ، عرض عليه منصب رئيس «الآمان» وهي مصلحة الاستخبارات في الجيش ، فقبله• وفي صيف ١٩٦٣ بعد استقالة ايسيل هاريل عين ميمونة للموساد• ذلك مثل ، غاية في الوضوح على الشفافية بين مختلف فروع مصالح الاستعلامات •• (اي على التعاون المطلق بينها) •

لقد افضى الجنرال أميت ، رغم صمته المألوف ، ببعض الحديث الى صحفي من جريدة (لامرحاب) بعد انتقاله النهائي الى «القطاع الخاص»• قال : «قبل تسميتي ميمونة كنت جنرالا • كنت شخصية عامة ، ارتدي البزة العسكرية • في طرفة عين كان علي ان اصير غفلا ، ان امحي من خارطة بلادي ، وذلك بعد عشرين سنة من الخدمة في القوى المسلحة •

كان يجب علي أن اختفي كما لو ان الارض انشقت وغيبتني • وأصعب الاشياء ليست هي التلاشي انما الظهور من جديد بعد تسميتي ميمونة» •

انها لاعترافات مفيدة تدل على مدى اهمية السرية التي ينبغي ان تحيط بهوية المسؤول في اسرائيل وشرح ذلك ايسير : فأسباب الأمن ثانوية ولكن ما يعتبر اساسي هو الا يستطيع العدو ان يثبت الصورة البسيكولوجية لرئيس جميع مصالح الاستخبارات • اذ يسمح له ذلك في التمكن من التنبؤ ببعض ردود فعله • وتجدر الاشارة مع ذلك الى ان كتمان السر عسير، بسبب فضول الصحافة الاجنبيةغير الاسرائيلية التي لا تعتبر نفسها ملزمة بتطبيق الرقابة الذاتية التي تطبقها الصحافة الاسرائيلية على نفسها •

لنستمع ايضا الى الجنرال أميت يعرض في جريدة (لامرحاب) مفهومه لدور مصالح الاستخبارات داخل البلد : «ليست المسألة عندنا ان تسلك مصالح الاستخبارات سياسة مستقلة • كما ان الجيش لا يفعل ذلك • ففي الشرق الاوسط ، اسرائيل هي الدولة الوحيدة التي لا يصدر الجيش فيها أوامر الى الحكومة • انما العكس هو الذي يحدث• فمصالح الاستخبارات لا تشكل الا جزءا تحتيا من بناء البلد ، وعلينا ان نلتزم بسلوك الجيش نفسه • واذا لم يلتزم موظف ، مهما علا منصبه، بهذا السلوك ، فعليه ان يستقيل» • تلك غمزة صريحة موجهة الى سلفه ••• وبخلاف سلفه لم يقم ماير أميت ولم يرد ، اية علاقات مع رجال السياسة غير رؤسائه بالتسلسل عندما كان ميمونة •

مرة واحدة فقط ، عشية حرب الايام الستة دفع الى ان «يتدخل» في ظروف دراماتيكية بصورة خاصة • وفي ٢٧ ايار رجع السيد آبا ايبان الى تل ابيب قادما من واشنطن حيث قابل الرئيس جونسون • وكان الرئيس الاسرائيلي يعتقد ان الولايات المتحدة قد تنجح في تكوين

اسطول بحري دولي لخرق الحصار المصري في مضيق تيران • وكـــان مقتنعا ان البيت الابيض ، الحريص على تجنب اية مواجهة مع السوفييت ستحول مسرعة في حال هجوم قوى الدولة العبرية على سيناء • فشرح وجهة نظره تلك عند عودته ، امام مجلس الوزراء • وفي ٣٠ ايار سافر الجنرال أميت سرا الى واشنطن بناء علـــى طلب رئيس مجلس الوزراء السيد ليفي اشكول • وكان لرحلته تلك اهمية رئيسية وهي تمحيـــص معلومات السيد آبا ايبان والتأكد من ان الامريكان هم فعــلا مستعدون لفرض وقف اطلاق النار بسرعة في حالة هجوم مفاجيء مــن قبل الجيش الاسرائيلي• وفي ٣ حزيران كان في وسع الميمونة ان يؤكد برقيا الى ليفي اشكول : حياد مضمون • عملية يجب ان تكون سريعة جدا لكنها لن تثير اي تدخل •

بعد يومين من ذلك ، في ٥ حزيران ، كان بدء الحرب • فمن قابل الجنرال أميت خلال رحلته الخاطفة ؟ انه تنافس مــع رؤساء وكـــالــة الاستخبارات الاميركية في (لنفلاي) ويبدو ايضا انــه اجتمع ببعـــض مستشاري الرئيس جونسون ومنهم السيد والت روستوف • لكـــن الاحتمال ضئيل ان يكتب الميمونة السابق في يوم ما مذكراته ••• انـــه منذ شهر ايلول ١٩٦٨ يدير (الكـــور) المنظومة الصناعيـــة للهستدروت (المركزية النقابية الكبرى) •

هذا الرجل الفاتر ، ليس بمتذوق للأدب ، وبصورة خاصة لقصص الجاسوسية • انه يعترف مع ذلك بأنه أحب «الرجل الذي جاء مـــن الصقيع» لجون لوكاريه ، الكتاب الوحيد من ذلك الضرب الذي أقر انه قرأه •

لقد تطور الموساد تحت ادارة (ماير أميت) بشكل محسوس • ان هذا الرئيس السابق للامان (المكتب الثاني للجيش) قـــد تابع علاقاتـــه

الطيبة مع الجنرال (باريف) الذي خلفه في ذلــك المنصب • وما زالت مصالح الموساد تنمو حتى ايامنا هذه • هذا المرؤوس السابــق للجنرال دايان عاد فالتقى في حزيران ١٩٦٧ ، بوزير دفاع سبق له ان كان معاونه في مكتب العمليات • هذان الرجلان يتكاملان على أبدع ما يكون • فبقدر ما دايان هو عصبي المزاج بقدر ما (أميت) هو بارد • لكن هذين الضابطين اللذين يريدان ان يكونا خليعين كل على طريقته هما صهيونيان صميمان •

لم يكف خريج جامعة كولومبيا هذا عن الالحاح خلال خمس سنوات على حاجة اسرائيل لاستخدام «الزاوية العلمية» في وجه اعدائها وعلــى اهمية تجنيد الجامعيين •

ويقول : «يجب ان يكون لنا دائما تفوق كبير على العدو • فنحــن محتاجون الى تقنيين بارزين • ويضيف : مشكلتنــــا الكبرى هي ان اسرائيل محاطة بعالم ليس منطقيا • يستطيع الاميركان الى حد ما تقدير نوايا السوفييت بل حتى الصينيين ، بينما يعيش العرب في غير الواقع• ولذلك لا غنى لنا عن مهارة التحليل الذهني والاستعانــــة بعلم النفس بصورة دائمة» •

انه يقر أن وصوله الى منصب رئاسة الاستخبارات العامة فـــي دولة اسرائيل يؤلف أهم مرحلة في حياته «بسبب تراكب ما هو عسكري، واقتصادي ، وسياسي ، وبسيكولوجي (١) » حين سأله صحفي « هــل أحسست بشعور السلطة عندما كنت ميمونة ؟ » أجابه : « سلطـــة

---

(١) يقصد ان هذا المنصب في قيادة الاستخبارات كان يضع تحت سلطته مفتاح التوجيه العسكري والاقتصادي والسياســي والسيكلوجــي لاسرائيل كلها . وهذا يعني أن نفوذ صاحب الاستخبارات يأتي مــن الدرجة الاولى في حكم الدولة السرية داخل الدولة العلنية . وهو نموذج السلطة الاميركية المعاصرة داخل بلدها . كما نشرنا في المقدمة.

شخصية لا ، لكن كان في يدي أداة قوية جدا تسمح بتحقيق أشيـــاء كثيرة » .

في عهد نفوذ ماير أميت على المخابرات تحققت قضية (ايلي كوهين) في دمشق وقضية (لوتز) في القاهرة . وهو كذلك الذي أوصل الـــى النهاية «اقتناء» ميغ ٢١ من العراق . انه هو الذي قام بأعباء المسئوليـة الفادحة لتهيئة حرب الايام الستة . وهو يعيش اليوم ببساطة كما كـان يعيش عندما كان ميمونة . وترفض زوجته دائما التي تعرف عليها فـــي مستوطنه ان تكون في بيتها خادم . كل ذلك يضرب على الاعصاب لشدة ما هو قدوة لكن تلك هي الحال في اسرائيل لدى العديد من الشخصيات الشعبية ! (١)

---

(١) نرجوا ان يلاحظ القارىء محاولة الكاتب رسم هالات قدسية حول رجال المخابرات الاسرائيلية رغم كل ما عرف عنهم من استعمال أساليب غير شريفة ، وبعيدة عن الاخلاق .

بعد مضي بضعة اسابيع على «تقاعد» مايـر أميت كان الملحـــق العسكري للسفارة الاسرائيلية في لندن يقيم حفلة وداع قبل عودته الى بلاده • كان دوق دوكنت ، الشاب يمثل الملكة ، ويستوضح بأدب مـــن الجنرال زفي زامير عن منصبه الجديد • اجابه الضابط : «سأدخل فـــي صناعة النسيج» كان يعرف الجنرال زامير منذ خمسة عشر يوما انــــه سيصبح الميمونة الثالث لاسرائيل •

قناع لا يعرف الابتسام ! التعبير ضعيف • وهو اذا قورن بمايـــر أميت يظهر كوجه منبسط بهيج وسياسي محنك • كان يمكن للبعض ان يأخذ عليه صداقته مع دايان • اما زفي زامير ، الملقب «زفيكا» فهـــو «الرجل بلا صفات» نحيف جدا ، جاف جدا ، قريب الشبه الى الانكليز، العينان زرقاوان جدا ، قاسيتان جدا ، الجبين عار ، يملك الى درجـــة نادرة موهبة وضع محدثه في وضع انزعاج وضيق حتى‌حين يكون محدثه اقرب معاونيه • انه في الواقع لا يستريح الا في مستوطنة •

ولد في بولونيا في ١٩٢٥ ، جاء الى فلسطين في السنة نفسها ، وله من العمر بضعة اشهر ، مع ابويه • درس في المدرسة الابتدائية فـــي تل ابيب ثم في كلية بلفور في تل ابيب مثله في ذلك مثل أميت • واصبح عضوا في (البالماخ) في سن السابعة عشرة • اوقف في عام ١٩٤٦ مـــن

قبل الشرطة البريطانية بينما كان «يغطي» انزال مهاجرين غير شرعي • سجن ، ثم احتجز في معسكر اللطرون ، ككثير من قادة اسرائيل المستقبلين • واثناء حرب «الاستقلال» قاد كتيبة هاريل ، المنوط بها شق طريق القدس • وفي عام ١٩٥١ على رأس كتيبة جيفاتي • ثم التحق بـ «ستاف كوليج» في بريطانيا العظمى حتى ١٩٥٤ لتخريج اركان الجيش • وأصبح قائد كتيبة في سيناء اثناء معركة ١٩٥٦ • ترك الجيش في ١٩٥٦ ليحصل اجازة جامعية في الجغرافيا وأخرى في تاريخ الشرق الاوسط • وبعدها قاد الجبهة الجنوبية قبل ان يذهب الى لندن • وفي تلك الفترة وسع من شبكة الاستخبارات في منطقته وقام بعديد من عمليات «احباط» واقناع مكتومة اكثر منها قصاصية ضد معسكرات « الارهابيين (١) » في منطقة غزة •

شغل منصب ملحق عسكري في لندن ومعتمد في الوقت نفسه في اسكندينافيا• شأنه شأن الاميرال ليمون في باريس• انه يمثل في العاصمة البريطانية وزارة الدفاع الوطني من اجل شراء الاسلحة • وهو الذي شرع في المفاوضات من اجل انشاء مصنع في اسرائيل لتركيب دبابات ثقيلة من طراز (شيفتان) معدلة • لم تتم الصفقة من جراء انذار بعض الدول العربية ــ منها ليبيا ــ بالغاء طلباتها من شيفتان ، فيما اذا سلم الانكليز دبابات من هذا النوع الى الاسرائيليين • كان الجنرال زامير خلال اقامته في لندن يصادف غالبا في حفلات الكوكتيل او الاستقبال ، نظيره المصري الجنرال شاذلي ، الذي هو مديد القامة ، نحيفها ، شبيه بالنسر • ذلك الضابط الذكي ، غير المتزمت ، قاد فرقة الخوذات الزرقاء المصرية (٢) في الكونغو • واثناء حرب الايام الستة لم يمكنه الوقت من شطر النقب الى شطرين «بواسطة قواته الخاصة» لكنه نجح في أن

(١) الفدائيون العرب من مصريين وفلسطينيين الذين كانوا يتناولون العدو في الأرض المحتلة قبل حرب السويس •

(٢) اي الفرقة المصرية المتطوعة مع الامم المتحدة .

يفلت من الأسر فانطلق متخفيا بزي بدوي وتمكن من اجتياز قناة السويس سباحة ، وبعد بضعة ايام من الاندحار وعندئذ عهد اليه الرئيس ناصر قيادة جميع فرق الصدام (المظليين ، السباحين ، المقاتلين) ، وكانت الفرص تتيح احيانا للميمونة غداة بعض «ضربات» ناجحة للمصريين ان يتأمل امام صورة زميله القديم في لندن وأن يتساءل عما يمكن ان يهيء •

«زفيكا» زامير هورجل غاية في الدقة ، يعتمد اقل ما يمكن على المصادفات • عندما كان يقود الجبهة الجنوبية كان يتعرف دائما على الارض قبل المناورات في سيارة الجيب او مشيا على الأقدام • انه هو الذي ادخل نظاميا استعمال اطلاق الرصاصات الحقيقية اثناء المناورات • لقد كانت تسليته الوحيدة خارج عمله ومطالعة الكتب العسكرية : هو المشي • يقول : «عرفت البلد بقدمي • الشيء النادر الذي لم تفسده كثيرا بعد المدينة الراهنة» •

لماذا اختير هذا الرجل الذكي ، والذي هو في نهاية المطاف شخصية باهتة ليكون ميمونة ؟ يبدو أن ذلك كان بسبب كتمانه الشديد وظاهر شخصيته المحمية •

ولقد عينه ليفي اشكول في هذا المنصب ، قبيل قليل من موته ، في عهد كان رجل كدايان ينازعه سلطته • وكان ماير أميت هذا الجندي الصارم آثما بعض الأثم لصداقته معوزير الدفاع الوطني ، ولهذه الصفة كان موضوع شبهة من قبل مدام غولدا ماير التي كانت في تلك الفترة تعد عودتها الى المسرح السياسي • ومن ناحية اخرى لم يغفر السيد أبا ايبان لآميت كونه قد «ازدوجه» (١) في واشنطن • ان جميع تلك

(١) رأينا ان نطلق لفظة (ازدوج) للكلمة السياسية الشائعة الآن في لغتنا اليومية وهي (دوبل) (Doubler) والكاتب يشير هنا ان أبا ايبان لم يغفر لآميت انه اتصل بواشنطن من وراء ظهره، وبالمخابرات الاميركية ومستشار جونسون ليحصل على الضوء الاخضر لحكومته كي تقوم بهجوم حزيران •

الاسباب قد لعبت لصالحه كعسكري وأثبتت تجرده اكثر عن الصفة السياسية ، وحياده التام رغم امتلاكه الصفات الضرورية الموجودة تحت اليد في السوق (اي امتلاكه لأهلية العمل السياسي شعبيا) •

ومنذ٢٩ تموز ١٩٦٨ «انفتحت الارض تحت اقدام الميمونة •• حسب تعبير أميت • لا أحد في اسرائيل يلفظ اسم (زفيكا) زامير • فهو اكثر من سلفه ، قد عاف الحياة الاجتماعية كلها ، بل حتى الالتقاء بأغلب اصدقائه النادرين • ولكنه بعد شهر من الزمان او بعد سنة سيعطي بدوره مؤتمرا صحفيا ، لا يقول خلاله شيئا قبل ان يستأنف عيشه العادي وأن يدير غالبا مؤسسة عامة : ان سيارته الكبيرة السوداء تقف في بعض الاحيان في باحة وزارة الدفاع ، وهو اليوم يرأس كل اسبوع في مكتبه في الموساد اجتماع رؤساء مختلف مصالح الاستخبارات ، لكن شروط عيشه وعمله تبقى لغزا• وهكذا فان اسرار اسرائيل لم تكن مصانة بهذا القدر قبل (زفيكا) •

الآمـان

بعد الموساد المعادلة لـ(.C.D.E.C.E) وهي المخابرات الفرنسية او (.C. I. A)، وهي المخابرات الاميركية فان المصلحة الثانية المعهود اليها تسيير حرب اسرائيل السرية وهي مصلحة استخبارات الجيش ، المعادلة للمكتب الثاني الفرنسي والمشهورة تحت اسم آمان • اختصار الكلمتين العبريتين (اغاف موديين) (مكتب الاستعلامات) التي تسمى احيانا ببساطة (موديين) •

تعين الآمان الملحقين العسكريين في الخارج ، وتملك مصلحة خاصة للصحافة والاعلام التي يرتبط بها الصحفيون الاجانب المعتمدون لصالح

اسرائيل في تل ابيب والقدس والتي تأخذ على عاتقها مسؤولية ضبط وتوجيه الاعلام في كل ما يمس عن قرب او عن بعد ، المجال العسكري. ومنذ ١٩٥٦ عظم عددها وعدتها وكبر دورها وتوسع توسعا هائلا، وفاقت اهميته دور الموساد . تلك الظاهـرة طبيعية اذا ما اخـــذ بالحسبان ان للمعلومات عن عتاد ونوايا الجيوش العربية اهمية حيوية بالنسبة الـــى اسرائيل . وينبغي الا يغيب عن الذاكرة كذلك ان في مصر العدو رقم ١ بين الدول العربية، يسيطر النظام الثوري منذ ١٩٥٢ . وتلك ايضا هي حال سورية والعراق ، على درجات مختلفة، فكان من الطبيعي في تلك الشروط ان تصبح الآمان حتما هي الولد البكر لمصلحة الاستخبارات . رغم ان الموساد حافظت على الاولية لاسباب تاريخية في جوهرها . ترجع قـوة الآمان الى اسباب ثلاثةاساسية : انها تجد امامها دائما الاخصام انفسهم وانها تعرفهم «جسمانيا» لوقوع العديـد منهم اسرى بين ايديها عـدة مرات . واخيرا انها تستعمل الوسائل التقنية الاكثر تقدما ، والاساليب الكلاسيكية في الوقت نفسه ومن اجل الاطاحة بنشاط واساليب عمـل الآمان ، فانه من الاسهل الانطلاق لتحليل نموذج الاشخاص الذين تركوا آثارهم عليها ، وذلك افضل من الجري في تحليل عام مجرد له ، الى معرفة دقيقة بهذا الجهاز .

بما ان مهمات المكتب الثاني تتماثل تماثلا كليا في جميـــع بلدان العالم : وهي المراقبة ، الاستماع ، التقدير ، الاستيلاء على وثائق، معرفة قوة العدو ونواياه ، فان اسرائيل مستخدمة في هذا المجال سلاحـــين رئيسيين : علم النفس والعقل الالكتروني .

لقد تعاقب على الآمان عدد من الرؤساء اكثر مما تتالى عليها مـن (الميمونات) ، وبينهم شخصيات مهمة عديدة ، منهم الجنرال (هاليـــم هرتزوغ) على سبيل المثال الذي هو حاليا المعلـــق الرسمي للاذاعـــة

الاسرائيلية ، والذي كان المصدر الرئيسي للاخبار لعديد من القـــادة العرب طوال حرب الايام الستة • وكذلك الجنرال (ي• ماركابي) مجاز في الفلسفة والأدب العربيين من الجامعة العبرية في القدس ، وأحـــد الاسرائيليين الذين طلب اليهم جان بول سارتر دراسة لعدده الخاص من مجلة (الأزمنة الحديثة) المكرس للصراع الاسرائيلي العربي • كان عنوان مقال الجنرال (ماركابي) الطويل جدا : «عقبان وحمامات» ولـــم يضع رئيس الآمان السابق نفسه بين العقبان ، حين كتب في الخاتمة : « ان القبول بالكذب على النفس هو الزلة التي قد تصـدع البناء بكامله • فعندما تريد اسرائيل خاصة ان تقبل الحقيقة بكليتها فانها ستجد قـوى جديدة لتقدم وجودها الخاص وتؤكده • وحين تأخذ هي بعين الاعتبـار شطر الحقيقة المتضمن في شكايات العرب ، فان ذلك لا يضعفها البتة بل على العكس • وسيفيد مثل ذلك النقد الذاتي الاسرائيليين للتغلب علـى تقززهممن التسليم بعداءالبلدان العربية الأمضى تجاههم • وسيسمح لهم بتجنيد جميع قواهم للنجاح في ذلك •• »

لقد خدم بين صفوف (الآمان) عديد من شخصيات طريفة ، وفاتنة في بعض الاحيان ، وهي قبل كل شيء شخصيات عسكرية ايضا ، وغالبا ما يكونون كذلك• وهم جميعا مستعربون (١)• وأحيانا رياضيون اصحاب شهرة عالمية • تلك هي حال (يوفال نييمان) عميد كلية العلوم في تل ابيب حاليا • انه لم يترأس ابدا بصفة (آمان) ، بيد انه كان معاونا لبنجامـان غيبلي ، وحل بعض الوقت محل الاخير بالوكالة قبل ان يصير معاونـــا لـ (مار كابي) •

---

(١) مستعربون ، اي انهم ملمون بالعربية وثقافتها ، وعارفون بالشؤون العربية . وهذا المقطع يكشف للقارىء العربي ، كيف لا تترك المخابرات الاسرائيلية امكانية علمية او ثقافية الا وتستغلها في صراعها ضد الدول العربية .

يوفال نييمان

كان ابوه احد مؤسسي تل ابيب، قدم من ليتوانيا في ١٨٩٠ • لكنه سكن مؤقتا في ١٩٣٠ لاسباب مهنية ، مدينة بور سعيد في مصر • ولـد يوفال الصغير في ١٩٢٨ وتردد على المدرسة الفرنسية • بعد عودة اسرته الى فلسطين ، انتسب الى كلية هرتزليا في تل ابيب وتخرج منها في سن الرابعة عشرة حاملا البكالوريا • لم يخالف نضوجه المبكر وعده ، فقد نال اجازة العلوم في سن التاسعة عشرة من معهد (التكنيون) في حيفا •

قصير القامة ، حيي ، قصير البصر جدا ، لاقى صعوبات جمة عنـد قبوله في الهاجانا • كان رفاقه يسخرون منه• ويناودنه منذ ذلك الحين «استاذ» • لكن نييمان قاوم ونجح بفرض نفسه • في ١٩٤٨ اثناء حرب الاستقلال ، عين معاونا لقائد كتيبة جيفاني ، وقاتل جيدا لكن دون ان يضيع فرصة بين قتالين لدراسة كتبه في الفيزياء والرياضيات • غـداة المعركة كان اول ضابط اسرائيلي يذهب الى فرنسا ثم يعود بعد ان انهى كلية الاركان • في ١٩٥٠ عهد اليه مهمة وضع نظام تعبئة اقتصاديـة وبشرية ، الذي كان موضوعاعجاب من قبل الاخصائيين لسرعته وفعاليته وكذلك لغزه • في نهاية ١٩٥٤ اصبح الرقم الثاني في الامان الى جانب غبيلي ، ثم ناب مؤقتا منابه غداة قضية (لافون) قبل ان يكون من جديد معاون الجنرال ماركابي •

في ١٩٥٧ ، طلب ترك الجيش ليتابع دراساته . اقترح عليه موشيه دايان الذي كان (راماتكال) حينئذ (رئيس الاركان العامة) منصب ملحق عسكري في لندن حيث يتمكن من تحضير اطروحة دكتور في الفيزياء . وعند عودته الى اسرائيل سمي مدير الفرع الصناعي للجنة القوة النووية ومدير (ناحال سوريل) ، مخبر الابحاث النووية العسكرية ، القائم قريبا من قرية (ديمونا) الصغيرة في النقب. وبهذه الصفة يعتبر أبدا وراء القنبلة النووية التي يمكن ان تكون اسرائيل قد ملكتها دون ان تجربها مع ذلك ابدا .

في ١٩٦٢ سمي استاذ الفيزياء النووية فيجامعة تل ابيب . وفي تلك الفترة اكتشف ، وفي الحين نفسه، النظرية التي اكتشفها الاستاذ الاميركي (موراي غيلمان) من جامعة كاليفورنيا ، نظرية «الاوميغا السلبية» التي تسمح بتنسيق جملةمعطيات فيزيائية نووية تبدو ان لا صلة تربطها ببعضها بعضا . ورشح الرجلان في ١٩٦٢ لجائزة نوبل في الفيزياء وكادا يفوزان بها . ولقي (يوفال نييمان) نتيجة تكريسه العلمي الرسمي ففي ٦ كانون الاول ١٩٦٩ نال جائزة (البير اينشتين) التي تمنح لاول مرة لشخص غير اميركي .

لكن هذا العالم الكبير ، بالنسبة لكثير من الاسرائيليين ، هو قبل كل شيء الرجل الذي زاد عشرة اضعاف من فعالية مصالح استخبارات جيشهم . فعندما التحق بـ (الآمان) في ١٩٥٤ كانت طرق العمل ما تزال جد متخلفة وكان الخطر يتحدد من جانب مصر اذ ان الرئيس ناصر يحاول ان يقيم جيشا عصريا . فأراد نييمان ، رجل العلم ، ان يحدث ثورة في المكتب الثاني الذي يخص بابا (١) . فقامت بلبلة عامة في

---

(١) يريد المكتب الثاني القديم الذي يرجع الى عهد الجيل السابق.

المصلحة عندما أكد ضرورة تجهيز وزارة الدفاع بعدادات الكترونية. قيل لهذا الهاوي الكبير «لكوميكس» (الذي ربما يملك واحدة من اجمل المجموعات في العالم) : «انت مجنون . انت تقرأ كثيرا من الأشرطة المصورة للاختراعات الوهمية . ادواتك لن تجدينا فتيلا ضد العرب» . أعار المراقب المالي اذنا مهتمة الى خطاباته ووجد ان تلك الآلات المصنوعة في الولايات المتحدة باهظة الثمن جدا. وحسم دايان المسألة : «هل انت واثق ان آلاتك مفيدة . اذن ليكن كما اردت . انا ذاهب لأطلبها من بن غوريون ..! جهل الجنرال الاعور مطبق فيما يتعلق بمادة الكهرباء الا ان لديه حاسة الشم .

برهنت عدادات (الآمان) الالكترونية الشهيرة والتي كانت الاولى التي جلبت الى اسرائيل ، على ان لها اهمية اساسية غداة معركة ١٩٥٦ . «لتتمثل» المعلومات التي ادلى بها آلاف الأسرى المصريين(١): تلك المعلومات اصبحت مبوبة ، جاهزة في كل لحظة ، وسيكبر حجمها وشأنها مع الزمن وستسهل الى اقصى حد الاستعداد لمعركة ١٩٦٧ . وغداة الهزيمة المصرية الجديدة ستتلقى العدادات حصة معلومات جديدة ، غزيرة بشكل خاص.

في ١٩٥٦ انهى نيمن «شباكه» بمساعدة شبان طلاب ، مختصين بالعلوم السبرينه ، دعووا على جناح السرعة من الولايات المتحدة وخاصة من جامعة هارفرد. فقد فتح مصنعا الكترونيا لرصد حركة كل ضابط مصري، منذ تخرجه من الكلية العسكرية ويستكمل ذلك بالتتابع ليعرف كل شيء عن ترقياته وتخصصاته ، وتبدل اوضاعه العائلية ، وهذه المعلومات غالبا ما تنشرها صحف القاهرة او الاسكندرية . ان جميع التفاصيل عملية صالحة ويمكن ان يكشف في احد الايام عن فائدتها .

---

(١) ثمة تركيز واضح في موقف المؤلف ضد مصر والعراق وسوريا والبلاد العربية التقدمية ، ويبدو أن اكبر قصد لديه هو النيل من مصر باعتبارها الاكبر والأقوى .

وقد زاد اسرى ١٩٥٦ بشكل ملموس اهمية «رأس المال» الاسرائيلي من المعلومات • فالضباط وضباط الصف المصريون الأسرى ليسوا جبناء ولا خونة • وفي غالبيتهم العظمى لم يدلوا بأدنى معلومات على المستوى العسكري •

ولكن كيف يحذر المرء محدثا كريما يبادله الحديث أمام فنجان قهوة ويلقي عليه اسئلة ظاهرها معز : «بالمناسبة ما هي ماركة سيارتك ؟ كيف حدث ان زميلك فلان يملك سيارة افخم ؟ كم تحتاج من الوقت للذهاب من منزلك الى قاعدتك ؟ » والأسير يثرثر ، عامة، مغتبط بذلك الفاصل الذي يكسر رتابة حياته • والعدادات، لا تشبع ، تهضم تلك المعلومات • وبمجرد كمشة اصبع على زر ، سيعرف الاخصائي فيما بعد ان الرجل الذي يهمه هو رخو او على العكس صلب ، حذر او متهور ، جندي شريف او فاسد • وسيكون في صبيحة ٥ حزيران ١٩٦٧ لدى جميع قواد الوحدات الاسرائيليين «الصورة البسيكلوجية» لخصومهم المباشرين ويمكنهم غالبا ان يستبقوا بعض ردود فعلهم • وكذلك ثبتت على عدادات وزارة الدفاع جميع مخططات المعركة الخاطفة لسنة ١٩٦٧ والتي تطلبت حسابات معقدة اكثر فاكثر بسبب التركيبات المتضخمة بلا انقطاع لمسائل من النوع اللغوي •

كان العمل غزيرا الى حد فاض عن طاقة عدادات البنتاغون الاسرائيلي• ليس ثمة حرج في ذلك•• فالاسرائيليون يستخدمون عدادات البحرية الوطنية الفرنسية في طولون ، بالاتفاق التام مع وزير الدفاع حينذاك السيد بيير ميسمر ، عوضا عن الاتفاق المباشر مع الايليزه قصر رئاسة الجمهورية • فما زالت قائمة في ذلك العهد عدة اشكال من التواطؤ بين باريس وبين تل ابيب ، وقليل هم القادة العرب الذين عرفوا ان قسما كبيرا من خطة معركة الجيش الاسرائيلي قد حققت في

فرنسا عشية حرب الايام الستة .

غداة حرب الايام الستة استعمل الاسرائيليون الاساليب نفسها تماما التي سبق لهم استعمالها في عام١٩٥٦ دون ان يعطوا أسراهم، وكثير منهم كان قد وقع في الأسر قبل عشرة اعوام ، الانطباع في اية لحظة بانهم وقعوا في الفخ نفسه ، فان جميع الضباط الكبار دعوا لزيارة المدن الرئيسية في اسرائيل ، تركوا معتقلهم في عتليت قرب حيفا جماعات مؤلفة من اثنين الى ثلاثة افراد . تحت رقابة «مرافق» يأخذهم للعشاء في مطاعم جيدة او عند «مضيفين» اسرائيليين . لتناول وجبة طعام عائلية . ويجري تبادل الصور ، والمناقشات السياسيةالرحبة جدا حول مسائل الشرق الاوسط . وتهامس النجوى . ولم يغب اي شيء من كل هذا عن سمع رجال (الآمان) وبصرهم . بهذه الطريقة شرع الاسرائيليون يهيئون لحرب اسرائيل المقبلة (١) .

لم يدخل يوفال نيمان العداد الالكتروني فقط الى وزارةالدفاع ، بل كان المبتكر لتقليد بديء يتمثل في استخدام آلات علمية صغيرة برهنت على قدرتها في ان تكون مصدرا ثرا للمعلومات . فقد اتخذت دوريات تدريب الى سيناء عادة تعليق مسجلات صغيرة على الخطوط الهاتفية للعدو ثم تجمع الأشرطة بعد التسجيل ، على فترات منتظمة . وكذلك اخترع بنيماه جهازا لاقطا بالغ الحساسية يستطيع من مسافة مئات الامتار التقاط احاديث تجري داخل المعسكرات .

واهتم ايضا باستخدام اجهزة التصوير التي تحملها طيارات الاستطلاع ، كما استخدم جميع الاجهزة الالكترونية المعاكسة للقياس

(١) يلاحظ القارىء معنا ان المؤلف يحاول تضخيم قضية الأسرى العرب لأسباب معروفة لعل في طليعتها محاولة الاسرائيليين إظهار انفسهم بمستوى أكثر ذكاء وإظهار العنصر العربي أكثر تخلفاً .

التي تسمح «بتعمية» رادارات العدو • وبفضل استعمال تلك الاساليب استطاع الطيران الاسرائيلي ان يخوض هجومه المفاجــىء صبيحــة ٥ حزيران ١٩٦٧ •

يوفال نيمن ، مسافر كبير ، له اتصالات دائما مع كثير من الجامعات الانكلو ساكسونية والفرنسية • وله اضطلاع دائم على آخر المبتكرات العلمية ، القابلة للاستعمال من قبل الآمان •

لقد عاد الآن الى شغفه الحقيقي وهو البحث العلمي• وهو ما زال حاله كما كانت عليه دائما ، قصير البصر وكتوم، يحادث يوميا اسرته التي تقطن في تل ابيب • هذا الكولونيل الاحتياطي لم يتقاعد بعده ما يزال يحدث غالبا ان يوجه اليه النداء ليطلب اليه تقديم نصيحة‌ما ، او اختراع «لعبة» جديدة • فعلاقته حسنة جدا مع الجنرال أهارون ياريف ، الذي يرأس الآمان منذ ١٩٦٤ •

الجنرال أهارون ياريف رجل قصير بذراعين قصيرتين جدا • بـدأ المشيب يخط شعره الكثيف • اثناء حرب الايام الستة كان يبلغ السادسة والاربعين من عمره وكان اكبر الجنرالات الاسرائيليين سنا • ولـولا حيوية نظرته الرمادية الخضراء الخارقة لكانت هيأته مبتذلة • تنبعث من شخصه فتنة شبه مغناطيسية • في وسع ياريف ان يأخذ بأنفاس عدة مئات من الصحفيين الدوليين طوال ساعتين دون ان «يلقي» اليهم بأي نبأ ، وفي ذلك حقا تجلية خارقة • انه يتكلم باحكام الانكليزية والفرنسية والعربية والروسية والليتوانية والالمانية • ويدفع العبث به الى حد انه يتظاهـر بالتفتيش عن كلماته في كل واحدة من هذه اللغات كي يعطي في كل مرة على التعبير الأوحد •

صنع أهارون ياريف من (الآمان) أهـم مصالـح الاستخبارات الاسرائيلية ، ولن يكون مدهشا اذا ما اصبح هو الميمونة الآتي بعـد رحيل «زفيكا» زامير • وهكذا ستجتاز الآمان مرحلة جديدة تتنـاول باصلاحات في بنيتها ، تضع حدا للأولية القديمة للموساد•

ان قصة ياريف لقصة كلاسيكية في اسرائيل ، مبلبلة ككثير غيرها، هي ايضا تضرب على الاعصاب لشدة ما هي قدوة • فان رواية حياتـه تعطي فكرة واضحة عن مفهومه للعالم • ولد أهارون رابينوفيتش فـي

ليتوانيا في ١٩٢١ و«صعد» الىفلسطين مع اسرته في ١٩٣٥ • ودرس في المدرسة الزراعية في برديس هاناء قرب هاديرا التي تعتز باجمل اشجار الكستناء في اسرائيل • يقيم في مستوطنة (جيفه) • في ١٩٤١ تطوع في الجيش الانكليزي واشترك في الحملة على افريقيا الشمالية • ونقل بناء على طلبه الى الكتيبة اليهوديةالمتطوعة في اوروبا ، انهى الحرب برتبة كابتن ، لم يكن الانكليز لا ريب ليمنحوه تلك الرتبة لو انهم عرفوا ان ذلك الضابط الشاب كان على اتصال بيهودا عزري وانه كان واحدا من افضل مموني السلاح «المسترد» (١) ، فضلا عن دوره في منظمة الهجرة غير الشرعية •

عمل مساعدا لقائد كتيبة (اليكسندروني) في اوائل حرب «الاستقلال» قبل ان يوضع على رأس سرية في فرقة (كرميلي) • في ١٩٥٠ ارسل الى الكلية العسكرية في باريس • عندما اصبح كولونيلا في التاسعة والعشرين ، وكان يبدو اصغر من سنه بكثير ، استدعاه الجنرال الذي يدير تلك المؤسسة المحترمة وقال له : « يا رفيقي العزيز ، انا اعرف ان جنرالاتنا في الثورة كانوا في سنك ، لكن الزمن قد تغير ، ان هيئتك الفتية لا تلائم اشارة رتبتك • وذلكقد يثير بعض الملابسات بين اساتذتك ورفاقك في التدرج • هل تفهمني ؟ » وفهم الكولونيل ياريف تمام الفهم قصد الجنرال وتابع دروسه باشارة رتبة كوماندان •

عند عودته الى اسرائيل بقي خمس سنوات مديرا لكلية الاركان العامة للجيش الاسرائيلي قبل ان يعين في ١٩٥٧ ملحقا عسكريا في واشنطن ومعتمدا في (اوتاوا) بالاضافة الى ذلك • لقد بنى صداقات عديدة فيالولايات المتحدة الا انه حصل على فوائد عسكرية ضئيلة في

---

(١) يعتبر الصهاينة ان سرقتهم لأسلحة الجيش الانكليزي وسواه من الجيوش انما هو استرداد لحق لهم !

اقامته في اميركا • انه يقول : «الجيش الاميركي شديد الاختلاف عن جيشنا ، انه غني جداء ان من المستحيل علينا ان نطبق اساليبه عمليا • اننا نستطيع ان نتعلم من الفرنسيين اكثر بكثير ، الذين هم مثلنا من ذوي الامكانيات المحدودة» • وفي الواقع كان عدد الضباط الاسرائيليين الذين ذهبوا الى الولايات المتحدة للتخصص ضئيل جدا حتى عام ١٩٦٩ • كان يجب انتظار الحصول على السكايهوك والفانتوم نتيجة الحظر الفرنسي كي يرتسم اتجاه جديد •

وفي ١٩٦٠ سمي قائد مشاة ، ثم معاونرئيس (الآمان) قبل ان يستلم رئاستها في ١٩٦٣ • اعجوبة هي ذاكرة هذا الرجل القصير الذي يترك مبكرا جدا في كل صباح فيلاه في (تسهالا) ويقود سيارته الفخمة ذات اللون الخاكي المزودة بعدة صدار (مرسل–لاقط ، هاتفين بالراديو)، ومحفظته السوداء الكبيرة منفوخة ، لكنها لا تضم غير سندويشين اعدتهما امرأته • طاولة عمله هي دائما نظيفة ، ومن النادر ان يشاهد يراجع اضبارة ما • هذا الرجل بالرغم من مزاياه كأخصائي في الاستعلامات وبالرغم من نجاحه الباهر في منصبه استدعي مع ذلك مرة بعد مرة الى استلام قيادة وحدة عمليات ، اي خارج الاستخبارات •

اهارون ياريف الذي يطلق اصدقاؤه عليه اسم (ارال) ويلقبه مساعدوه بـ (حبوب) الكلمة العربية ليس هو «ضابط على شاكلة قائد روماني قديم» • فلقد ارتد عن سلك الدبلوماسية ، اذ كان ما بين الحرب العالمية الثانية وبين حرب الاستقلال ، قد نجح بتفوق في المسابقة الاولى لاختيار الدبلوماسيين التي اقامتها وزارة الخارجية (٢٠ وظيفة مقابل ٥٠٠ مرشح) • ولقد شهد زملاؤه القدامى ، وكثير منهم هم سفراء حاليا، انه كان المعهم • ومع ذلك فانه ترك الدبلوماسية ولم يتخلى منذ ذلك الوقت عن البزة العسكرية • فماذا ينشد ياريف في سعيه المتواصل ،

انه يروي دوافعه هو نفسه : عندما كنت صغيرا في ليتوانيا جاء الـى المدرسة في يوم ما ضابط يثير الحمية الوطنية امام التلاميذ وقـال لهم . « جنسان فقط تنقصهما الشجاعة ولا يستطيعان خدمة وطن : اليهـود والبوهيون ويضيف هارون ياريف : لقد ولد مصيري في ذلك اليـوم وهو ان اخدم في جيش يهودي • » يروي احد رفاق صف ياريف فـي مدرسة تل ابيب قائلا : كان «ارال» صبيا صغيرا ضعيفا وعندما جاء الى فلسطين كان خجولا جدا وكنا جميعا نسخر مـن وشاحه الفظيع وطـول سرواله المفرط •ولكن ذلك لم يدم طويلا فلم يعرف احد منا كيف نجح في ان يفرض نفسه ، وبسرعة كبيرة اصبح رئيس لجنة مجلس التلاميذ•

كان يملك حسا مدهشا للزعامة ويتفهم بشكل غريب قضايا كل فرد منا ، حتى الاساتذة • ويعرف « معالجة » كل احد • كان حسه للنظام مدهشا وخزاناته مرتبة ترتيبا لا مأخذ عليه • كان مثالـه يسري علينـا جميعا • حتى نجح في جمع اولاد الحي ليدفع بهم الى المدرسة عـدواء كان يقول ان العدو تمرين رياضي نحتاج اليه في المستقبل ، ولم يكـن مخطئا في ذلك • كان ايضا رئيس فرقتنا لكرة القدم •

كان ياريف كذلك رئيسا لفرقة كلية الاركان العامة • وهو يأسف لعدم تمكنه حاليا من ممارسة رياضته المفضلة بسبب وقته المثقل جدا • انه يمارس مع ذلك الرياضة البدنية كـل صباح • ومنـذ ان ترأس (الآمان) عاف عمليا كل حياة اجتماعية ، ولم يتبق لديه وقت حتى لرؤية اصدقائه • يحدث له غالبا ان ينام في مكتبه في وزارة الدفاع • الكائن في الطابق الرابع مباشرة فوق مكتب رامتكال (رئيس الاركان العامة)• ان يتجه في الهيليكوبتر فورا الى المكان المقصود كل مرة يستطيع فيها استجواب أسير ، واتخاذ قرار آني • انه يؤمن من كـل اعماقه بضرورة الاستخبارات حتى على مستوى اصغر الاحداث وذلك لسبب بسيط جدا:

انه قاد الكتيبة التي تعتبر اكثر كتائب الجيش الاسرائيلي سوء حظ والتي نزلت بها خسارات فادحة امام جنين انه هو نفسه الذي نعى الى الآباء مقتل اولادهم ، وبقي ذلك في ذاكرته كذكريات الم يقول : « ان ذلك ما كان ليحدث لو كانت لدينا معلومات اوفر عن الخصم » .

رفع ياريف الاستعلامات في الجيش الاسرائيلي الى مستوى عقيدة حقيقية . واثناء المعركة يجري سيل لا ينقطع من المعلومات بين وحدات الخطوط الاولى وبين الآمان : الصور الفوتوغرافية الجوية ، والخرائط الجغرافية والجيولوجية ، وفحوى الاذاعات والصور البسيكولوجية لقادة وحدات العدو توزع على مستويات منخفضة جدا حتى على ضباط صف غالبا .

كل هذا ، كما يقول ياريف ، هو في آخر المطاف عمل رتيب مطرد يتطلب بشكل اساسي التنظيم والكثير من التنظيم ومن المنهجية. لسبب بسيط جدا : ليس لنا الحق في ان نخطىء . فما يمكن ان يكون خطيئة في بلد اخر يكون في بلدنا جريمة . ليس عندنا اسرار كما يظنون غالبا بسذاجة في الخارج . اساليبنا هي في نهاية الامر مستقيمة جدا ، مشابهة لجميع المصالح المتخصصة في العالم اجمع . «حيلتنا» الوحيدة هي التالية : استخباراتنا تجمع معلومات اكثر من الاخرين ، وجنودنا ، جميع جنودنا يعتقدون بذلك .

ان الجنرال ياريف هو كالميمونة شخصية « تنشق الارض » تحت قدميه . بل على العكس تماما . انه شخصية عامة يعقد مؤتمرات صحفية ويدلي خلالها غالبا « بتصريحات » قاعدتها العامة الا يذكر قائلها . تسع مرات على عشرة ، فان « الضابط الكبير » الذي يعلق على غارة « قصاص » او عملية عسكرية هو ببساطة « أرال » دون ان يكن تقديرا خاصا لعالم الصحافة الصغير فانه قارىء صحف كبير ويستقبل بسهولة

الصحفيين في مكتبه • يقول : « انهم ليسوا رصينين جدا دائما ، لكنهم يعرفون اشياء كثيرة غالبا •• »

ان « رؤوس » الآمان كانوا جميعهم رجالا اذكياء جدا ومنهم من كان له مستقبل جامعي باهر • وتلك كانت حال بعضهم بالفعل (امثال بنيمان وماركابي ••) لذلك يصعب القول ان تعبئة انتاجهم قد تعدلت بعد استلام ياريف • لكن هذا لا ينفي ان بعضا من معاونيه هم اشخاص ذوو صفات مرموقة • وتلك حال (شولو غازيت) الذي هو حاليا جنرال ومسؤول عن الاراضي المحتلة وتحت امرة موشيه دايان المباشرة • قبل حرب الايام الستة كان كولونيلا واقرب مساعدي « آرال » • خلفه في المنصب الكولونيل » اريه شاليف : «يككه» (يهودي من اصل الماني) بارد جدا ، مزاجه مأتمي • وهو المكلف باعداد عمليات المغاوير داخل اراضي العدو •شاليف خريج الكلية الحربية في باريس(كفازيت) كان رئيس مصلحة صحافة الجيش أثناء حرب الايام الستة ، وبالتالي منذ ذلك العهد اصبح واحدا من اقرب مساعدي الجنرال ياريف •

كان يشغل منصبا خطيرا الى اقصى حد حين تتصور ، أثناء الحرب الخاطفة الاسرائيلية ، ان الادلاء بخبر صحيح ، لكن قبل اوانه ، قد يفضي الى كارثة على المستوى الدولي • كان يجب « اللف والدوران » بأي ثمن ، فمنذ اللحظة التي اتخذ فيها قرار قاطع ، في شن هجوم «وقائي» اقتضى الامر كتمان الاستعدادات الاخيرة • وكان من الضروري • بحزم اخفاء حقيقة الانتصارات الاولى • ويتطلب ذلك بسيكولوجية وحنكة لا حد لهما ، بينما عدة مئات من الصحفيين العالميين يكدفون كالخيل في مراكز الصحافة في تل ابيب • وقد كان (أريه شاليف) هو صاحب فكرة

ان يطلب الى موشيه دايان عقد مؤتمره الصحفي الشهير يوم السبت في ٣ حزيران ، قبل ثمانية واربعين ساعة من شن هجوم سبق ان اعد في اصغر جزئياته : لقد فات الاوان كي ترد اسرائيل ضربة على ضربة حصار ايلات ، والوقت مبكر للحكم على نتائج العمل الدبلوماسي القائم •

اني انضممت الى الحكومة في وقت يجب الانتظار فيه •• اني اقر سياسة الحكومة •• اننا نجهد كي ننال دعما دوليا من اجل حرية المرور في مضيق تيران •• حصلت الحكومة على بعض وعود ايجابية ، والا ما كانت الاراضي بالانتظار • »

لا يمكن الكلام عن آمان دون محاولة الاحاطة بمعنى السر في اسرائيل • فانها تبلغ مستويات لا يمكن تصورها بل تفضي الى ان تصير حزبا من المرض الوطني ، تثير احيانا سخط الاجانب • فمثلا ان الاوتوستوب (١) في هذا البلد هو وسيلة نقل رسمية • اذ ان ثمة مواقف مخصصة على جانبي جميع الطرق لطالبي السفر المجاني ، الذين هم من العسكريين غالبا لكن حتى في زمن السلم ان لمن الافضل ان يتقدم المريد بعروض فاجرة الى جندي شاب او فتاة مجندة من سؤاله عن المكان الذي يقصده او عن الوحدة الملحق بها • في جميع المعسكرات اعلانان مثبتان في كل غرفة احدهما يمثل لسانا تشله عقدة والاخر يصور يدا معقربة تتلقف «ملكة» على رقعة شطرنج• ان نظام التجنيد العام الذي اتبع في عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٧ يبقى حتى اليوم غير معروف تمام المعرفة •

---

(١) الأتو ستوب : ايقاف السيارات على الطرقات وركوبها مجانا .

ان اسطورة (شين بيت) في الخارج هي غالبا اضخم من اسطورة (الموساد) او (الآمان) . وهذا التعبير نفسه ، رغم انه كثير الاستعمال في اسرائيل ولكنه ليس دقيقا، الدقة كلها . ويثير ابتسام المطلعين. انه من الاصح الكلام عن «شباخ» وهي ادغام كلمات عبرية ثلاث : شيروت ، بناشون ، كلاي (مصلحة الامن العام) . «شين بيت» هي ادغام لكلمتي شيرون بيناشون . هذه المؤسسة هي اجمالا المعادل الاسرائيلي للـF B.A. الاميركية اوT.S.P الفرنسية . لماذا ذلك الضرب من الهالة حول الشاباخ، شين بيت ؟ ذلك ببساطة لانها لا تتميز عن مجموع المصالح الاسرائيلية المسماة خاصة فهي ليست فرعا من اصل . ولكنها ذات مهمة محددة جدا وخطيرة .

تلك المهمة خطيرة جدا بسبب مسائل الامن الداخلي وملاحقة الجاسوسية تلك التي تؤلف مشكلات حادة في هذا البلد الذي يعيش وسط عالم معاد . ولم يعرف بعد سنة سلام حقيقي واحدة . كان من الصعوبة بمكان « غربلة » دخول اكثر من مليون ونصف شخص منذ انشاء الدولة، امكانية استخدام عملاء اعداء بسهولة . وكذلك فان وجود ٣٠٠ الف عربي « اسرائيلي » يتكلمون العبرية والذين لم يجر تمثلهم الا بدرجات متفاوتة ، هم اشبه بحصان طروادة . ومنذ نهاية حرب الايام الستة اصبحت مراقبة مليون عربي في غزة وفي ضفة الاردن الغربية امرا غاية

في الصعوبة بسبب سياسة « الباب المفتوح » المفروضة من قبل الجنرال دايان . والجدير بالذكر ، وتلك « ميزة اسرائيل ، ان هذا البلد لم يعرف مطلقا عمليات تطهير او جو «مطاردة السحرة» ، صحيح ان العرب الاسرائيليين ليسوا مواطنين كاملي الحقوق كليا لكن نظام الاحكام العسكرية « التي يخضع لها العرب » المفروضة على التنقل كانت قد رفعت قبل حرب الايام الستة ببضعة اشهر ولم يجر تطبيقها منذ ذلك الحين .

يقوم مركز الشباخ في بناية كبيرة عصرية وسط تل ابيب . ولو عرف الصحفيون الاجانب مكانه لاستقربوه كثيراء يشغل الطابقين الاولين من البناية منظمة يهودية خيرية ، والطوابق الباقية تحتلها « المصالح المركزية» «جو تقليدي للدوائر الاسرائيلية الادارية : تراخ ظاهري ، ومقصف يقدم كميات هائلة من شاي مع الليمون والقهوة . الاخبارات والعدادات في الطابق السفلي .

الادارات الاربعة للشباخ هي :

ـ مصلحة مكافحة الجاسوسية العربية .

ـ مصلحة مكافحة جاسوسية البلدان الاوروبية الشرقية .

ـ مصلحة العرب الاسرائيلين .

ـ المصلحة المكلفة بالكفاح ضد «الارهابيين»* والتي تعمل بتعاون شديد مع الجيش في الاراضي المحتلة ومع الشرطة الجنائية في اسرائيل.

المخابرات العربية في مجموعها لم تمثل قط خطرا حقيقيا على اسرائيل . فانها دائما قد كرست اساس نشاطها في مراقبة بعضها بعضا، وفي احباط محاولات انقلابات ، عندما لا تكون هي الدافعة عليها .

كانت اكثر المخابرات العربية تحركا وبصورة خاصة عشية حرب الايام الستة هي مخابرات الجيش السوري التي كانت انذاك تعمل على ارشاد بعض الفدائيين الى اهدافهم وكان تحركها يقتصر اساسا على جميع

(*) يستعمل المؤلف نفس التعبير الذي تستعمله السلطات الصهيونية فيسمي الفدائيين ارهابيين.

المعلومات ، بالاستناد الى خدمات العرب الاسرائيليين الذين يجتازون، لسبب او لاخر ، حدودا غير منيعة للالتجاء الى سورية او الاردن او لبنان ، وهم اشخاص مساكين اقترف بعضهم جنحة او جرما ، او فتيان تخاصموا مع ذويهم ، او عمال عاطلون ينالون حين وصولهم نصيبا كبيرا من الضرب والتعذيب لاثبات هويتهم الحقيقية والاقتناع ببراءتهم وهم في كل الاحوال عاجزون عن تقديم معلومات مفيدة عن القوة العسكرية بل حتى الاقتصادية لدولة اسرائيل ، ومما يذكر في مجال التخريب ان المخابرات السورية قدمت بشكل دائم تقريبا ضربا من الهواية العجيبة عندما حاولت تحقيق اعمال « في العمق » مختلفة عن مناوشات الحدود التي يقوم بها رجال فتح ، عميل سوري كان عليه ان ينجز اغتيالات في بعض المدن الكبرى ونجح في اجتياز الحدود معمتفجرات، ألقي القبض عليه بغباوة لأن على جوازه كتب : «ولد في سالونيكا .. تركيا » ، والمساكين من العرب الاسرائيلين الذين يعاد ارسالهم الى اسرائيل من قبل مستخدميهم الجدد بعد « التخريج » لم يكونوا البتة خطرين ، انهم غالبا قدموا انفسهم بانفسهم الى الشرطة عند عودتهم ، ليرووا حكايتهم واخرون غيرهم وشى عنهم مواطنوهم ، لقد اصيب هؤلاء بسوء مصير غداة الحرب، وقع الجنود الاسرائيليون على القائمة الكاملة باسماء العرب الاسرائيليين المتعاونين مع دمشق ، التعساء لم يسعفهم الحظ وكذلك لم يسعف الحظ اكثر الذين يشتغلون للاردنيين، الذين ايضا تركوا قسما كبيرا من اضباراتهم الى المنتصرين في الضفة الغربية للاردن ،

---

(١) ارجو ان يدرك القارىء معنا التناقض الواضح الذي وقع فيه المؤلف حيث أوضح قوة المخابرات السورية وتمكنها من الدخول إلى قلب اسرائيل، والى محاولته النيل منها في نفس اللحظة. وكذلك شهادته لصالح المخابرات المصرية ، ومحاولته التقليل من اهميتها في نفس الوقت الذي يقدم صورة مشرقة عن المخابرات الاسرائيلية ،

ان اكثر المخابرات العربية خطرا على اسرائيل هي بالطبع المخابرات المصرية فانها صاحبة سلطة ونفوذ وفعالية داخل العالم العربي حيث اوحت بالعديد من الانقلابات ، وصفت العديد من المضايقين وتوفقت في بعض الاعمال اللامعة • اقدامها راسية ثابتة في اوروبا حيث توصلت الى ابطال المعارضة للناصرية ، دون التراجع امام اختيار الوسائل • ومع ذلك يجب الاقرار انها كانت عاجزة عن حل المسائل الخاصة التي طرحتها اسرائيل عليها •

حوالي ١٩٥٠ ، سعى المستشارون العسكريون الالمان في مصر (نازيون قدامى جميعهم تقريبا) مسك زمام الامور بأيديهم «في مجال الاستخبارات» واقناع حماتهم بضرورة «تنظيم المهنة» • انتابهم بعض الصراع لمشاهدتهم المصريين يقنعون بمطالعة بعض المنشورات الاجنبية المختصة ، ان لم يكن مطالعة الجرائد اليومية الكبرى • وبعد انقلاب ١٩٥٢ لم يلاقوا اية صعوبة في اقناع الكولونيل ناصر بضرورة بذل جهد جاد • لكن ذلك دون ان يفضي الى نتيجة ذات قيمة ••

العمل الاكثر نجاحا على ما يظهر شرع به في ١٩٥٧ • مصور ارمني، كوبول ياكوفيان الذي يشتغل للمخابرات المصرية والذي تلقى تدريبا طويلا: امضى ما يقرب العام في مركز تعليم المخابرات المصرية ليتابع تدريبا متينا لعميل سري • ثم ظهر في المستشفى البلدي في القاهرة وتلقى التعليم اليهودي من قبل رجل نازي قديم مختص بالقضايا اليهودية • راح يتردد على البيعة اليهودية في القاهرة القديمة ليألف الجو الذي تعيش فيه جالية اسرائيلية • وحضر دروسا في العلوم الدينية •

في صيف ١٩٥٩ وصل الى البرازيل حاملا جواز الفارين من بلادهم مدعيا انه يهودي مصري فارا من اضطهاد النظام الناصري • امضى اكثر من عام في ريو ، مشتغلا كمصور متجول وخالط الاوساط «الصهيونية»

مظاهرا بالاقتناع تدريجيا بفكرة «الصعود» الى ارض الميعاد • في ١٩٦٠ تقدم الى مكتب الوكالة اليهودية في العاصمة البرازيلية تحت اسم أسحق بن سالومون كوشوك • ووصل في كانون الاول للسنة نفسها الى حيفا على ظهر باخرة س/س بوتال ، برفقة عدة مئات من المهاجرين• اقترح عليه الزوجان الشابان أرغمان ، اللذان عرفهما في ريو ، ان يحاول الاستقرار • يستقر في مستوطنتهما (برور حاييم) • فوافق وامضى عندهما بضعة ايام وشرع في تعلم العبرية في مستوطنة (نجبا) • بعد ستة اشهر دراسة ، استقر «جاكي» ، الاسم الذي يناديه به جميع اصدقائه ، في مرفأ اشكلون حيث سكن بيتا صغيرا منعزلا • ادى خدمة عسكرية في المدرعات • ثم فر من تل ابيب حيث عاد الى حرفته كمصور متجول • اوقف في كانون الاول ١٩٦٣ •

وضعت علامة على ياكوفيان في الواقع حتى قبل ان ينزل في اسرائيل، وتعقبه عملاء الشاباخ خطوة خطوة • كانت له اضبارة قبل تركه القاهرة، وعندما قدم الى ريو بدأت مراقبته • ومنذ استقراره في اسرائيل بدأت عملية تسميمه (١) بانتظام وجمع المعلومات التي ارسلها هي مزيج دقيق من صحيح وكذب • صحيحة هدفه اشاعة الفرح بالنصر بالنسبة له ولمستخدميه والكاذب من هذه المعلومات هدفه التضليل : ان ما حققه رجال الشاباخ في ذلك يعتبر ضربة المعلم التي تحلم بتحقيق مثلها جميع مصالح مطاردة الجاسوسية (٢) •

ومن الجائز التساؤل في تلك الشروط : لماذا وضع حد «لمناورة» ياكوفيان بما ان المصريين لم يشكوا بشيء • الشرح بسيط رغم انه يمكن

(١) يقصد بتعبير تسميمه : اعطاؤه معلومات مغلوطة .
(٢) عبارة دعاوية تحاول التضخيم من ذكاء الصهاينة ، في حين ان اسلوب تضليل الجواسيس معروف لدى أبسط مصالح الاستخبارات .

ان يبدو غريبا • التقى «جاكي» في مستوطنة (نجيا) بميرا ، فتاة في الثامنة عشرة من عمرها وتوطدت العلاقة بينهما وعذبت حتى اصبح امر زواجهما محتوما في اواخر ١٩٦٢ • فساد اضطراب كبير فيقيادة الشباخ: هل يتركون ، وهم الواقفون على الحقيقة ، جاسوسا مصريا يتزوج من فتاة اسرائيلية (نقية) ؟ ورفعت القضية الى (ايسير هاريل) الذي حسم المسألة بعد فترة تردد : يجب تلافي تحطيم حياة ميرا • الميمونة هم احيانا رجال حالمون • حادث مرطب في الحرب الباردة (١) •

بعد فشل قضية ياكوفيان بدا المصريون انهم تخلوا عن هدف غرز العملاء في اسرائيل : ولكن من الصعب التأكيد بيقين انهم عدلوا ، وان «بطلا» قدم من القاهرة ليس هو «متكيس» في تل ابيب منذ عدة سنوات • لنلاحظ فقط ان معلومات «المخابرات» عن عدوها كانت رديئة عشية حرب الايام الستة وان رئيسها العقيد (صلاح نصر) ، الذي ظل فترة طويلة الشخصية الخامسة في السلطة ، قدم الى المحكمة العليا غداة الانكسار، انه لم يكن على الارجح يستطيع ان يفتخر بأي عمل استعراضي شهير (في مجال التجسس على اسرائيل) •

حاول المصريون استعمال وسائل اخرى ومنها خاصة استخدام شبان اسرائيليين • فلقد تقدم ستة شبان الى بعض سفارات المتحدة في اوروبا «لبيعها» المعلومات • فبعض هؤلاء سذج لعبوا بالنار ، او ببساطة محتالون سعوا للفرار بعد ان قبضوا سلفة اولى • وأغلبهم انتهى نهاية سيئة وكان اشهرهم بلا جدال (مردخاي لوك) الذي ذاع صيته في حينه تحت اسم «رجل الصندوق» • ان الاسطورة الزائفة التي تريد ان تصور لوك بطلا ، وأن محاكمته في تل ابيب والحكم عليه بالسجن لمدة خمسة

---

(١) لم يشأ الكاتب ان يقول ان هذا الزواج ربما استطاع ان يؤثر على (فتاتهم النقية) ويجرها الى التجسس مع زوجها .

عشر عاما ليست سوى دخان للتعمية ، هي لغو فارغ • وكل ذلك خطأ فادح • فان (لوك) ما زال في عام ١٩٧٠ ينفذ الحكم في قسم الجرائم العامة في سجن (الرملة) الكبير ، ويشتغل في صنع حقائب من مادة البلاستيك • وهو النجم الاول في فرقة السجن المسرحية • فلقد وجد مردخاي لوك اخيرا الدور الذي يناسبه •• (وأما قصته فهي كما يلي) :

في ١٧ تشرين الثاني ١٩٦٤ ، كان يقف موظفان ايطاليان من شركة الطيران العربية المتحدة على مهبط فيوميسينو ، مطار روما الدولي ، ينتظران طائرة (كومت) لشركة الخطوط العربية المتحدة ، قادمة من فرانكفورت ، وعليها التوجه الى القاهرة ، توقف فني بسيط للتزود بالوقود • وكان على الايطاليين ان يحملا الى الطائرة خزانة ضخمة هي جزء من «الحقيبة الدبلوماسية» للسفارة • وكانت محملة على عربة • وعندما حطت الطائرةفي (فيوميسينو) بعد ساعتيتأخير واقترب الموظفان من الطرد ليحملانه الى داخل الطائرة سمعا اصوات طرقات صادرة عن داخل الخزانة • استنجدا بحارس شاب ، هو العريف (داتته نوسي) • ذهول: فنداءات استغاثة مرسلة بعدة لغات • حاول الرجال الثلاثة فتح الطرد العجيب عندما خف شخصان بدينان ، أسمران ، بشاربين ، كانا يرقبان المشهد وأبرزا جوازهما الدبلوماسي • برهنا على حرمة «الحقيبة» واكدا انها تحوي آلات موسيقية• واتهزا البلبلة العامة ونقلا الخزانة الى سيارة تابعة لسفارة الجمهورية العربية المتحدة ، ولاذا بالفرار • لكنهما لم يذهبا بعيدا • فقد أخطر العريف (نوسي) في الحال دائرة الأمن في المطار، ومباشرة قبل اوستي اوقفتسيارة الفاروميو السيارة الدبلوماسية• ورغم احتجاجات المصريين الغاضبة ، وكلاهما «سكرتير اول» في السفارة وهما السيدان (محمد عبد المنعم النخلاوي)و(سليم عثمان السعيد)، انتهت المغامرة في مخفر الشرطة المجاور • فتحت الخزانة : انها تحتوي على

رجل مربوط على كرسي بيانو ، جمدت رجلاه بواسطة مغلاق ، وأدخل رأسه في خوذة مثبتة في الحاجز الاعلى . هـذا الرجل هو مواطـن اسرائيلي في الواحدة والثلاثين مـن عمـره اسمه مردخاي لـوك . ينحدر مـن اصل مراكشي . ولقد «صعد» وهـو حديث السن جدا ، الى اسرائيل ، تزوج مبكرا وارتكب بعض الجنح ولاحقته الشرطة . هذا الشاب الاشقر ، ذو المظهر الباش ، متقلب المزاج ، عصفت بحياته الزوجية ازمات عديدة . والاشتراكية على الطريقة الاسرائيلية لا تلائمه البتة . وبأمل ان يبدأ حياة جديدة اجتاز الحدود الى غزة في ١٩٦١ وقدم نفسه الى السلطات المصرية. استامته المخابرات. لكن رفض فـي البدء التعاون معها وطلب حق اللجوء السياسي . استجواب ، ضرب متكرر ، معاملـة سيئة وحبس في السجن المركزي في الاسكندرية(١) . امضى عامين تحت شروط حاول معها مرتين الانتحار ، قافزا من الطابق الرابع ، ومقطعـا شرايينه . سيقول اثناء محاكمته : «كي اتخلص من ذلك الجحيم اعلنت اخيرا قبولي بالتعاون مع المصريين» . بعد بضعة ايام بدأ التمرين علـى مقربة من القاهرة . رفيقاه في التمرين ضابطان مصريان من مصلحـة استخبارات الجيش . وأحد اساتذة المدرسة هو السيـد سليم عثمان السعيد ، الذي سيصبح فيما بعد سكرتيرا اول في سفارة الجمهوريـة العربية المتحدة في روما .

في مطلع ١٩٦٤ وصل لوك الى اوروبا مصحوبا من قبل السيـد سليم عثمان السعيد . زار فرانكفورت ، ميونيخ وكولونيـا ، قبل ان يستقر في نابلي . اصبح دليلا ، وستكون مهمته الاتصال بالعديد من السواح الاسرائيليين الذين يقدمون الى تلك المدينة . ويسرون مغتبطين اذا كان دليلهم احد مواطنيهم . وكان عليه ان يسعى ليكتشف من بينهم

(١) من الواضح ان كل القصص التي يوردها المؤلف تنال سمعة السلطات العربية في حين ينزه السلطات الاسرائيلية عن كل ما يلحق بسمعتها اذى .

اشخاصا «مفيدين» اما في مناصبهم واما في استعدادهم المحتمل ليصبحوا متعاونين مع المخابرات المصرية • وخلال تسعة اشهر لم يصل لوك الى اية نتيجة ولم يحصل على معلومات او اتصالات • مستخدموه غاضبون جدا ، وقدروا انه يبعثر المدد (الهزيل جدا) الذي يتلقاه كل شهر (٨٠ دولار) • استدعي الى روما من قبل السيد السعيد الذي لاقاه في (فيا فينيو) ، في مقهى (باريس) • اصطحبه معلمه القديم في سيارته المرسيدس ذات النمرة الدبلوماسية الى بيت كائن فوق مكاتب سفارة الجمهورية العربية المتحدة بحجة عقد حوار هادىء بينهما • شاي ممزوج بالمخدر وحقن • واتخذ قرار باعادة هذا العميل الفاشل الى القاهرة ، وبما انه قد يظهر العناد وقع الخيار على الخزانة كوسيلة نقل • غير ان تأخر طائرة (الكوميت) سيتيح للوك ان يستيقظ في الوقت المناسب من نومه الاصطناعي ، وأن ينبه الناس اليه قبيل موته •

في مخابر الشرطة الايطالية اثبت الدكتور (سكيريه) ان الخزانة الشهيرة سبق لها ان استعملت ، مستندا الى التحليل الكيميائي لآثار رشح العرق على جلد الخوذة • (فلقد اختفى بتلك الطريقة لا شك ، من اوروبا ، عدد من الطلاب المناهضين للناصرية (١) • اما فيما يخص الشرطة الايطالية فانها ربطت في الحال علاقة بين تلك الخزانة وبين اختفاء من روما ١٩٦٢ للضابط زغلول عبد الرحمن ، وهو ملحق عسكري مصري سابق في سورية وكان قد التجأ الى ايطاليا بعد ان « اختار الحرية» ثم اختفى يوما دون ان يترك اثرا • انه على الارجح ارسل في «طرد مستعجل» •

وترك عبد المنعم النخلاوي وعثمان السعيد «الدبلوماسيان» روما بعد ان اعلنا انهما «شخصان غير مرغوب فيهما» • اما مرداخاي لوك فان

(١) هكذا يستخدم هذا الاستنتاج لبناء دعاية مناهضة للعرب ، ويتلقفها القارىء الغربي دون ان ينتبه الى زيفها .

القنصل العام لاسرائيل في روما وهو السيد (ازهاهاز شمعار) نجح في اقناعه بطلب العودة الى تل ابيب (١) • ان الذي برز للحظة كوجه بطل امام الرأي العام الدولي لم يجد التفهم ابدا امام قضاة بلاده : السجن مع الاشغال الشاقة خمسة عشر سنة لاجتياز غير مشروع للحدود وتعاون مع مصلحة استخبارات عدوة •

اما محاولات التسرب الى اسرائيل من جانب بلاد المعسكر الشيوعي، فقد كانت اكثر جدية • فالاسرائيليون المولودون في اوروبا الوسطى او في روسيا كثيرو العدد ، متنفذون ، ويشغلون حتى اليوم أغلب المناصب الرئيسية في اسرائيل • والسوفييتيون ليسوا هواة ، انهم يستطيعون تجنيد يهود اصليين قد يكون دافعهم المذهبي الشيوعي اقوى من عاطفتهم «الصهيونية» • وكان الهدف الخطير هو في العثور ، في مستويات مهمة، داخل الدولة على ممتهنين من طبقة جيدة ، مقيمين منذ زمن طويل في اسرائيل • وهم لهذه الصفة سيكونون خطيرين بشكل خاص •

تلك هي حال الاستاذ (سيتا) التشيكي الأصل ، الذي شغل منصبا رفيعا في كلية التقنية في حيفا، وعرف الكثير عن تطور الابحاث الاساسية والعسكرية في اسرائيل (٢) • هل تصرف بدافع ايديولوجيته ام من جراء الاكراه ؟ من المؤكد في كل حال ان قسما من عائلته بقيت في براغ وانه كان عرضة للتهديد بالتشهير •

---

(١) يظهر تحيز الكاتب هنا كذلك بصورة فاضحة ، فهو لم يقل لنا كيف نجح القنصل الاسرائيلي في (اقناع) ذلك الجاسوس في العودة الى تل ابيب، وكيف يمكن له ان (يختار) العودة الى التعذيب والاستجواب والسجن ، ان لم يكن قد أجبر على العودة بطريقة (صهيونية) جدا، حسب عقيدة الكاتب .

(٢) يلاحظ القارىء كيف قفز الكاتب عن ذكر تفاصيل المهمات التي قام بها هذا الجاسوس .

ابسط من تلك ، قضية (اسرائيل بيئير) ، وهو ضابط ومستشار لـ (دافيد بن غوريون) وصديقه الخاص ، والمحرر العسكري في الصحيفة اليومية الكبيرة (هعارتز) • ولد في ٩ تشرين الاول ١٩١٢ في فيينا • ودرس في كلية «ريـاليت» ثم في جامعة فيينا • وعمل محررا في جريدة نمساوية • وأصبح عضوا في الحزب الاشتراكي العمالي النمساوي في ١٩٣٤ • ثم التحق ضابطا في الفرقة الدولية اثناء حرب اسبانيا (فرقة تايلمان) • «صعد» الى فلسطين في ١٩٣٨ • وكانت خبرته العسكرية تمهد له ترقية سريعة في الهاغانا • ملامحه المنغولية بعض الشيء ، وشواربه السوداء الكثيفة ، تجعله بسرعة مشهورا بين صفوف نواة الجيش اليهودي • واثناء حرب «الاستقلال» شغل منصب مساعد رئيس مكتب العمليات ، وفي تلك الفترة ارتبط بصداقة مع بن غوريون• واصبح فيما بعد استاذ التاريخ العسكري في جامعة تل ابيب ، ثم رئيس قيمي المحفوظات في الجيش الاسرائيلي ، وبذلك اصبح له نوع من السلطة المعنوية بالنسبة الى رفاقه الشبان • سافر كثيرا : في ١٩٥٨ زار قواعد الحلف الاطلسي في فرنسا والمانيا الاتحادية • وفي ١٩٥٩ في مونيخ ـ غلدباخ ، يستضيفه شخصيا الجنرال غيلين ، « الجنرال الرمادي» ، رئيس مصلحة استخبارات (R E A) • انتهز فرصة تنقلاته ليعيد اتصالاته ببعض رفاقه القدامى في الفرقة الدولية • اوقف في ٢٨ آذار ١٩٦١ ، في منزله في تل ابيب من قبل رجال (الشاباخ) نتيجة تحقيق طويل • حكم بالحبس مع الاشغال الشاقة خمس عشرة سنة • مات في السجن بالسكتة القلبية •

كتب في زنزانته دفاعا نشر في ١٩٦٦ في منشورات (اميكام) تحت العنوان التالي : «امن اسرائيل ، بين الأمس ، واليوم ، وغدا» شرح فيه باعث تصرفه على ذلك النحو• فلقد اقتنع ان امن اسرائيل يفرض تعاونا

وثيقا مع المعسكر الاشتراكي • وأكد : «كي اقنع الاتحاد السوفياتي بان اسرائيل لا تسير وفق خطة امبريالية ، دفعت الى ان اقدم له معلومات سرية » •

اما رأي الشاباخ في أمره فمختلف : جند (اسرائيل بيئير) من قبل الروس في ١٩٣٨ خلال تطوعه في الفرقة الدولية ، وأمر بالاستقرار في فلسطين لهدف محدد ، ومنذ ذلك الحين وضعت عليه «اشارة» بسبب بعض التهور اثناء اتصالاته بأحد اعضاء السفارة السوفييتية في تل ابيب• وفي نفس اليوم الذي القي القبض عليه فيه التقى بذلك الرجل في مناسبتين : مرة في منزله ليعطيه اضبارة لنسخها واخرى في مقهى ليسترجع تلك الاضبارة •

وقامت ضجة كبيرة في البلد، وحقد بن غوريون على (ايسير هاريل) بسبب الدعاية التي احاطت بالقضية • لكن تلك القضية تبرز الخطر على اسرائيل الذي يمثله اقامة عملاء قدموا من الشرق ، ويصعب الى حد بعيد كشفهم • والملاحظ مع ذلك ان (اسرائيل بيئير) اكد حتى آخر ايامه انه مارس ضربا من المراقبة الذاتية على المعلومات التي كشفها لموسكو• هل كان صهيونيا «اشتراكيا» ام كان اشتراكيا «صهيونيا» ؟

على مستوى العمل المناهض «للارهاب» داخل البلاد تغيرت الحالة بشكل محسوس غداة حرب الايام الستة • فان العرب الاسرائيليين الذين يتكلمون اكثرهم العبرية ، ويعرفون البلد معرفة جيدة ولا يمكن تمييزهم عن سواهم نسبيا ، قد انقطعت الاسباب بينهم وبين العالم العربي منذ ١٩٤٨ • وبدوا ، بعد بضعة اعوام من التوتر ، انهم خضعوا لمصيرهم ، وكان النشاط الاكثر «تخريبا» هو النشاط الذي تقوم به منظمة (الارض) التي يقودها السيد صلاح برنسي • وكان قد فرضت الاقامة الجبرية عليه في قرية (طيبه) • ورغم ان (الارض) كانت تغذي بعض غليان في المجال

السياسي الا انها لم تشأ قط ان تتجاوزه الى العمل المباشر •

اختلف الموقف بشكل جذري غداة الانكسار، عندما غدا في امكان عرب اسرائيل الذهاب لأول مرة منذ تسع عشرة سنة الى الضفة الغربية من الاردن وغزة ، واستطاع سكان تلك المناطق من جانبهم رد الزيارة لهم • فوجد بعض العرب «الاسرائيليين» انفسهم عندئذ تجاه قضايا مؤلمة وقبلوا التعاون مع منظمات «ارهابية» خارجية مثل (فتح) و(الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) • ان «شبكات القنابل» المدينية التي نجحوا في اقامتها في تل ابيب وحيفا وعكا اثارت مشاكل صعبة الحل لرجال الشباخ ، اذ اضطروا الى مكافحة حزب من الطابور الخامس يعيش داخل البلد نفسه• ومع ذلك فان اكثر تلك الشبكات قد اكتشفت بسرعة بفضل العيون المبثوثة منذ زمن بعيد من جميع القوى والأحياء العربية • وقد وشى بالمخربين دائما تقريبا بعض ابناء دينهم ، من مسيحيين ومسلمين، الذين لا يرغبون قبل كل شيء «ان تحدث لهم مشكلات» • ويلاحظ أن فتح والجبهة لم تنجحا فعلا كذلك في زرع نفوذهما في الضفة الغربية للاردن (١) • غير ان الموقف متفجر اكثر فاكثر في قطاع غزة الذي كان دائما كنوع من القدر الذي يغلي حتى ايام الادارة المصرية • اما بالنسبة للعمل الوقائي ، ففي فترة التطهير الكبير في خريف ١٩٦٨ للمنظمات الفلسطينية ، قدر انه ما يقرب من عشر رجال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وما يقرب من واحد على عشرين من فتح كانت لهم رواتب

---

(١) تكذب هذا الراي شهادات الصهاينة انفسهم ، والمسؤولون منهم داخل حكومة اسرائيل شكوا دائما من عجزهم تطبيق اي مشروع (فلسطيني) مشبوه على عرب الضفة الغربية بسبب تزايد نفوذ الفدائيين . وتكذبه البيانات اليومية عن حوادث الفدائيين داخل الضفة الغربية او تزايد عدد المعتقلين من شباب هذه المنطقة ، وما يتعرض له السكان من ايذاء ونسف للبيوت وسواها .

من ميزانية الشاباخ • وكانت بعض عصابات صغيرة «غير نظامية» تجوب في الضفة الغربية للاردن مكونة من عملاء اسرائيليين فقط • ادرك الفدائيون في آخر الامر رحابة ذلك التغلغل وردوا بعنف • علقت مشانق عدة عشرات من الرجال المتهمين بالتجسس لحساب العدو، ونمت في شرق الاردن ملاحقة للجاسوسية حادة ، جعلت عمل الاسرائيليين اشد صعوبة• ويجب مع ذلك القول، اليوم ايضا، ان بعض فئات الفدائيين الذين يسعون للتغلغل في اسرائيل او التسرب الى داخل الاراضي المحتلة تقع بمعدل ثمانية على عشرة مرات في كمائن ، وذلك يبرهن على ان رجال دايان مستمرون في تلقي معلومات دقيقة جدا • ويبدو من ناحية اخرى ان بعض « التطهير » قد اوحت تل ابيب به • فقد يلجأ الاسرائيليون الى حيلة وهمية وهي ان يخلى سراح اسير ذكر على مسمعه بطريقة عفوية اسماء عدد من « المتعاونين » وما ان يعود حتى يشهر بالخونة وتبدأ عملية التطهير • استخدمت تلك الطريقة من قبل الكولونيل (غودار) ليثير انقسامات دامية بين صفوف ثوار ولاية (القبيلي) وأدت الى تطهيرات قام بها (عمروش) خلال الثورة الجزائرية •

المصالح « الثانوية »

يمثل الموساد والآمان والشاباخ سنان الاستخبارات الاسرائيلية • ومع ذلك يجب الا ننسى ان رئيسي ادارتين أخريتين يحضران كل اسبوع في تل ابيب الاجتماعات عند الميمونة • انهما أشد تكتما في نشاطهما من بقية الاجهزة ، ولا يوجد تحت تصرفهما عملاء تنفيذ ، بيد انهما يؤلفان، كل في مجاله ، ضربا من الذاكرة ، ومكتبا للتحليل في الوقت نفسه • وأعمالهما وآراؤهما لهما قيمة ثمينة عند «زملائهما»• والادارة الاولى هي قسم الابحاث في وزارة الخارجية ، وهو مكلف بصورة اساسية بتقييم القوى والتوترات السياسية والاجتماعية داخل العالم العربي ، بينما

مصلحة يهود «الاضطهاد» يمركز جميع المعلومات عن اوضاع الجاليات الاسرائيلية في تلك البلاد العربية نفسها وفي البلاد الواقعة وراء الستار الحديدي ، وهي الادارة الثانية •

تشغل مصلحة قسم الابحاث البناية رقم ٢٤ في وزارة الخارجيـة في القدس • وأقرب جيرانها اليها قسم (آسيـا ـ الاوقيانوس) • ان الدخول عسير جدا الى ذلك البناء الصغير حيث تنتهي اليه اكثر المعلومات دقة وفائدة عن العالم العربي • فانه بعد دقائق من تسمية وزير جديد او موظف كبير جديد في القاهرة او دمشق ، او فـي اية عاصمة عربية ، يحلل الى ادق التفاصيل في قسم الابحاث كل ما يتعلق بشخصية وآراء ودوافع هذا الموظف الاكثر صميمية ، وتكون موضوع توجيه الى جميع من يعنيهم الامر من مدنيين وعسكريين •

عرفت هذه المصلحة توسعا ملحوظا غداة حرب الايام الستة عندما استلم رئاستها «يوسي» أحد ألمع الدبلوماسيين الاسرائيليين من المدرسة الجديدة • فانه يعرف العالم العربي حيث ولد ، معرفة جيدة تضاهـي معرفته لافريقيا السوداء ولأوربا حيث تنقل في مناصب عدة ، كما ان له معرفة بالامم المتحدة حيث ارسل عدة مرات لمساعدة الوفد الاسرائيلـي اثناء المناقشات التي تكون على جانب كبير من الاهمية بالنسبة الى بلادد حادث طبع شبابه• ترك سورية، مسقط رأسه، مع اخيه قبل ولادة اسرائيل• وبقي ابوه ، تاجر غني ومتقدم في السن ، في حلب : «سأتفاهم مع العرب دائما • اني عشت معهم •• » بعد مضي بضعة اشهر قرع غلام باب غرفة يوسي : «ابوك ينتظرك تحت» • بين مصدق ومكذب هبط السلم ووجد ابويه يحملان عدة سفر هزيلة • لقد قال قاضي عربي الى صديق التاجر الاسرائيلي القديم اثناء لعبة (الزهر) متحدثا عن حوادث فلسطين : «انتم اليهود ••» أكان بذلك يقصد التهديد ؟ ام انها زلة لسان فاضحة ؟ بعد مضي بضعة ايام ، تخلى الرجل الشيخ عن كل شيء في حلب ، اجتـاز

الحدود اللبنانية ووصل الى فلسطين .

اهي نادرة بسيطة ؟ ليس تماما . انها تظهر بجلاء نوعية حاسة الشم والحدس لدى الكثير من الاسرائيليين تجاه عالم عربي كان عدد كبير منهم قد عاش فيه .

يحوز رجل مثل «يوسي» على وثائق ومحفوظات ، وذاكرة ، وعلاقات طيبة مع العسكريين ، وكذلك يملك ضربا من الحاسة السادسة التي تسمح له في احيان كثيرة انطلاقا من معطيات جزئية بالفعل ، بل حتى من ريبورتاج منشور في الصحف الاجنبية ، ان يميز مبكرا اتجاها ما ، او انحرافا في سياسة احدى البلدان التي «يراقبها» ، وذلك ما يجعل منه بالتأكيد واحدا من خيرة الاخصائيين عن العالم العربي الموجودين حاليا في اسرائيل او في سواها . دبلوماسي ممتهن لكنه صديق شخصي لـ (شلومو غازيت) و(آريه شاليف). يمارس في منصبه نوعا من الجمع بين وزارة الخارجية والجيش . ومن المؤكد ان اغلب العمليات المسماة (قصاصية) على اراضي العدو لها اسباب على المستوى السياسي . تطبق اسرائيل بصورة منتظمة ، نوعا من لعبة البليارد بطرائد ثلاثة ، وان اصابة الهدف الاول نادرا ما يكون الهدف الحقيقي للمهمة (١) .

في جميع بلدان العالم يوجد بالتأكيد قسم للابحاث في وزارة الخارجية ولكن تلعب مصلحة الابحاث في القدس مع ذلك دورا فريدا تماما رغم ضعف وسائلها وعدتها في الدبلوماسية الاسرائيلية ، فهي دبلوماسية كفاح ، وهجوم ، وهي تطرق الحديد ما دام ساخنا وتستثمر على الفور الشروط الملائمة . من هنا اهمية البناء رقم ٢٤ .

---

(١) هذا المقطع يشير بوضوح الى ان بعض العمليات العسكرية التي توجه الى الاردن ولبنان خاصة هي ذات هدف سياسي . وان الضربة الموجهة الى هدف مكشوف لا تكون هي الضربة المعنية وانما نتائجها على الصعيد السياسي . (م)

مصلحة «يهود الاضطهاد (١)» هي ايضا مصلحة بحث ووثائق ولا تستخدم اي عامل تنفيذ . انها تمركز جميع المعلومات المتعلقة بمصير الجاليات الاسرائيلية في البلاد العربية وفي البلاد الواقعة وراء «الستار الحديدي» وكذلك تزود الحكومة والمنظمات الدولية بالمعلومات . رئيسها ، وهو الرجل الخامس الذي يشترك في الاجتماعات الاسبوعية عند الميمونة ، هو وجه اسطوري لاسرائيل واسمه (شاوول افيغور) وكان رئيس (الموساد) في اوروبا عند انتهاء الحرب العالمية الثانية . انه هو الذي نظم مع (ايهود اوريل) اول شحنة سلاح ، والهجرات الكبيرة غير الشرعية. «اكسودوس» و«لينا» و «بريفان»، عمليات خططت وحققت من قبله . ولقد شاخ اليوم قليلا ، سقط اكثر شعره وشاب ، له وجه ملاكم زادته السنون سحرا ، وهو اليوم عميد اعضاء «لجنة التنسيق»، وقليلون هم الشبان الاسرائيليون الذين يستطيعون معرفته في الشارع . « اذ الابطال الشيوخ لا يموتون ، انهم يتلاشون» .

ليس من قبيل المصادفات ان يكون (شاوول أفيغور) يدير اليوم مصلحة يهود بلاد الاضطهاد . ففي العهد الذي كان ما يزال ممكنا الانطلاق مباشرة لمساعدة بعض جاليات مهددة ، قام هو بأعمال نادرة الجرأة .

خلال صيف ١٩٤١ تلقى قادة الهاجانا والموساد امرا من دافيد بن غوريون بتحضير على وجه السرعة عملية «انقاذ» للجالية اليهودية في العراق التي كانت ضحية مذبحة في شهر حزيران . مئة وخمسون يهوديا قتلوا وأكثر من الف جرحوا. عشرات المئات من الفتيات والنساء اختفين.

(١) ابقينا على الترجمة الحرفية لهذه العبارة ، اذ انها تعني مصطلحا صهيونيا خاصا ، تدل عليه لفظة الاضطهاد .

افيغور وصل بغداد بعد شهر، متخفيا بزي عسكري بريطاني(١)، ولقد روى قسما من مغامراته احد رؤساء شبكة الموساد في بغداد وهو (مايير مردور) ، المعروف باسم «مونيا» وهو الاسم الذي وقع به كتابه «مهمات مغفلة» •

لحق بأفيغور احد شخصيات الاستخبارات الاسرائيلية الاكثر طرافة والاكثر جاذبية : (أنزو سيريني) ، مخيف جدا ، شاحب جدا ، هذا الخلف لاسرة غنية يهودية ايطالية يعشق عقيدة اللاعنف وهو محب للسلم متواضع • استقر قبل الحرب في افقر كيبوتز ، في الجليل الاعلى وسط منطقة الخطر • لكنه يقف للحراسة بلا سلاح ، لا يريد ان يحمل حتى عصا ، مما يثير ذعر رفاقه الشديد عليه هي (جيفات برينر) ويقول : «اذا ما هاجمني احد ما فسأنجح في ان اشرح له اني لا اريد ان انزل به اي ضرر، وأنا على يقين بأننا سنتفاهم» • هذا الرجل سيهبط فيما بعد بمظلة في ايطاليا وراء الخطوط الالمانية حوالي نهاية الحرب العالمية الثانية يقع في الأسر ويقطع النازيون رأسه بفأس في احد معسكراتهم للموت • قليلة هي اليوم المدن في اسرائيل التي لا يحمل شارع من شوارعها اسم انزو سيريني •

وفي ١٩٤١ ، كانت بغداد مدينة تمزقها مؤامرات عديدة • عملاء الالمان كثيرون والجيش البريطاني يحتل المدينة عسكريا ، والعراقيون هم من اكثر شعوب الشرق الاوسط (قسوة) • فكان على الجواسيس اليهود ان يتخذوا احتياطات كبيرة • اتخذ (سيريني) رسميا صفة ممثل لمؤسسة للانشاء هي « سوليل بونييه » ، تعمل لحساب الجيش البريطاني ، من

---

(١) ما زال المؤلف كما يرى القارىء يورد المعلومات المدسوسة والمشوشة للنيل من سمعة العرب ، كما انه يتجاهل فضح الارتباط بين الصهيونية والاستعمار ، فلا يقول كيف استطاع (افينفور) ان يكون عسكريا بريطانيا في العراق وفي عهد الاستعمار البريطاني .

البحر الابيض المتوسط الى الخليج الفارسي • نزل في فندق سميراميس• وشرع في العمل مع (ماير ماردور) الذي كانت مهمته انشاء وحدات دفاع ذاتي في الاحياء اليهودية لمواجهة (مجزرة) جديدة • الصراع بينهما في بعض الاحيان عنيف : فقد استمر سيرني المسالم في رفض العنف ويأبى توزيع السلاح • الا انه سرعان ما ادرك ان الجالية الاسرائيلية معرضة لخطر حقيقي ، فاستكان للأمر • ان اول شحنة سلاح قادمة من فلسطين، وصلت بغداد في نهاية ١٩٤٢ • مسدسات وقنابل صغيرة مخفية داخل باصات تملكها شركتان تعاونيتان هما «ايجيد» و «دان» ، وهما ستحتكران فيما بعد احتكارا فعليا النقليات بالسيارات في اسرائيل ؛ لكنهما كانتا تؤمنان في ذلك الحين نقل عدة وحدات بريطانية بين فلسطين التي كانت تحت الانتداب ، وبين العراق • مسافر «غير شرعي» يقول عن نفسه انه ميكانيكي • جاء مع الركب : موشيه دايان ، ضابط في بالماخ ، طلب الاذن بالسماح له في المجيء ليطلع على الوضع •

بعد توزيع السلاح على الأشداء من يهود بغداد وضع (افيغور) و(ماير ماردور) (المونيا) و(سيريني) نظاما للاتصال اللاسلكي بين وحدات الدفاع الذاتي • وأقيم مركز القيادة في حي الاسواق ، شارع الأساكفة؛ وكانت مهمة الاستطلاع قد كلف بها شخص ارسل من فلسطين : هو فتاة ، اسمها (مالكه روفا) من كيبوتز (ماعوز حاييم) في وادي الاردن• ولتسهيل تنقلاتها في شوارع بغداد ، تجولت بزي جندي انكليزي • «تومي» أجرد ونحيف ••

خلال عام ١٩٤٣ ، أتم (أفيغور) استعداده وحزم امره • بمناسبة عيد (سيدر) وخلال العشاء التقليدي في عيد الفصح اليهودي ، خاطر جميع عملاء (الموساد) في العاصمة العراقية والتقوا في اجتماع • انتهى العشاء بطقس «السنة القادمة في اورشليم» • وبالفعل فانه منذ نهاية

الحرب العالمية الثانية ، بدأ الخروج (١) •

سيصل الخروج الى نسبة كبيرة غداة ولادة دولة اسرائيـــل • ان الذي سيفاوض من اجل رحيل المهاجرين مع نوري السعيـــد ، رئيس الحكومة العراقية هو رجل قصير كيِّـس وفطين ، اسمه (شلومو هيلل)، الــذي سيصبح فيما بعد دبلوماسيا ثم وزيرا للشرطة • فقـــد تضاعفت «الاعتداءات» ضد اليهود في جميع المدن الكبيرة في العراق ، وكان لا بد من تنظيم جسر جوي حقيقي • وقد تم خلال عام ١٩٥٠ القيام بأكثر من (١٢٠٠) رحلة جوية ، أقلت أغلب افراد اقدم الجاليات الاسرائيليــة في الشرق الاوسط • في ١٩٥١ لم يبق في العراق اكثر من ٥٠٠ يهودي بين مثقف وموظف ، وبعض اصحاب مهن حرة ، تجار ، يعتقدون بامكانية «انقاذ الاثاث» ، او يعتبرون العراق وطنا لهم • وما كانوا ليعلموا بعـــد اذ العديد منهم ستعلق رقابهم بطرف حبلـــة ، فـــي ساحة بغـــداد الرئيسية (٢) •

كان ذلك الخروج عملية مربحة للحكومة العراقية آنذاك ، اذ كان على المرشحين للرحيل ان يتخاوا عن جميع ممتلكاتهم • كما ان المدارس والمستوصفات والمراكز الجماعية المشتركة ، ستعتبر «املاكا متروكــة» وبحسب بعض التقديرات فان مجمل تلك الاملاك تقدر بأكثر من مليار

(١) ظاهر من هذه الرواية ان جوانب كثيرة منها قد اغفلها المؤلف ، ذلك انها تبرز الوجه الاخر للصهيونية «الذكية المناضلة» فلقد تناسى ان بعثة تل ابيب هذه راحت تفتعل حوادث الاعتداء على اليهود العراقيين وتقوم بعمليات يقصد منها ترويع يهود العراق ، ودفعهم الى الهجرة، وهذا ما تذكره مصادر يهودية أخرى .

(٢) من الواضح هنا ايضا ان المؤلف ينال من الحكم الثوري ويتغافل عن خيانة حكم نوري السعيد الرجعي الــذي كان وراء هجرة اليهـــود العراقيين الى اسرائيل .

فرنك (١) •

وبذلك فقد اصاب حكام بغداد هدفين بحجر واحد : يتخلصون من جالية غدت غير مرغوب فيها ، وبينما كان الخروج على وشك ان يتم ، اوقفوا رجال الموساد الذين نظموه الى جانب (شلومو هيلل) • يهوديان من العراق ، هما شالوم تزال ويوسف بزري ، حكم عليهما بالسجن لمدة خمسة عشر عاما ، وهذا الحكم لم يمنع من شنقهما في ١٨ كانون الثاني ١٩٥٢ في باحة سجن بغداد • اسرائيلي، (يودكا تاغار) حكم عليه بالسجن المؤبد مع الاشغال الشاقة • «صبرا» من الجيل الرابع ، يتكلم العربية بطلاقة ، اكتشف في أحد شوارع بغداد من قبل لاجىء فلسطيني كان يخدم في نادي الضباط في عكا •

سيمضي (يودكا تاغار) قسما من حبسه ، برفقة اسرائيليين آخرين ، دانيال باروخ والياهو جورج عوض • تفار هو رجل هادىء ، قليل الكلام ، والذين عرفوه في لندن . حيث بقي زمنا طويلا مستشارا اول في سفارة اسرائيل ، يستطيعون بصعوبة تصور التجارب التي تحملها هذا الرجل في السجون العراقية •

سيتسلى عبد الكريم قاسم ، رئيس الدولة، بنقله عدة مرات الى زنزانة المحكوم عليهم بالموت ، ووضع الحبلة في رقبته وهو واقف على لوح فوق حفرة يمكن ان تسحب من تحت قدميه في كل لحظة • وسيعذب في عدة مناسبات •

أوقظ (يودكا تاغار) في احدى الليالي على صوت نحيب ووقع

---

(١) تناسى المؤلف «براعة» قومه . فمن المعروف انه ليس من يهودي غني ارتحل عن العراق ، او عن اي قطر عربي آخر ، ترك وطنه الاصلي دون ان يصفي جميع املاكه بأخس الطرق ، هذا ان لم يحمل معه ثروات غيره من التجار العرب كديون في ذمته لهم .

جزمات . فتح باب الزنزانة ودفع بامرأة الى الداخل . انها شبه عارية تحت مبذلها . تضم يودكا باكية . وهو يدفعها عنه عدة مرات ، ويجيء الحرس لاستردادها . فيصبيحة اليوم التالي يقول له ضابط عراقي بازدراء : «استقبلت زائرا هذه الليلة ؟ » بقي يودكا ملتزما الصمت ، كان مدركا انه تحاشى كمينا . صاح الضابط : «يا احمق ، كانت امرأة يهودية ، سجينة مثلك ، عرفت انك ستشنق في الصباح وطلبت الذهاب اليك لتلطف لحظاتك الاخيرة . وكي تصل اليك ، مر فوق جسدها جميع حراس السجن . وأنك رفضتها .. » (١) .

سيطلق سراح يودكا تاغار بعد تمضية ثمانية اعوام على تلك الحال، لكن بعد ان لعب الجنرال قاسم معه لآخر مرة «دعابة» ابلاغه ان شنقه محتم . سيأخذ عليه عهد ألا يحمل ابدا السلاح ضد العرب . وتملص يودكا بجواب حذر : «سأحمل السلاح للدفاع عن النفس لا للهجوم» . وعند عودته الى اسرائيل سيعلم انه لم يشمله عفو انما اطلق سراحه في عملية تبادل أسرى عملاء عراقيين . وسيعلم ايضا بواسطة اصدقائه في الموساد ان القضاة والمدعي العام الذين حاكموه قد نفذ فيهم حكم الاعدام بأمر قاسم . والدكتاتور العراقي نفسه سينهي قريبا مهنته، رميا بالرصاص «مباشرة» امام عدسات التصوير في تلفزيون بلده ، بعد ان جرح بعمق في عملية تمرد نظمها جنود صديقه الحميم حسن البكر .

ترك يودكا تاغار الدبلوماسية في الاشهر الاولى من ١٩٧٠ ليبدأ مهنة جديدة كمحاضر في جامعة تل ابيب . تقاعد شابا ، براتب كامل ، طبقا لنظام الموساد الداخلي ، كل سنة تمنحه نقطا اضافية للتقاعد .

شاوول أفيغور ، العريق في جمع العمليات الصعبة ، لم يعد يستطيع اليوم ان يفعل شيئا من اجل الجاليات اليهودية الصغيرة التي حاولت

(١) تتضح هنا نية المؤلف اكثر مما تتضح في محاولته تشويه سمعة العنصر العربي من اي اتجاه كان .

البقاء في البلدان العربية في الشرق الاوسط واصبحت الرهائن المضحكة في سورية والعراق • بل حتى في الجمهورية العربية المتحدة • لا شيء غير اخطار الرأي عن مصيرها ، والسعي احيانا لتحقيق «مبادلة» او «عملية شراء» • ان بعضا من تلك الجاليات ، امثال الجاليات اليهودية في القامشلي ، في شمال سورية في قلب المنطقة المحرمة عند الحدود التركية، اصبحت جاليات اشباح ، لا يصل الاسرائيليون عنها ، رغم نوعية استخباراتهم ، اي خبر طوال عام او اكثر احيانا (١) • انه شاوول أفيغور ، بصبره الطويل هو الذي يعثر في كل مرة على آثار هؤلاء اليتامى ، يتامى دياسبورا الضائعين في عالم معاد •

مواصفات العميل العادي

ان نموذج العميل الاسرائيلي هو ضد نموذج جيمس بوند ، هذا التعبير طبعا مبهم جدا ، فانه بقدر ما يكون بطل (ايان فليمنغ) (١) شخصية اسطورية ، فهو كذلك لا حظ له في الا يكشف امره الا لبضع ساعات من العمل في ارض العدو • لكن ذلك لا يمنع من ان يكون «الجاسوس» الاسرائيلي شخصا عاديا استوظف ، رغم المخاطرة التي تشتمل عليها أغلب المهمات التي يعهد بها اليه • فليس من قبيل الصدفة ان تكون قصة الجاسوسية الوحيدة التي تلقى القبول في عين الجنرال

---

(١) يحاول المؤلف ان يوحي للقارىء الغربي خاصة ببؤس هذه الجاليات اليهودية ، وهو ينسى أن ما يقرب من نصف مليون عربي في اسرائيل ما زالوا يعيشون حجرا دائما وهم في ارضهم وبلدهم يقاسون من عنصرية الصهاينة ، ويمنعون من ابسط الحقوق الانسانية . في حين لم يبق في البلاد العربية الا بضعة الوف قليلة اكثرهم يحيا بسلام ويمارس حقوق المواطن العربي العادي .

(١) مؤلف روايات جيمس بوند .

مايز أميت هي « الجاسوس الذي قدم من الصقيع (١) » •

يقول ايسير هاريل، اول من شغل منصب ميمونة تاريخيا: «عملاؤنا هم موظفون بالمعنى التام للكلمة • انهم لا يتمتعون بأي امتياز • نظامهم نظام مدني • لا يتلقون اية علاوة عندما يعملون في منطقة خطر • الفائدة الوحيدة التي توفرها تلك الحالة لهم هي عدد نقط اضافية عند تقاعدهم• حساباتهم تفحص بدقة كبيرة » •

«نعم اننا نستخدم نساء ، وبعضهن لعبن ادوارا مهمة جدا وخطـرة جدا • بعضهن قتلن اثناء العملية شأنهن في ذلك شأن رفاقهن الذكور • بيد انهن لسن ماتا هاري التقليدية • عندنا قاعدة قاطعة : على المرأة الا تستخدم انوثتها في العمل • ولا بأي ثمن !! » (٢) •

من (حديث صحفي الى معاريف ، ٢٦ نيسان ١٩٦٨)

احد المعايير الرئيسية للتجنيد هو الانسجام العصبي وقدر الامكان التوازن العائلي • فأغلب العملاء الاسرائيليين الذين يمارسون نشاطهـم في الخارج متزوجون ولهم اولاد • قد يحدث ان تستعمــل «رؤوس» حامية لمهمة محددة ، لكن بشكل نادر • مشهد يوجب الانتباه ساعــة انصراف موظفي الموساد من مكاتبهم في تل ابيب • في الساعة الخامسة مساء ، فريق متراص من صغار الموظفين ينفرون من البناء ويهجمون على الباصات في المحطة المجاورة • لا غطرسة ، لا سيارات مكشوفة • ان رئيس القسم في الموساد او الآمان يتقاضى شهريا أقل من ١٢٠٠ فرنك•

ان التدريب كلاسيكي ، لكنه شاق • ويحصل تجنيد العملاء بشكل

---

(١) اسم رواية اخرجت الى السينما .
(٢) يحاول بهذا الكلام ان ينفي ما اشتهر عـن النساء اليهوديات مـن استخدام وسيلة الغواية ، وهو اغرب ما نفي !

عام تقريبا بواسطة اتصالات صغيرة متعاقبة ٠

وعندما يبدو رجل او فتاة «مهمين» ولا عمل لهما ، يتصل بهما شخص ، ويعرض عليهما عملا صغيرا من اجل «احدى مصالح الدفاع الوطني» ٠ فقد يطلب اليهما مثلا مراجعة منتظمة لصحافة بلد عربي معين، واستخلاص جميع المعلومات التي تبدو ملفتة للانظار ٠ هكذا بدأ اول اتصال مع الموساد ايلي كوهين ، العميل الاسرائيلي الشهير في دمشق ٠

فاذا كانت نتيجة ذلك الاختبار مرضية ، تبدأ عندئذ عملية التكوين الحقيقي ، وهي مشابهة للعمليات التي تمارس في مثل هذه الحالة ، في جميع بلدان العالم : تمارين تقوية الذاكرة ، تمارين عملية على الشيفرة وفك الرموز ، استخدام الراديو ، تعليم اصول القتال بالأيدي ، تمرين على التخريب ، ومعالجة المتفجرات والسلاح ٠ تحت تصرف الموساد في قلب تل ابيب عدد كبير من البيوت يتابع فيها المجندون الجدد «دروسهم»٠ وطوال تلك الفترة تمتحن ردود فعلهم النفسية بصورة منتظمة من قبل اطباء ٠ عند نهاية هذا التمرين قد يرسل «الجديد» في مهمة الى الخارج للقيام بعملية محدودة وأيضا ليحل محل «مقيم» ٠

ليس في كل ذلك اي جديد ٠ تلك هي الطرق نفسها بالضبط التي تطبق في فرنسا او انكلترا او الاتحاد السوفياتي او الولايات المتحدة ٠ وان الاختلاف الوحيد الذي يميز اسرائيل هو لا شك التنوع القومي النادر للسكان ، مما يسمح باختيار ، حسب الطلب ، ضابط .S. S مزيف بمظهر آري اكثر من كثير من النازيين ، او «شرقي» يتكلم العربية خيرا من كثير من المصريين، او مولود في (فيليسبورغ) او (سانت أوين)٠

ومن الملاحظ كذلك ايضا انه لا يلحق أي زهو او اي عار بممارسة هذه المهنة الخطيرة ، ليس فقط في مفهوم الناس الذين يمتهنونها ، وذلك طبيعي ، انما في اعين الرأي العام ٠ لا وجود لأية اسطورة «لصاحب لحية حمراء» في اسرائيل ، وقد يكون عجيبا لو كان الأمر كذلك : ففي

بلد صغير ، حيث يعرف كل واحد من يكون كل واحد ، كان ينبغي ان يشار بالاصبع الى كثير من التجار المحترمين والموظفين الكبار والصحفيين والاساتذة الذين استغلوا في فترة او في اخرى من حياتهم لصالح الاستخبارات • فذلك لا يدهش ولا يصدم احدا ، اذ ان الاستعلام بجميع اشكاله معترف به بالاجماع كخير ضمان لبقاء اسرائيل المنعزلة وسط عالم شديد العداء لها •

فهل الجواسيس ابطال وطنيون بالنسبة للاسرائيليين ؟ ان شنق كوهين في ساحة عامة في دمشق اثار موجة من السخط في البلاد ، لكن ارملته تعيش بمعاش ضئيل في ضاحية تل ابيب •

وولفغانغ لوتز وفيكتورين نيتو اللذان أمضيا بالتتالي خمسة اعوام وأربعة عشر عاما في سجون مصر قبل ان يطلق سراحهما بمبادلة عدة آلاف من الاسرى المصريين ، لم يتلقيا اية مكافأة خاصة بعد عودتهما • انهما لم يثيرا فضول اصدقائهما • انهما ببساطة عادا بعد غياب طويل ، ناتج عن اخطار المهنة •

بينما أصدر الاتحاد السوفياتي جديثا طابعا بريديا يحمل صورة ريشار زورغ ، احد كبار جواسيسه الذي شنق في طوكيو بعد مآثر عديدة ، فان فكرة كتلك تعتبر فظيعة في اسرائيل • انها رغبة في الكتمان وصون للسر بالتأكيد ، مدفوعة الى آخر مداها ، حتى في القضايا المنتهية المحفوظة ، لكنها ارادة مقصودة • الاستسلام ضرورة لا اكثر • فان قضية ايلي كوهين ، فقط وبسبب صفتها الدرامية قد اثارت وأسالت المداد في أدب موحى مباشرة لأول مرة من فتح شحيح لبعض محفوظات الموساد • ان القاب العملاء السريين في اسرائيل هو برنامج سري كامل : انهم يسمون «شوشو» • ولا علاقة لهذه التسمية بالكلمة الفرنسية • انما لانهم يرددون طوال اليوم : «اس ، اس !» ، علامة الصمت •

القسم الثاني
الاولاد الضائعون

قضية لافون

ان اعمال الاستخبارات الاسرائيلية ، بخلاف الفكرة المنتشرة عنها، ليست كلها بناجحة • ولو حدث ذلك لكان مثار دهشة ، لكن للاساطير حياة شاقة • ففي بعض الحالات كان لبعض المبادرات التعيسة نتائج مخربة أفضت الى ازمات سياسية خطيرة في اسرائيل • تلك هي حال قضية (لافون) الموصوفة دائما بأنها «قضية لافون الغامضة» والتي ما زالت حتى اليوم مفتاحا من مفاتيح السياسة الداخلية والاسرائيلية بما اثارته من حواشي الحقد والكراهية والخيبة والتي تروى احداثها مع ذلك بشكل بعيد عن الواقع • وما برح القائمون الرئيسيون بأدوار تلك المأساة يسمون في اسرائيل بعد مضي ستة عشرة سنة بالقاب: «الضابط الكبير ••» و«الرجل الثالث» و«ضابط الاحتياط» • قضية لافون في الواقع جد بسيطة • انها فصل طائش من الحرب السرية ، قضية من تلك القضايا التي يشنها شخص غير مسؤول والتي تنعكس نتائجها فجأة كالشلال •

بدأت سنة ١٩٥٤ بدءا سيئا بالنسبة الى اسرائيل • فلقد تزايدت هجمات الفدائيين المتمركزين في غزة ونجحت بعض العصابات في التغلغل الى قلب البلد ، الى ما يقرب من خمسة عشر كيلومترا فقط من

تل ابيب • وما كان الموقف الدولي اكثر تشجيعــا للدولة العبرية • فالجيوش البريطانية تتهيأ لتخلي قواعدها في منطقة القناة ، بعـد وجود قرن من الزمان تحت الضغط الدائم المتزايد للحركة القومية المصرية • في اسرائيل كان من المعروف ان مخزونا هائلا من اسلحة وذخائر ومدفعيـة ومصفحات لن تعاد الى بريطانيا او تنسف في مكانها ، لكن ستترك فـي حالة جيدة للجيش المصري الذي لا يحلم الا بمسح اهانة ١٩٤٨ •

لم تكن العلاقات بين واشنطن وبين القدس حارة جـدا • وكان الهدف المعلن للرئيس ايزنهاور هو تقوية حلف بغداد ، الذي نظر اليـه باعتباره سيقاوم الانتشار المتزايد للشيوعية في الشرق الاوسط • ولـم تكن اسرائيل قد دخلت بعد في مخططات البيت الابيض ، بل كانت فـي ذلك العهد جسما غريبا مزعجا •

انتاب اسرائيل الضعف ايضا من جراء تقاعد دافيـد بن غوريون وأحست نفسها انها يتيمة • انسحب بن غوريون تعبا خائبا من المخاصمات داخل حزبه نفسه ، «الشيخ» الذي ظل على رأس بلاده منذ الاستقلال ، الى مستوطنته في سد بوكر على بعد ٢٥ كم من (بيرشيفه) فـي وسط النقب • راح يشتغل في الحقول ويؤدي بدقة متناهية مهمته «كرفيق» • وحل محله على رأس الحكومة وزير خارجيته السابق موشيه شاريت ، واسندت وزارة الدفاع التي كانت موكولة اليه الى (بنحاس لافون) ، السكرتير العام السابق للماباي ، حزب العمل • شاريت ولافون : قـد يتمتعان بالنية الحسنة لكنهما رجلان ضعيفان ، ضعيفا الارادة • وعلـى كل حال اسيء اختيارهما ليخلفا وحشا مقدسا كبن غوريون ، فضلا عن ان التفاهم مفقود بينهما • حدث لهما انهما لم يتخاطبا خلال ايام بكاملها • وقيل في حينه انه يوجد حكومتان في اسرائيل : حكومـة شاريت في القدس وحكومة لافون في تل ابيب (مركز رئاسة الوزراء ومركز وزارة

الدفاع) • وأضيف احيانا انه لا توجد علاقات دبلوماسية بين هاتين الحكومتين •

موشيه شاريت وسفيره الشاب في واشنطن (آبا ايبان) لا ييأسان من الوصول الى تفاهم مع الحكومات العربية ، وبصورة خاصة مع حكومة مصر • وان عملية جس النبض الذي اجريت في القاهرة بواسطة نائبين عماليين بريطانيين اعتبرت مشجعة • فلقد طرق موضوع اللاجئين الفلسطينيين بواقعية من كلا الجانبين • وسورية من جانبها لم ترفض بعد بصورة قاطعة مشروع جونسون لاقتسام مياه الاردن واليرموك • بقي الأمل حيا لرؤية الولايات المتحدة تلقي بوزنها في الميدان وتحاول فرض تسوية •

تلك هي ومضات الامل في فترة قاتمة • ولعل العاصفة لن تنفجر حتما ، والصاعقة تبدو وكأنه يمكن كبح جماحها • لكنه يجب الاستعداد لأسوأ الاحتمالات ، اذ قد تتغلب على الرئيس ناصر القوى التي اطلقها من عقالها هو نفسه • يجب الاستعداد لجميع الاحتمالات ، اي للحرب، ولخوض الحرب ، يلزم السلاح • واسلحة ١٩٤٨ قديمة ، بالية ، قليلة•

لم يكن من اليسير على اسرائيل ان تقتني السلاح في عام ١٩٥٤ • فقد رفضت الولايات المتحدة بيعه لها ، بسبب حلف بغداد• والبريطانيون هم اكثر سلبية : كان في نيتهم ان يسعوا ، بعد رحيلهم عن مصر ، الى تعزيز وجودهم في العراق • فلم يكن الوقت مناسبا لفتح ازمة مع العالم العربي بسبب هؤلاء اليهود في فلسطين ، ولو دفعوا نقدا وعدا ••

بقيت فرنسا • ومن رأي رئيس الاركان العامة (موشيه دايان) والمدير العام لوزارة الدفاع انها المصدر الوحيد الممكن ، وشن الرجلان حملة نشيطة لصالح التقرب من باريس • فانهما محتاجان الى مصفحات

عصرية من نوع AMX 13 ويلزمهما كذلك اجهزة قتال مضادة ، قادرة على الايقاع بالطيران المصري المجهز بالطيارات البريطانية •

نظر (بنحاس لافون) الى كل ذلك بعين غير راضية • وفي رسالة وجهها الى (شيمون بيريس) اعلن في ١٥ كانون الثاني : «سيكون من الجنون من جانبنا ان ننضم الى فرنسا» • وبعد فترة وجيزة اتخذ مبادرة الغاء اول اتفاق لتوريد شحنة صغيرة من السلاح الفرنسي ، دون ان يخطر (دايان) ، الذي انتابه غضب شديد وقدم استقالته التي لن يرجع عنها رسميا الا في ١٨ حزيران • وكانت دوافع بنحاس لافون غير واضحة • ومن الأرجح ان هذا الرجل اليساري الذي يدعو منذ زمن طويل الى اتفاق مع العرب «التقدميين» شعر ببعض النفور من فكرة التواطؤ بين بلده وبين فرنسا التي تواجه ، وسط الاضطرابات ، مسائل تصفية الاستعمار الدقيقة • فلم ترضه كثيرا لا شك ، فكرة التبعية الشديدة للدولة الكبرى «الاستعمارية» الاخيرة • لكنه بسرعة كبيرة ، سيجد نفسه بمواجهة مشاكل تتجاوزه •• فان هذا المناضل الاشتراكي الصادق ، هذا المشايع الحازم لحل سياسي في الشرق الاوسط ، سيتحول بسرعة كبيرة ، الى شخص متطرف قاس ، يخيفه اتساع الاخطار التي اكتشفها ، يتخيل الانتقادات التي سيحاط بها من كل جانب ، طريق كلاسيكي سيسلكه قريبا بدورهم العديد من قادة الحزب الاشتراكي الفرنسي عندما تتخذ الحرب في الجزائر ابعادا جدية •

ذلك هو الاطار الذي انفجرت ضمنه «القضية» التي سممت طوال اكثر من عشر سنوات الحياة العامة الاسرائيلية ، وتسببت في انفجار الماباي ، حزب الاكثرية وبعثت على سقوط حكومات عدة والانسحاب النهائي بعد تسع سنوات لبن غوريون ، الذي عاد وترأس مجلس الوزراء •

ان فكرة لافون الكبرى هي التالية : يجب بأي ثمن قطع الصلات بين مصر والولايات المتحدة • يجب ايضا منع ، بجميع الوسائل ، رحيل الجيوش البريطانية عن منطقة القناة • فما الوسيلة الى تحقيق هذين الهدفين ؟ النسف بالديناميت لبعض المؤسسات الاميركية في القاهرة والاسكندرية لاشاعة الاعتقاد بأنه هجوم صادر عن وطنيين ، والعمل بالطريقة نفسها ضد بعض قواعد بريطانية لاثارة ازمة جديدة • وتعزز صدقه تحليل بنحاس لافون عندما قرأ برقية الموساد في ٣٠ حزيران التي تعلن ان الجلاء عن القواعد البريطانية قريب جدا •

لكن وزير الدفاع المنعزل في قلب الحكومة ، لا يملك اية وسيلة عمل مباشرة تحت تصرفه • ان الموساد يتبع مباشرة رئاسة الوزراء ؛ وعلاقته سيئة بالميمونة (ايسير هاريل) • وهذا لا يستطيع كذلك ان يعتمد على المكتب الثاني للجيش ، رغم كونه وزير دفاع ، ورئيس الاركان العامة ، موشيه دايان ذو طبع مهاجم • لكنه لا يقدم قبل ان يضع جميع الخطوط الى جانبه ولا يغامر في الواقع بارتكاب مخاطرات قبل ان يحسب حساب احتمالاتها بدقة • ولذلك لن يقبل ابدأ بتغطية عملية بمثل ذلك التهلهل ، دون موافقة مجلس الوزراء ، ودون ان يكشف على الارجح جميع نواحي الضعف فيها ، بصراحته المعهودة •

اقتصر (لافون) على ادارتين صغيرتين ، كانتا شبه نائمتين تقريبا ، في وزارة الدفاع ، هما : ادارة العمل النفسي ، وادارة المهمات الخاصة ، واسمهما بالعبرية : (ماخليخا لوتافكيديم موهاديم) • ولقد أفاد كل من الجنرالين (ياديف) و (مخلف) من بعض دراسات عهدا بها لهاتين الادارتين لا اكثر، وهما سلفا (موشيه دايان) في رئاسة الاركان • وان دايان، الذي يؤمن بفضائل الاستعلام والمركزية ، اعتبر وجودهما سخيفا ، الا انه لم يستطع ازالة تلك الادارتين • وذلك ان بنية وزارة الدفاع يحددها القانون • لقد كان يرأس هذين المكتبين (موتكيه بن تزور) ،

الرئيس السابق لمصلحة مخابرات فرقة هاريل في فرق الصدام للبالماخ خلال عام ١٩٤٨ . وكان يوشك على ترك الجيش قريبا وعليه ان ينهي مهنته العسكرية نهاية حسنة . مساعده (دوف هراري) ، الرئيس السابق للفرق التي تحمل جوا . والعملية المقررة ستكون بالطبع مستحيلة دون «الحياد العطوف» من جانب رئيس الآمان. وكان يشغل هذا المنصب ، في ذلك العهد ، الكولونيل بنجامان غبلي ، ضابط لامع ، ذكي ، طموح جدا ، يرى فيه الكثيرون خلفا لدايان على رأس الأركان . اذا ما نجحت العملية فسيستطيع في اي وقت ان ينسبها لنفسه . واذا اخفقت فمسئوليته ليست داخلة مباشرة . سيراقب اذن بخفية تحركات الشخصيتين اللتين لم يعد لهما اية تجربة في العمل المباشر منذ عدة سنوات وهما بالتأكيد هاويان . تلك هي تقريبا « مرآة الجواسيس » ..

بفضل غبلي ، حصل (بن تزور) و(هاراري) على أذن التصرف «بالوحدة ١٣١» . هذه التسمية الغامضة يجب الا توهم. «فوحدة ١٣١» في الواقع هي فئة صغيرة من يهود مصر ، اعضاء في منظمة شباب صهيونية . تضم بين اعضائها : فيكتورين نينو ، فتاة جميلة في الواحدة والعشرين ، مستخدمة في شركة انكليزية في هليوبوليس ، والدكتور موسى ليتو مرزوق ، طبيب في المستشفى الاسرائيلي في القاهرة، وفيليب ناتاتسون ، مستخدم في التجارة ، وماير زعفران ، مهندس .

كانت قد «جرت اتصالات» بالفريق الصغير، منذ زمن بعيد بواسطة كومندان في الآمان ، هو (ابراهام دار) الذي يزور مصر كثيرا تحت غطاء ممثل تجاري انكليزي : جون دارلينغ . قسم الفريق الصغير الى وحدتين منتظمتين : احداهما في القاهرة يقودها الدكتور مرزوق والاخرى في الاسكندرية بقيادة فيكتور ليفي اولا ثم شموئيل عازار . ضابط الاتصال

بين الشبكتين هي فيكتورين نينو ، واسمها في الشيفرة : «مارسيل» • وعندما بدأت العملية ، ارسل اربعة من اعضائها الى اسرائيل ، مارين اولا بأوروبا • وهم ناتانسون وليفي وروبير داسا ومرزوق • انتاب هــؤلاء الهواة بعض الذعر من جراء الخطوة التي قفزوها • مرزوق بصورة خاصة تمنى الا يعود الى مصر لكنه لا يريد ان «يتخاذل» • تلقى الرجال الاربعة طوال ستة اشهر تمرينا مكثفا : معالجة المتفجرات ، اتصالات بواسطـــة الراديو • مدربهم القديم الملازم راشيل (امرأة) ما تزال تذكر الاربعـــة عشرة ساعة عمل يومي ، التي كانت حصتهم ، في حيفا اولا ثم في منزل مهجور ، في الحي القديم في يافا •

عندما اتخذت «وحدة ١٣١» شكلا محددا، ترك دار (جون دارلينغ) مصر • عين في اوروبا ولم يكن «مقيم» جديد قد عين بعد مكانه فـــي القاهرة • لكنه كان في مصر عميل اسرائيلي فعال جدا : ماكس بينت ، قائد سلاح الجو ، وأحد ابطال الآمان • ولعله كان واحدا من أنبغ العملاء الذين خرجوا من صفوف الاسرائيليين • انتحر في سجنه في القاهرة •

ولد (بينت) في كولونيا من أب يهودي وأم مسيحية • «صعـد» أبواه الى فلسطين حين تسلم هتلـر السلطة • بعد دراسة الهندســـة الكهربائية ، تطوع ماكس الفتى في الهاغانا • وكان غداة حرب الاستقلال واحدا من أوائل طياري المطاردة في جيش «داوود» الحديث • وبعدئذ دخل في الاستخبارات ، كما يدخل المرء في دين • له هيئة آرية تماما • يتكلم الانكليزية والالمانية بطلاقة تامة • وفي ١٩٥١ عمل في المانيا مـع دارلينغ • ادار فيما بعد شبكة اسرائيلية في العراق تحت غطاء وكالـــة تجارية بريطانية ، فتحت مخازن لها في اكثر من عشرين مدينة عراقية ،

يديرها مركزها الرئيسي في بغداد (١) • وصل الى مصر في ١٩٥٢ ، «غطاؤه» ممثل بريطاني لشركة تعد ادوات لمساعدة المقعدين • بتلك الصفة اتصل بالجنرال نجيب ، الذي كان ما يزال في الحكم ، وهو الذي كان مهتما كثيرا بحالة الجنود المصريين والمقعدين اثناء حرب ١٩٤٨ • نجيب وبينت اصبحا صديقين واحيانا شوهد «الانكليزي» يذهب لتمضية السهرة عند الجنرال الحليم الذي يدخن الغليون • يبدو فيما بعد ان ناصر فكر في ان يروي خلال محاكمة عامة علاقات نجيب مع عميل اسرائيلي • ومن المحتمل انه عدل امام ضخامة الفضيحة (٢) •

ان معلومات (بينت) المنقولة الى تل ابيب بواسطة اذاعة لاسلكية صغيرة ، مخبأة في كتاب ، كشفت عن مستوى ذي قيمة معتبرة فيما يتعلق بحالة الجيش المصري ، وهو كذلك كان اول من تبين الصعود المحتم للبكباشي جمال عبد الناصر •

بينت غاضب لعمله مع «هواة» «الفرقة ١٣١» ، الا انه يخضع للنظام • اطاع اذن ، ولكنه ، وهو العميل المحترف، تحاشى بعناية الالتقاء بأعضاء الشبكة • وكان اتصاله الوحيد ضابط الاتصال فيكتورين نينو ، المسماة مارسيل : الا انه سيرتكب غفلة واحدة : الذهاب مرة الى موعد اللقاء بالسيارة مباشرة • ستدلي «مارسيل» تحت التعذيب ببعض تفاصيل الى الشرطة المصرية تسمح لها بالوصول الى صاحب السيارة •

واما الرجل الذي اختاره (بن تزور) ليشرف مباشرة على عمليات التخريب فهو ضابط سابق في البالماخ خدم مثله في فرقة هاريل واسمه :

---

(١) هذا الاعتراف يبين بوضوح ان سبب «محنة» اليهود في العراق خلال الخمسينيات هو ان الصهاينة قد حولوهم جميعا الى طابور خامس. وهذا الاعتراف يفضح الاحتجاج الصوري الذي اراد الكاتب ان يسوقه قبل صفحات ، ضد عمليات التصفية .

(٢) يلاحظ القارىء معنا عملية تزوير الافكار عندما يتساءل كيف استطاع المؤلف ان يزعم لنفسه انه تسلل الى افكار الرئيس ناصر .

«افني» وهو «الرجل الثالث» الشهير في قضية لافون ، الذي سيقضي خمس عشرة سنة في السجون الاسرائيلية قبل ان يخلى سبيله في عام١٩٦٩ . عرفه المصريون تحت اسم مكتوب في جواز سفره البريطاني: بول فرانك .

هذا الاسم هو الى اليوم سر دولة اسرائيل : (افني فايزنفلد) . سيحاكم فيما بعد في بلده «بتهمة احتياز غير مشروع لوثائق سرية» . وسيتهم بتسليم بعض الرفاق في شبكته . وكان عمره ٣٢ سنة في تلك الفترة . عسكري عامل سابقا وكان عميلا في الاستخبارات في الجمهورية الاتحادية الالمانية ، حيث اهتم عن قرب شديد بمساعي المصريين لتجنيد العلماء النازيين السابقين .

التقى في ١٠ حزيران في باريس بموكه بن تزور الذي كان قد وصلها برفقة امرأته . اشتركا في عدة جلسات عمل في فندق في العاصمة الفرنسية قرب (التيولوري) ، وسيؤكد أفني فيما بعد بأنه تلقى الأمر القاطع في ٢٨ حزيران بالشروع في العمل . يستقر في القاهرة حيث يتلقى معلومات بواسطة «برامج ربات البيوت» المذاع من الاذاعة الاسرائيلية . والأهداف التي كانت تعين له في الشيفرة تحمل اسماء الخضار والتوابل ، وذلك ما يجعل المسؤولين عن تلك البرامج يتلقون رسائل كثيرة وحانقة ، فان العديد من ربات البيوت اللواتي طبعن الوصفات المذاعة وصلن الى نتائج غريبة ومتفجرة . خلال المناقشات الكبرى التي اعقبت اكتشاف «القضية» ، لم يتوفق احد البتة في تحديد التاريخ الذي حدد فعلا لاعطاء «الضوء الأخضر» ولم يعرف من اصدر الأمر بذلك . ولكن اعتبارا من ٢ تموز شرع أفني فايزنفلد في العمل او على الأقل حاول اول تجربة . اجتمع عضوان من الشبكة («هنري»

و«بيير») في بيت رقم ١٠٧ في شارع المستشفى الحكومي رقم ١٨ في الاسكندرية ، يستخدمونه كمكان للألتقاء . وبحضور أفني ، اعدا ثلاث قنابل بطريقة يدوية مستخدمين مواد الميناء : مانغانيـز وألمينيوم ، بارود اسود وحامض ، وضعت «الأدوات» في علب لحفظ النظارات ، المشتراة من مخزن السيد مارون حايك ، الذي سيتعرف فيما بعد على بعـض المشتركين في المؤامرة .

ما ان انتهى «التحضير» حتى ذهب الرجلان الى المحطة الرئيسيـة في الاسكندرية، وضعا تلك العلب بعد ان غلفت كما يجب والتصقت عليها الطوابع البريدية اللازمة ، في صناديق رسائل المطبوعات ، والطـرود الصغيرة ، والبريد الجوي . وعند الساعة الحادية عشرة واربعين ، يسود ساحة اسماعيل حركتها المعهودة عند منتصف النهار . ما ان انقضت عشرة دقائق حتى تصاعدت شلالات دخان من علبتين اثر انفجارين صغيرين ، وراح «الشاويش» (اكثر من واحد) بقبعاتهم السوداء يدورون مذعورين، رافعين عصيهم . افضت التجربة الى نتيجة حاسمـة ، وكانت دروس اسرائيل الملقنة في يافا ، دروسا مفيدة .

في ١٤ تموز ، في اليوم نفسه الذي اعلن الناطـق بلسان البيت الابيض في واشنطن فيه تسليم المصفحات القريب للبلدان العربية ، وفي اليوم ايضا الذي اعلن ونستون تشرشـل الجلاء التام الوشيك عـن منطقة القناة ، في ذلك اليوم انتقلت «وحدة ١٣١» الى الأشياء الجدية. ترك هنري وبيئير الاسكندرية واتجها الى القاهرة في قطار الظهر . التقيا عند الساعة السادسة والنصف في مقهى كبير كائن في شارع قصر النيل بـ (روبير) احد اعضاء شبكة القاهرة الذي حملهما في سيارته الخضراء، من طراز بليموث ذات رقم (٥٤٥٣) الى بناية في شارع براشه ، علـى بعد خطوات من ساحة التحرير ومن المركز الثقافي الاميركـي . مضى

(بيئير) باحدى علب النظارات الشهيرة والقاها دون اية صعوبة ، وراء مجموع رفوف الكتب . وكانت الفتيلة موقوتة لتنفجر عند المساء تماما لتلافي مأساة. الحريق سيشب بالفعل في الساعة الحادية والعشرين والنصف. وكانت النار قد اشتعلت ايضا قبل ذلك بدقائق في مكتبة المركز الثقافي في الاسكندرية .

وتقرر القيام بعملية جديدة في ٢٣ تموز . والهدف في هذه المرة هو اشعال النار في عدة صالات سينما في القاهرة والاسكندرية ، وكذلك في مستودع الحقائب في محطة القاهرة المركزية. أكانت تلك مبادرة ذاتية من قبل رؤساء «الوحدة ١٣١» المحليين ام كانت تعليمات جاءت من تل ابيب؟ هذا السؤال لن يجد جوابا ، وقد تكون الفرضية الاولى هي الأقرب الى الاحتمال (١) . «روجيه» و «جاك» جاءا من الاسكندرية ووضعا علبة نظارتهما تحت مقاعدهما في سينما «ريفولي» و«راديو» في القاهرة بينما اودع رفاقهما حقيبة ملفوفة في مستودع الحقائب . في اللحظة نفسها كان على هنري ان ينفذ مهمة في الاسكندرية .

في تلك السهرة من ٢٣ تموز ، عيد ميلاد الانقلاب العسكري على الملك فاروق ، كان الرقيب المهدي في شركة الاسكندرية حرسا امام سينما «راديو» . استرعى انتباهه بغتة ركضا وصراخا . شاب يصيح صيحات الم بينما يتصاعد دخان كثيف من جيوب سرواله . اسرع الرقيب المهدي لينجده وحاول اخماد الحريق .

الح على الشاب ليقوده الى المستشفى، لكن ذهنه كان منشغلا بعلبة

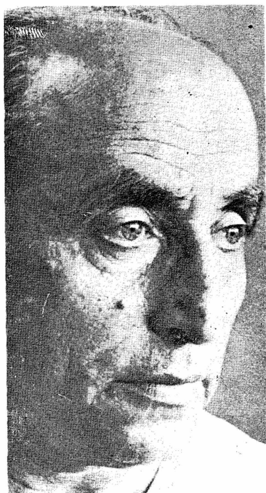
---

(١) يلاحظ ان الكاتب يعمد هنا الى الايحاء بأن عمليات التخريب الكبرى التي كانت ستتناول دور السينما وسوق الخضار لم يخطط لها المسؤولون في تل ابيب، وانما كانت عبارة عن مبادرات من قبل العملاء المنفذين . كيف ينجح هذا التعليل مع كل ما اسبغ من الدقة والتنظيم على عمل المخابرات الاسرائيلية. وكيف يمكن للمؤلف بعد هذا ان يصر على اخلاقية المخابرات الاسرائيلية ونزاهتها عندما تتناول التجمعات العامة للمواطنين العزل في دور السينما مثلا !!



الكولونيل يوفال تيمان الرجل الثاني في المخابرات العسكرية

في الوسط مدير المكتب الثاني (امان) الجنرال هارون ياريف ..



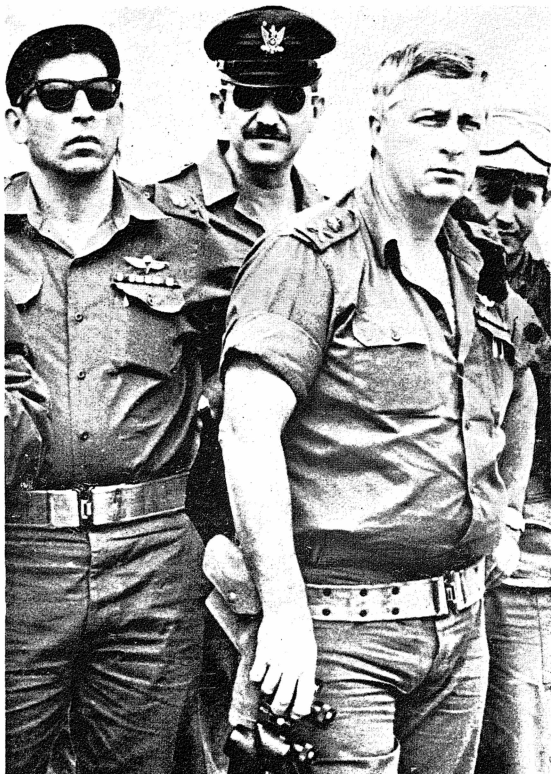


اثنان من رجال المخابرات السرية الاسرائيلية .

الاول : ـ ايسار هاريل

الثاني : ـ مايير عميت

وهذه هي المرة الاولى التي تنشر فيها صور هذين الرجلين..



ثلاثة رجال اسرائيليون مهمون : الى اليسار الجنرال رحايام
زيني الملقب بغاندي . في الوسط الجنرال وايزمان – الى اليمين
الجنرال اريال شارون الملقب بعريق .



يوفال هيمان ـ في مكتبه كعميد لكلية العلوم في تل ابيب

النظارات المزودة بقوة عجيبة • ابلغ الحادث رؤساءه الذيـــن تحركوا بسرعة • وقع الاعتراف : «اسمي فيليب ناتاسون ••» لم تمض بضـع ساعات حتى كان أغلب اعضاء «الوحدة ١٣١» قيد الاعتقال • في منزل فيكتورين نينو وجد رجل فسحة من الزمن ليشنق نفسه في غرفة الحمام بحبل الغسيل • ماكس بينت أوقف وأدخل السجن ، وبعد زمن سيقطع شرايينه • افني فايزنفلد اوقف مدة ٤٨ ساعة ثم اطلق سراحه • سيؤكد فيما بعد انه نجح فــي اقناع رجال المخابرات المصرية ببراءته، وسيلتجيء الى المانيا •

سيكون مصير الدكتور مرزوق وشموئيل عازار افجع • رغم جميع المداخلات الدولية ، وبصورة خاصة وساطة السفارة الفرنسية لصالــح مرزوق ، المشمول بالرعاية الفرنسية (يهودي تونسي) ، ستعلق مشنقــة الرجلين في السجن المركزي في القاهرة • وقبل ان يقايض دجاجة محمرة لقاء شفرة حلاقة مع احد المجرمين الموقوفين تمكن ماكس بينت من ان يوصل الى جوان امرأته الرسالة التالية :

« حبيبتي •

لا امل لي في اطلاق سراحي • سيكون الحكم على الارجح خمس عشرة سنة على الاقل • لن استطيع تحمل هذا السجن جسميا ونفسيا • انصحك ان تتزوجي ثانية في اسرع وقت ممكن بعد موتي ، وان تعطي ولدنا الأب الذي هو بحاجة اليه • ارجو ان تكون حياتك مع زوجـك الجديد شبيهة بالحياة التي عشناها معا • اطلب اليك ان تزرعي شجـرة في حديقتنا بمناسبة عيد ميلادي• آمل ان تستمر علاقاتك باسرتنا الكبيرة (الجيش) كما كانت في الماضي •

زوجك الذي يحبك : ماكس » •

ما كان على (ماكس بينت) ان يبقى خمس عشرة سنة في سجون القاهرة انما اربعة عشرة ، فان جميع اعضاء «الوحدة ١٣١» المحكوم عليهم بأشد الاحكام ، قد اطلق سراحهم بعد مضي بضعة اشهر على حرب الايام الستة ، في اطارتبادل اسرى الحرب الذي نظمه الصليب الاحمر.

كان الاسرائيليون يحتفظون بأكثر من خمسة آلاف جندي مصري، والمصريون لم يأسروا سوى اربعة طيارين وخمسة رجال ضفادع . كانوا يريدون تنظيم «المبادلة» على هذا الاساس . اجابت تل ابيب : " اعيدوا لنا ايضا «مارسيل» ورفاقها ، وكذلك ولفغانغ لوتس (لوتس هو احد العملاء الاسرائيليين ، اوقف فيما بعد في القاهرة) .

وفي النهاية كانت كفة الاسرائيليين الراجحة ، وتم تبادل الاسرى، المعلن رسميا «تسعة مقابل خمسة آلاف» ، وكان في الواقع «خمسة آلاف مقابل تسعة مضاف اليهم عدد مجهول» . فلم ينس الميمونة الاولاد الضائعين ، هواة «الوحدة ١٣١» ، الذين القوا بانفسهم في مغامرة تتجاوز امكانياتهم والذين تسببوا في اثارة الفضيحة . والفضيحة كانت على القد .. بل كانت «القضية القذرة» .

الفضيحة تنفجر كبعض القنابل : متأخرة التوقيت . أخطر رئيس الوزراء ، موشيه شاريت ، في ٢٨ تموز فقط ، بواسطة برقيات وكالة مصدرها القاهرة . استدعى في الحال ايسير هاريل ، رئيس الموساد ، الذي اعترف له ، لخزيه العميق ، بجهله للموضوع . سيروي هاريل فيما بعد امام لجنة تحقيق باشراف رئيس المحكمة العليا السيد اولشان انه التقى في اليوم نفسه بالكولونيل بنجامان غبلي ، رئيس الآمان . ان هذا الاخير كشف له الخطوط العريضة للعملية . لكنه اكد انه لم يصدر أمرا في الشروع بالعمل، وألقى بالمسؤولية كلها على عاتق «الرجل الثالث» (افني فايزنفيلد) . بقيت التفاصيل جزئية الى ٤ تشرين الثاني ، التاريخ

الذي عقد فيه السيد زكريا محي الدين ، وزير الداخلية المصرية (ورئيس وزراء مستقيل في ١٩٦٥) مؤتمره الصحفي .

تهافتت الصحف الاسرائيلية علـــى تلك الاكتشافات وبلغ الانفعال ذروته في البلد . صمت رسمي في القدس . رجال الموساد يجوبـــون اوروبا سعيا للعثور على «افني» الذي اطلق سراحه المصريون بشكـــل غامض غداة توقيفه ، والذي ارسل بشهامـــة رسالة الى مستخدميـــه القدامى يصرح فيها انه تعب من الحرب السرية ويعلن عن عزمه علـــى تكريس وقته للتجارة . وازدادت الشبهة في أمره عندما عثر رجـــال الشاباخ وقتئذ ، بقيادة (أموس مانور) في منزله الاسرائيلي على وثائـــق سرية ما كان لها ان تخرج من خزائن الاستخبارات المركزية. عنصر اخير مثقل : فيكتور ليفي من اعماق سجنه ، تمكن من اخطار احد رفاقـــه مستخدما حبرا سريا (عصير البصل) في الكتابة بين أسطر كلمة تافهـــة ارسلها له .

اخبره انه حينما أوقف في أحد شوارع الاسكندرية كان على موعد مع افني . ووقع على رجال الشرطة السرية المصرية .

كانت القرائن اذن ثقيلة ، وتوصل رجال الموساد ، الذين عثروا على افني بعد تفتيش طويل ، الى «اقناعه» بان مـــن مصلحته العودة الـــى اسرائيل . تبعا للضمانات التي قدمت له سيحاكم فحسب من اجل «حوزة غير مشروعة لوثائق سرية» . لكن اثناء التحقيق انهار «الرجل الثالث» وأقر . قال : «هذه هي الحقيقة ليس فقط فيما يتعلق بوثائق لها اهمية ثانوية . الحقيقة عن القضية» . صراحته منحته اسبابا مخففة ، ولكنهـــا صراحة لا جدوى منها تقريبا . موتكه بن تزور ، انتابته الندامة علـــى الارجح ، فذهب وقص كل شيء على مدام غولدا ماير ، «جدة اسرائيل» وهي عضو متنفذ في الماباي .

ومع ذلك لم تسوّ الازمة . عندما عاد بن غوريون الى السلطة بعد خمسة اعوام وشغل من جديد منصبي رئيس الوزراء ووزير الدفاع ، اتهم لافون «بانه سعى «لتغطية» غبلي» . رد لافون متهما بن غوريون انه يتابع ضده ثأرا شخصيا . اصبحت قضية لافون قضية دريفوس للجمهورية «الفتية الديمقراطية الاسرائيلية» ، وانقسم البلد الى : مع لافون وضده . وتتالت لجان التحقيق ، المدنية والعسكرية ، برئاسة أعلى الرجال مقاما . ذهب كل ذلك عبثا . ركب بن غوريون رأسه وطالب بان يُعهد بالقضية الى قضاء مدني يختار بين امرين : اما الحكم على لافون في قضية تزوير ، واما الحكم عليه في قضية تشهير. وخلال صيف ١٩٦٣ دُفع «اسد اسرائيل الهرم» الى تقاعد نهائي من قبل السكرتيرية العامة لحزبه ، بعد ان اشتد حرجها من حقد بن غوريون على الشقي بينحاس لافون الذي بدأ يتخذ صورة شهيد . عاد بن غوريون هذه المرة بصورة قاطعة على ما يبدو الى كيبوتز (سد بوكر) . تغلبت «القضية القذرة» عليه وخلفه ليفي اشكول .

ولسوف تكون دروس قضية لافون ، الاليمة على المستوى السياسي ، مفيدة مع ذلك في بعض المجالات . فان ادوات الاستخبارات المتعددة والتابعة لوزارة الدفاع ستلحق بالآمان ، وسلطات الميمونة ستتعزز اذ ستكون على رأس «لجنة تنسيق اداراتي الامن والاستعلام» . وبذلك تكون النهاية الحزينة «لوحدة ١٣١» قد خدمت شيئا ما ..

٤ شباط ١٩٦٨ : نزل رجل وامرأة شقراوان في اثينا من طائرة البوينغ اللوفتهانزا التي تؤمن الرحلة بين القاهرة وبين مونيخ . انها وقفة بسيطة وبقيت امتعتهما بالطبع في الطائرة . لكنهما على ميدان هبوط الطائرات واقلاعها في العاصمة اليونانية يتجهان بهدوء الى طائرة بوينغ اخرى بلوني الازرق والابيض لشركة (العال) . بعد ساعتين سيصلان الى مطار اللد حيث تنتظرهما سيارة عند درج نزول الركاب للطائرة . حفلة استقبال نظمت لهما في مكان ما في شمالي تل ابيب ، في المركز الرئيسي للموساد . جميع رؤساء مصالح الاستخبارات الاسرائيلية حضروا الاحتفال بناء على طلب الميمونة الملح ، وكذلك كان بين الحاضرين رجل لم يلتق به ابدا «لفغانغ لوتس» المسافر بلا حقائب، في القاهرة : وهو يوسف بن غال . وذلك بالرغم من انهما كانا ، أحدهما في الجمهورية العربية المتحدة ، والآخر في اوربا ، الممثلين الرئيسيين في الصراع الذي شنه الاسرائيليون ضد العلماء الالمان الذين يشتغلون لحساب القاهرة في الفترة التي بدا فيها انه من المحتمل ان تستطيع مصر صنع اسلحة ابادة جماعية بسرعة .

اطلقت اشارة الخطر الأكبر في ٢٣ تموز ١٩٦٢ ، اثر ظهور علني ،

خلال عرض عسكري لمناسبة الاحتفال الثامن على سقـــوط فاروق ، لصاروخين : القاهر والظافر • ومداهما يتراوح بين ٥٠٠ و٣٠٠ كيلومتر• انهما يمثلان تهديدا جديا لاسرائيل • ولقد وعد الخطبـــاء الذين تحدثوا الى الجماهير في ذلك العيد بأن صواريخ اخرى «اشد وافتك» ستتمكن قريبا من تحطيم قواعد الصهيونية في فلسطين المحتلة • لم يكن كل ذلك طبعا بمفاجأة بالنسبة الى الميمونة ايسير هاريل • فقد عرف رجال الموساد منذ زمن طويل ان المصريين قد اقاموا مصنع صواريخ في شمالي حلوان، وانهم قد جندوا العديد من العلماء والتقنيين الألمان ، الذين كان البعـض منهـــم قد عمل في فريق الدكتور فرنز فون براون فـــي بينومونـــد وكان بعض هؤلاء الرجال قد وصل الى مصر قبل انقلاب الضباط الاحرار، في عهد فاروق ، غداة الحرب العالمية الثانية ، واعتبرت القاهرة كملجـأ امين للعديد من النازيين القدامى ومجرمي الحرب •

ولقد وصل الاستاذ (بول غوركه) الخبير في الالكترون الى القاهرة في عام ١٩٥٢ • وعكف على دراسات أولية ضروريـة لانشاء مصنـــع صواريخ ، برفقة الاستاذ (رولف أنجل) • تسارعت الاحداث اعتبارا من عام ١٩٦١ • خلال ذلك العام أرسيت قواعد ، في شمال القاهرة ، لمصنع «٣٣٣» للصواريخ الشهير الذي سيصبح هدف اجهزة الاستخبارات في العالم اجمع ، وسبب الكابوس الجاثم على صدر القادة الاسرائيليين •

ان العميل الاكبر المجند في فريق «الادمغة» في مصر ، سيكـــون هو الدكتـــور (فرديناند برادنـــر) الـــذي خدم في الــ S. S. برتبة عالية • توجه الى معهد شتوتغارد ، المتخصص فـــي بحث دفـــع الصواريخ حيث يعمل عدة مئات من الخبراء الالمان ، وقد جعلهم النقص الدائم للمخصصات حانقين ، وكذلك من جراء تشريع الحلفاء الذي يحظر على الجمهورية الفيديرالية الالمانية ان تعكف على اعمال البحث في بعض المجالات العسكرية ، وبصورة خاصة في مجال الذرة والصواريخ •

برادنر الذي يستطيع استخدام حجج الاجـــور والفائدة «المهنية» يستميل اشخاصا نخبة ، ومنهم خاصة (وولفغانغ بيلز) ، هذا العالـــم الالماني الذي « استعاره » الفرنسيون غداة الحرب ، وهــو أب صاروخ (فيرونيك) الذي سيتولد عنه جميع الصواريخ «التـــي هي من النوع الهجومي» • عناصر اخرى ذات قيمة : (هنز كلاينفاختر) اخصائي فــي مجال الدفع الصاروخي ، و(أوجين زاينجر) ، خبـــير في الصواريخ ، وامرأته ايرين، المعاونة المباشرة السابقة لفون براون في مشروع (ف٢) • وكان اقرب الضباط المجندين لمساعدة (برادنر) هو (هانز كروغ) الــذي كان يتنقل باستمرار بين مصر والمانيا • وبناء على طلبه ولتسهيل ســـير الادارة انشأ زاينجر وغوركيه وبيلز شركة اترا، هدفها الاساسي الحصول من اوروبا على بعض المواد الضرورية لانشاء الصواريخ •

جميع تلك المعلومات تقاطرت بسرعة على مكتب الميمونة ، ووضع معهد شتوتغارد تحت المراقبة الشديدة • وفجأة طرأ حادث غير متوقع : فيزيائي نمساوي هو الدكتور (اوتو يوكلك) ، الذي تعاقد معه هنـــز كروغ ، يتصل باسرائيليين من تلقاء ذاته، ويعلن انه «مدفوعا من ضميره» ويؤكد لمحدثيه ان الجمهورية العربية المتحدة تهيء بالفعل حرب ابـــادة جماعية حقيقية • ذلك ان الصواريخ الشهيرة حسب معلوماتـــه ليست موجهة لحمل متفجرات تقليدية وذلك ما يجعلها قنبلــة فظيعة ، انمـــا مستحضرات ميكروبية واشعاعية قذرة ، وخاصــة كوبالت (١) • قدرت

(١) هذا التهويل الصبياني الموجه الى القارىء الغربي خاصة ، يريد ان يلقي بروع القارىء ان مصر كانت تنـــوي تدمير اسرائيل بوسائـــل محرمة دوليا : غير ان (نابالم) الصهاينة بعد عام (١٩٦٧) قد كشف ان الصهاينة ، وليس العرب ، هم الذين يحلون لنفسهم استخدام مثل هذه الادوات حتى اصبح احد شعارات الشباب الاوربي المحارب للصهيونية ، فضح استخدام النابالم ضد اطفال العرب ونسائهم .

المسألة انها خطيرة الى حد انتقل معها ايسير هاريل بنفســـه الى اوروبا لمقابلة اوتو يوكليك •

ان «ايسير الصغير» معاد للألمان بوحشية ، واضبارة الموساد عـن مصنع «٣٣٣» ضخمة جدا • ازدادت جدية انذار (يوكليك) عندما هبطت برقية على الموساد تنذر بواقعة مصرية : قام المصريون بعـدة مشتريات من معدن الكوبالت في اوروبا بواسطة شركة استيراد وتصدير فـي زوريخ ، كمياتها تتعدى كثيرا احتياجات الابحاث الطبية المصرية • وأما بالنسبة لرئيس مجلس الوزراء في ذلك العهد ، وهو دافيد بن غوريون، فقد كانت الحالة تبدو معقدة للغاية • فلقد وقع في ١٤ آذار ١٩٦٠ مـع المستشار اديناور في اوتيل (والدورف استوريا) في نيويورك اتفاقا سريا مطلقا لن يكشف عن وجوده الا فيما بعد من قبل الصحافة الاميركية ، وهو ذو اهمية رئيسية بالنسبة لدولة اسرائيل، تعهدت بموجبه الجمهورية الاتحادية بفتح قرض سنوي بمبلغ خمسين مليون دولار للدولة العبرية • هذا الاتفاق الاقتصادي مبطن باتفاق عسكري أشد سرية موقع من قبل السيدين فرانز جوزيف شتراوس ، الوزير الالماني الغربـــي للدفاع ، وشيمون بيريز ، المدير العام للدفـــاع الاسرائيلي ، تعهدت بموجبــه الجمهورية الاتحادية الالمانية ان تسلم اسرائيل طائرات (فوغاماجيستير) ، الفرنسية الاصل ، التي اخذت الرخصة لصنعها ، هليكوبترات وسيارات نقل (نورد ــ أطلس) ودبابات اميركية من نوع (باتون) التي يحتاجهـــا الجيش الاسرائيلي اشد الحاجة• تلك الدبابات باتون نفسها التي ستشكل قوة الضرب الاسرائيلية الحقيقية في سيناء اثناء حرب الايام الستة ••

هذا الاتفاق العسكري ، الذي ما يزال الى اليوم غير معـــروف كلية ، واسع جدا • وقد ارسل بموجبه ضباط اسرائيليون للتمرين فـي كليات الآليات والدفاع العسكري • في (كارلروه) خاصــــة وقد تخرج

المتمرنون الذين قدموا من تل ابيب أوائل في دورتهم ، متقدمين بذلك على ورثة رومل وغودريان • لكن الجنرال مدير المدرسة علق وسام «بانزر» على بزات غفلة (١) • لم تطلب المانيا اديناور اي تعويض مالي او سياسي • كانت بالفعل عطية تكفيرية عظيمة النفع على اسرائيل ، لكن يجب ان يبقى سرها مصونا لمصلحة الطرفين •

وضع بن غوريون اذن في موقف حرج عندما قدم الميمونة له براهين قاطعة عن تعاون عديد من العلماء الالمان مع المصريين • وزاد تعقيد الوضع كون قسم عظيم من السكان الاسرائيليين معادين للألمان بشراسة • ثارت ثائرة حزب اقصى اليمين الكبير حيروت ، ولم تشاطر وزيرة خارجية بن غوريون غولدا ماير قناعته كل المشاطرة بأن «المانيا اليوم هي غيرها بالأمس » •

جرت المناقشة في مجلس الوزراء بحضور عديد من الخبراء وكانت حامية الوطيس • ايسير هاريل وغولدا ماير هما نصيرا عمل مباشر ، عنيف جدا • شيمون بيرس الذي فكر قبل كل شيء بمصفحاته ، وخشي كثيرا من ردود فعل يمكن ان تثيرها في الرأي العام الالماني «اية عملية» شرسة ضد العلماء ، هو نصير الانتظار • سانده في موقفه ذاك رجال الآمان (مصلحة استخبارات الجيش) الذين تكلموا بلغة التقنية • اكدوا ان الخطر لن يكون في القريب العاجل ، وان صاروخا بلا نظام دفع فعال لا يمثل اي خطر • وبحسب معلوماتهم يعاني المصريون وخبراؤهم الالمان اكبر المصاعب في تحقيق نظام توجيه للصواريخ •

ثمة اذن حظ من اثنين من تلك الشروط ان تعود تلك الصواريخ الشهيرة بعد انطلاقها وتسقط على رأس اصحابها • وبرأي رجال الآمان،

(١) اي بقيت أسماء أصحابها سرية .

فقد حدثت تلك الحالة في عدة مناسبات • حسم بن غوريون الموقف • انه حكم سلومون : يجب على الموساد أن يقوم بعمل احباط عن قصد وقصاص ، ولكن لكي يكون هذا العمل «معتدلا» ، يجب ان يصاحبه من ناحية اخرى حملة موجهة لتشرح للرأي العام الالماني والدولي جسامة الخطر • اعطى ايسير الصغير نوعا من الضوء متواتر الطرف • سيحوله الى ضوء اخضر ••

في ١١ ايلول ١٩٦٢ ، هانز كروغ ، اللولب المحرك الالماني لخدمة مصر ، اختفى • امضى سهرة العشية مع (كلاينفاختر) ومع رجل سري مصري لم تعرف شخصيته ، وجدت سيارته في صبيحة (١١) قريبا من منزله الالماني في ضاحية ميونيخ • ستؤكد امرأته ان اسرائيليين قد اختطفوه ، لكن الشرطة الالمانية لن تعثر على اي دليل • اختفى هانز كروغ دون ان يترك اي اثر ••

في ٢٠ شباط ١٩٦٣ جاء دور كلاينفاختر • بالرغم من انه اصبح شديد الحذر منذ اختطاف صديقه ويتخذ الكثير من الاحتياطات • في ذلك اليوم ترك مخبره في لويراخ ، بقرب الحدود السويسرية راكبا سيارته متوجها الى منزله، قطعت سيارة مرسيديس سوداء عليه الطريق• القى بنفسه على ارض السيارة واخرج مسدسه • ولعل حذره ذاك قد انقذ حياته : افرغ مجهول شحنة خراطيش من خلال الزجاج المغلق • بعد زمن قصير وجدت الشرطة سيارة المهاجم ، سيارة مسروقة طبعا • انها فارغة لكن المحققين يعثرون في علبة الكفوف على ثلاث بطاقات وكانت !حداها باسم علي سمير • بعد التحقيق يظهر ان هذا الاسم هو اسم رئيس المخابرات المصرية • رجال الموساد يمزحون مزاحا قاتما •

كان لهذا العمل المدبر في المانيا امتداد بالتأكيد من القاهرة • في ٢٧ تشرين الثاني وصلت رسالة مضمونة ، عليها طابع بريد هامبورج

الى الاستاذ بيلز ، المساعد السابق للمركز الوطني للابحاث وابحاث الملاحة الجوية الفرنسية • سكرتيرة العالم الانسة هانولون فندا فضت الغلاف فكان انفجار اللهب غاية في العنف• شوهت هانولور فندا تشويها كاملا، وفقدت حاسة البصر كلية •

وفي ٢٨ تشرين الثاني ، رغم ان مصالح الأمن المصريـــة اعطت التعليمات الدقيقة جدا بالحذر ، وصل طرد كبير من الكتب العلميـــة ومطبوعات الاختصاص الى مصنع «٣٣٣» آتيا من هامبورغ • موظـف ادارة يقص الخيط : خمسة اموات وعشرات الجرحى • فـي يوم ٢٩ ، تمكن الخبراء المصريون من تعطيل جهاز في طرد حديث يحتوي علـــى ٢،٥ كغ من المتفجرات •

اندلعت قضية هيدي غوركه في ٢ آذار ١٩٦٣ • فقد اتصل مجهول بالفتاة في منزلها في فريبورغ في نهاية شهر شباط ليطلب اليها موافاتـه في فندق «الملوك الثلاثة» في بال • ابلغت هيدي الشرطة الالمانية ، رغم «نصائح» مخاطبها ، التي اخطرت بدورها الشرطة السويسرية باعتبار ان اللقاء سيجري في الطرف الاخر من الحدود • السلطات السويسرية لا تتحمل هذا الضرب من المزاح • وضع ميكرو في اناء زهر على الطاولة في بهو الفندق حيث سيتم اللقاء بين هيدي وأخيها الأصغر من طـــرف وبين رجلين يضعان نظارتين سوداوين من طرف آخـــر • كان فحوى المحادثة التي دامت ساعة ونصف واضحا جدا : «اقنعي والدك بترك مصر ان كانت سلامته تهمك» •

ما ان خرج الرجلان من الفندق حتى بدأت ملاحقة عملاء مكافحـة الجاسوسية السويسريين لهما • القي القبض عليهما في مساء اليوم نفسه في زوريخ ، احدهما عندما كان على وشـك الدخول الى القنصليـــة الاسرائيلية ، والآخر بجوار المحطة • ستبدأ محاكمتهما في ١٠ حزيـران

امام محكمة بال ، بحضور الميمونة ايسير هاريل الذي لا يكل ، والذي تمسك بحضوره شخصيا جميع الجلسات ، رغم المخاطـرة التي يتعرض لها • وصل على الطائرة نفسها التي اقلت المستشار القضائي في مصالح الاستخبارات الاسرائيلية الاستاذ غابرييل باخ الملقب «غابي» الذي هـو اليوم المدعي العام لدولة اسرائيل • ستة اعوام بعد ذلك الحين سيحضـر «غابي» محاكمة اخرى في سويسرا : محاكمة موظف الأمن الاسرائيلـي مورداخاي رحامين ، الذي حوكم لقتله احد افراد فدائيي الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي هاجم بالقنابل والرشاشات مع ثلاثة من رفاقه طائرة بوينغ تابعة لشركة العال •

المتهم الرئيسي في محاكمة بال هو الرجل الذي هدد اسرة غوركه: يوسف بن غال • لن يظهر ابدا حاسر الوجه اثناء الجلسات ويدخل القاعة في كل مرة وقبعته مخفية عينيه لا يرفعها عن رأسه الا بعد ان يجلس امام قوس المحكمة • خلال جميع الجلسات سيحتل الصفوف الاولى المخصصة للجمهور رعايا اسرائيليون ، بعد تجمعهم امام قصر العدل قبل افتتـــاح الابواب ليبعدوا المضايقين • اشترك يوسف بن غال في عمليات اخـرى للموساد في اوروبا ولم يشتبه في اشتراكه فيها ، لذلك كان يجب قـدر الامكان منع كشف هويته •

وكانت هذه المحاكمة بدء حملة دعائية اسرائيلية كبـيرة امام الرأي العام الدولي • قرأ الاستاذ برونشفيك ، محامي بن غال (وسيكون ايضا محامي رحامين) عدة وثائق مصرية الاصل تثبت ان القاهرة تحضر بنشاط اسلحة ابادة جماعية بالتعاون مع علماء المان • تركت شهادة (يوكلك) وقعا مؤثرا على المحكمة : روى اتصالاته بمبعوثي القاهرة واكد على ان الشك لا يمكن ان يتطرق الى حقيقة الغاية من مصنع «٣٣٣» • أثر كل ذلـك في القضاة السويسريين تأثيرا جعلهم يطلقون سراح المتهمين ، رغم انهمـا

ادينا بجريمة التهديد تجاه اسرة غوركه ، وانهما اعترفا بذلك • ترك بن غال قاعة المحكمة بخفية كما كان يدخلها كل صباح : رجل يشبهه كثيرا خرج من قصر العدل من باب صغير مخبئا وجهه • بن غال الحقيقي سينفى بعد زمن بينما يكون المصورون يلتقطون صورا لشبيهه (١) •

كان الانفعال شديدا في العالم وتلقى السيد بن غوريون التأكيد الشخصي من المستشار اديناور بأن الحكومة الالمانية ستتدخل مباشرة لتمنع رحيل العلماء الالمان الى مصر • اصدر بن غوريون الأمر الى الميمونة كي يضع حدا لاعمال العنف ، وأخذ عليه بشدة ، في تلك المناسبة كونه ذهب أبعد مما رسمته مقررات اللجنة المصغرة • ذلك ما وضع حدا نهائيا لصداقة سبق أن زعزعتها قضية اسرائيل بيير • ايسير الصغير الغاضب أكد ان التهديد ما زال خطيرا • ولكي يعبر عن اختلاف وجهة نظره ، قدم استقالته ، مؤملا ان يرفضها بن غوريون • لكن وصول الشحنة الاولى من دبابات الباتون الى حيفا من هامبورغ اصبح وشيكا، وبن غوريون لن يتراجع •

«كوكب» آخر في المسرح الاسرائيلي السياسي يرد بعنف : تلك هي السيدة غولدا مایر التي لم تقتنع بأدلة رئيس الوزراء • ولم ينفع أسف رئيس الوزراء الشديد فقد ألقت مایر في ٢٠ آذار امام الكنيست خطابا حماسيا طلبت فيه الى جميع دول العالم ان تظل يقظة وان تعارض بكل قواها كي لا يتمكن الالمان في يوم من المشاركة في مذبحة جماعية للشعب اليهودي • من هنا بدأ شقاق بين اثنين من وحوش اسرائيل المقدسة وأكثرهم اصالة• فحين جرت مضاعفات قضية لافون نتيجة ازمة حادة

---

(١) لم يذكر المؤلف بالطبع أساليب الصهيونية العالمية في الضغط على الحكومة السويسرية التي تجعل المجرمين القرين بجريمتهم يعفى عنهم، في حين يحكم الفدائيون العرب بعد سنوات من قبل محكمة سويسرية بأقسى الأحكام .

بين بن غوريون وبين السكرتارية العامة لحزبه فان غولدا ماير وقفت الى جانب ليفي اشكول لتدفع «بالهرم» الى التقاعد • قضية لافون وقضية العلماء، هذان الفصلان من الحرب الباردة ، سيكون لهما وزن ثقيل في تاريخ اسرائيل •

اذا كان العمل العنيف بمشاهده العلمية قد انتهى في اوروبا غداة محاكمة بال ، فان ذلك ابقى الاسرائيليين متيقظين، وفي حال مراقبة دائمة وقريبة لكل ما يجري داخل مصنع «٣٣٣» حتى وان كان النجاح لا يلوح قريبا جدا في مجال تسيير الصواريخ ، فان عملية مكافحة العلماء الالمان ستستمر لكن باسلوب اعمق وأنعم • فقد قرر الميمونة الجديد الجنرال (ماير أميت) ان يقودها في الداخل ، انطلاقا من الاراضي المصرية • في هذه الآونة يدخل المسرح وول لفغانغ لوتز ، الراكب المستقل لطائرة بوينغ في اثينا •

في ١٩٦٣ كان شخصية معروفة جيدا بين افراد الجالية الالمانية في القاهرة ، ولديه اصدقاء مصريون عديدون ، حتى بين المقامات العليا في السلطة • هذا الالماني ذو الهيئة الآرية والشعر الاشقر المصقول والمفروق وسطه بخط مستقيم هو ضابط سابق في الجيش الهتلري وعداوته الشرسة للسامية موضع تقدير كبير لدى النازيين القدامى في القاهرة • انه يعاشر عدة شخصيات من الاخصائيين السابقين بالمسألة اليهودية في وزارة الدعاية التي كان يديرها غوبلز ، والذين كانوا يخدمون في القسم الاسرائيلي في وزارة الارشاد المصرية تحت اسماء عربية (١) • انه متصل بشكل خاص ، بهانس ابلر

---

(١) هنا يبدو الكذب المفضوح فان بضعة علماء من الالمان قد افادوا بخبرتهم العلمية بعض الدوائر العسكرية المصرية سابقا ، قد اصبحوا باسلوب الصهاينة يؤلفون زمرة من كبار المعادين للسامية وخبراء غوبلز والمخططين لابادة اليهود وهكذا ..!

الذي ينادى باسم صلاح شفار، وبلودفيك هايدن الذي اصبح يدعى الحاج، مؤلف الترجمة العربية لكتاب هتلر «كفاحي» يحيا النصريا سيدي الماجور..) يصرخ هذا بالالمانية كلما استقبل صديقة ولفغانغ . هرلوتز هاوي خيل وفارس ممتاز. انشأ ناديا للخيل بالقرب من الاهرامات يجذب القاهريين. وامرأته فيلترود الضخمة والجميلة هي سيدة بيت ممتازة ، كتومة ومجاملة تحسن استقبال اصدقاء زوجها . التقى في بيت لوتز كثير من الالمان ، سعيدين لعثورهم عند مواطنين لهم على مثل تلك «الراحة والرحابة» . والاخصائيون في الملاحة الجوية الذين يشكلون النواة الاساسية للجالية الجرمانية في العاصمة المصرية يكثرون التردد ، وخاصة براندنير وبيلز ، يزورون أسرة لوتس كثيرا . يلتقون بعسكريين مصريين من أعلى الرتب، الذين يجذبهم جو «النادي» الأنيس . العقيد شمس الدين بدران، رئيس مكتب المشير عبد الحكيم عامر ووزير الدفاع في المستقبل ، قبل ان يقدم الى المحكمة العسكرية ، كان أليف ذلك البيت ويتردد عليه .

ولد ولفغانغ لوتز في عام ١٩٢١ على شاطىء الراين في مانهايم ، حارب اثناء الحرب العالمية الثانية على الجبهة الروسية . غداة اندحار الرايخ وجد هذا الضابط في سلاح الفرسان السابق بعض الصعوبة في تغطية امره ، والنجاح في التبرؤ من ماضيه. اعطى دروسا في الفروسية، تزوج ، واستطاع فيما بعد بفضل ميراث هابط من العناية الالهية الذهاب الى الجمهورية العربية المتحدة المضيفة ، وشراء خيول وفتح ناد للخيل . صادف بسرعة بعض النجاح . لم يكن كل ذلك في ذلك العهد ليثير دهشة احد في القاهرة . عدة آلاف من الالمان ، لهم ماض معكر اكثر او أقل يعيشون على ضفاف النيل ولم يكتشف التحقيق الاعتيادي للاستخبارات المصرية اية ثغرة في تأكيدات السيد لوتز . انه الماني مثل غيره ، ناعم ومتعاطف في نواح عدة : كان عدوا للانكليز وايديولوجيته قريبة من مفاهيم الضباط الأحرار ، وراح النازيون القدماء الذين يشغلون

مناصب مهمة في الادارة المصرية آنذاك والذين سنحت لهم فرص الاتصال بلوتز يجزمون : انه واحد منهم • هو آري أصيل ، وانتسابه ، خـلال الايام الطيبة الى جيش الرايخ العظيم ، امر غير قابل للجدال •

ليس كل ذلك محض كذب في ذلك التاريخ ، لحياة ولفغانغ لوتز• انه ولد بالفعل في عام ١٩٢١ في منهايم • لعب وهو طفل في حدائق قصر الحجر الرملي الاحمر • كان ابوه آريا اصيلا • لكن امه كانت يهودية ، ومنذ عام ١٩٣٢ أحست باقتراب نهاية العالم • هجرهـا زوجها منذ ان ظهرت طلائع القمصان البنية في حيهم• أدركت الخطر الرهيب الذي يهدد الجالية اليهودية في المانيا وتمكنت من الهجرة مع صغيرها ولفغانغ، الطفل الاشقر الذي بدأ رفاقه يشيرون اليه باصبعهم في المدرسة •

لم يجد زيف الصغير (اسمه الجديد في العبرية) وكانت سنه حينئذ الثانية عشرة ، اية صعوبة في التأقلم في ارض الميعاد • بعد نهاية دراسته الثانوية دخل كلية زراعية وحصل على الشهادة بدرجة جيدة • في ١٩٤٨ اثناء حرب «الاستقلال» حارب بشجاعة في وحدة النخبة التي تدافع عن الحدود الشمالية : في كتيبة غولاني • ومنذ ذلك الحين لم يترك زيـف الجيش • استرعى انتباه رؤساء الآمان بسبب شكلـه الآري ، ومعرفته التامة للالمانية وكذلك بسبب ذكائه المنظم • لقد مر بجميع مراحل التقنية العصرية للاستعلام قبل ان يسلم ادارة في اجهزتها •

وفي عـام ١٩٥٩ وقد اصبـح اسمه راف ـ سيرن (مقـدم) أعلـن الميمونة فـي احد الاجتماعـات الدوريـة أن الموسـاد تبحث عـن شخص لتعيينـه مقيمـا جديـدا فـي القاهـرة • والمثل الاعلى بالتأكيد هو العثور على رجل يستطيع ان يتقدم مع حـد اقصى من الشبه كضابط الماني سابق متهم بعدم تخلصـه من نازيته • جن‌نبض لوتس ، فقبل • هذه التغطية كضابط نازي بدت تمارس فتنة قاتمة على الطفل اليهودي الذي كان في مانهايم • خبراء الموساد الذيـن

روجعوا في امر العملية ، اكدوا ان افتتاح ميدان ترويض الخيل شيء ممتاز ، ويسمح ذلك بجذب عدد من الضباط الذين يحنون الى الخيل ، كما يبرر اقامته في مكان امين بعض الشيء ، خارج المدينة .

كان على لوتز ، الذي لم يظهر من قبل ، حتى في الكلية الزراعية، حماسة خاصة تجاه انبل اكتشاف للانسان (الحصان) ، ان يتعلم جميع اسرار ركوب الخيل . وسيكون «معلمه» احد الوجوه اللامعة في تل ابيب : هو الياهو غوردون ، الذي كان يدير في ذلك الوقت مدرسة للفروسية في احد احياء تل ابيب معروف باسم : «الجالية الالمانية» . تحت ادارة الياهو غوردن ، سيصبح راف ـ سيرن لوتز بسرعة ، فارسا ممتازا وعارفا بالخيل ، بفضل تدريب شاق .

وعندما قرر الموساد ان تعليمه اصبح كافيا ارسله «ليتسكع» في برلين . وكان هدفه الاول ان يشكل سجلا عدليا مطابقا لشخصيته الجديدة . لم يكن ذلك بالأمر المعقد اذ ان جميع سجلات الأحوال المدنية لبلدة مانهايم قد أبيدت في ١٩٤٣ اثناء غارات جوية اميركية عنيفة على المدينة .

وبعد مضي ثلاثة اشهر على وصوله الى برلين الغربية تمكن لوتز من ان يسد ثغرة (٢٧) سنة في سجله المدني الجديد ، يلائم الفترة الممتدة ما بين ١٩٣٣ و ١٩٦٠ .

راح يتسكع بعدها كالعديد ممن هم على شاكلته من الذين اجتثت جذورهم في عاصمة الرايخ القديمة ، مجترا حقد المحارب القديم وسط الخرائب، ملتقيا برفاق قدامى في المقاصف الصغيرة ، المظلمة بدخان السجائر ، سعيا وراء كؤوس النشوة والنسيان . وقد وجد عمل مروض خيل ، وهناك تعرف الى (فلترود نومان) ، فتاة طيبة ، خفيفة بعض الشيء ولدت لتفهمه . لاجئة من الجمهورية الديمقراطية الالمانية الاتحادية . ابواها

هما صورة صادقة عن البورجوازيين الصغار الالمان • شارك ابوها في معركة افريقيا كضابط صف • وراح يلذ له ان يعيد ذكرياته على مسمع لوتز ، الضابط القديم في الجبهة الروسية •

كان للزواج مزايا عدة • انه يعطي لمسة حقيقية اخـرى لا جدال فيها ، على شخصية ولفغانغ لوتز ، وامرأة مثل فلترود ستتيح له حتمـــا ان يوثق خلال فترة أسرع صلات مفيدة• سبق له ان تزوج في اسرائيل وهو أب لولدين ، لكن امراته ريفكا ليس لها هيئة «آرية» ، ولا تتكلـــم الالمانية • ثم ان نظام الموساد يمنعها من مرافقة زوجها الى ارض العدو• الميمونة نفسه اذن سيقوم بمسعى دقيق : هل ترضى ريفكا باسم مصلحة الدولة بزواج زوجها من امرأة اجنبية المانية ؟ قبلت امرأة الضابط بحنان ثابت ذلك الزواج • اقيمت حفلة الزواج خلال شهر حزيران في برلين ، في غمرة سعادة الأب نومان المفرط ، الذي تملقه صهره ، وأما فلتـــرود العاشقة للوتز ، فقد اشرقت بالسعادة •

في ٧ كانون الثاني ١٩٦١ ذهب الضابط السابق الى القاهرة كـــي يجري اول اتصالاته بالجالية الالمانية وليستعلم عن امكانية فتـــح ناد لترويض الخيل بما ان ميراثا صغيرا قد آل اليه بفضل العناية الالهية من احد اقربائه البعيدين جدا ، وبفضله يستطيع اخيرا تحقيق حلمه • كـــل شيء سار على ما يرام ورجع لوتز الى برلين متحمسا • اقيمت حفلة سكر رائعة لوداعه لرفاقه •

بعد رحلة خاطفة الى باريس حيث التقى برؤسائـــه في الموساد ، استقر لوتز نهائيا في القاهرة ، ولحقت به بعد فترة فلترود التي اكتشفت وهي مفتونة تلك المدينة الباهرة ، وجالية المانية لطيفة • جلب لوتز معه جهاز راديو للارسال مصغر جدا اخفاه داخل حذاء لركـــوب الخيل • اكتشف ان الآلة ضعيفة القدرة ، فتخلص لوتز منها بأن القى بها فـــي النيل • ارسل مستخدموه له مع امتعة بيته جهازا اقوى اخفوه هذه المرة

داخل ميزان صغير بغرفة الحمام حيث لن يخطر لموظفي الجمارك المصريين الكشف عليه • هذا الجهاز المزود بصارية مقربة سيظهر فيما بعد بين الاشياء الثبوتية التي تقدمها مصلحة مكافحة الجاسوسية المصرية لتدعم الأتهام • لكن في عام ١٩٦٣ في القاهرة من كان يشتبه بأمر الهر اوتز ؟

نجحت الأسرة على المستوى الاجتماعي نجاحا باهرا ، ورجل واحد انتابته بعض الريبة في شأنها : جيرار ب •• ، المقيم في القاهرة لمصلحة استخبارات المانية الغربية • ولقد كان يمثل في مصر وكالة مهمة منتجة لبعض الآلات المنزلية • وهو عميل متمرس حذر • وقد «احس» ببعض الثغرات في حياة ولفغانغ لوتز • لكنه كان بعيدا كل البعد عن الريبة في ان يكون لوتز عميلا اسرائيليا • فأعتقد انه «زميل» عن احد بلدان الحلف الاطلسي وانه اختار الغطاء الالماني ، الأسهل والأقل خطرا •

وطوال تلك الفترة ادى ولفغانغ لوتز اعمالا باهرة وقدم لرؤسائه الكثير من المعلومات الثمينة عن الوضع الاقتصادي والعسكري والسياسي في الجمهورية العربية المتحدة • وحصل على الكثير من تلك المعلومات من النازيين القدامى وأدار شبكة مهمة ، مفصولة بحواجز كلية • وكان بذلك معتمدا كفوءا لا يقوم بأدنى مجازفة ويضاعف الاحتياطات المألوفة ولا يتصل اي اتصال مع اعضاء شبكته •

ستجره قضية العلماء الالمان مع ذلك الى زج نفسه في مخاطرات غير مألوفة • فمنذ وصوله الى القاهرة وجه اهتمامه خاصة الى مصنع «٣٣٣» بيد انه لم يساهم مباشرة في حملة التخويف ضد العلماء الالمان لاسباب بينة • لكن قرار بن غوريون غداة محاكمة بال سيجره الى الخروج قليلا عن حدود دوره •

تلقى في ٢٠ ايلول ١٩٦٣ بواسطة البريد العادي برقية هذا نصها : «شكرا ارسل الاحذية في التاريخ المحدد • بانتظار التثبيت» • ارسلت

تلك الرسالة من فيينا ، واجاب لوتز بشكل طبيعي قدر الامكان من مركز البريد المجاور لمنزله : «سترسل الاحذية اليوم بناء على طلبك» • هاتان البرقيتان وكذلك الميزان ستقدم كأدلة ثبوتية امام المحكمة العسكرية •

بالنسبة للعلماء الالمان الذين كانت الطرود الملفوفة الآتية من همبرغ قد اقضت مضاجعهم ، وآحدها كان قد شوه سكرتيرة بيلز ، فان طلبية الأحذية من صديقهم لوتز ستعني بدء كابوس حقيقي • يعيش جميع اولئك الرجال مع عائلاتهم في حي المعادي على ضفة النيل ، على بعد عشر كيلومترات جنوبي العاصمة المصرية• انهم مراقبون، محميون ، ولا بد من أذن مرور خاص موقع من قبل الأمن العسكري للدخول الى حيهم ، طردوهم ورسائلهم تمر على الاشعة قبل ان تسلم اليهم ، الواحد بعد الآخر • تلقى هؤلاء الرجال الذين يعيشون فيما يشبه الحجر، فجأة رسائل مكتوبة بالالمانية ، مرسلة من القاهرة نفسها ، تدل على معرفة كاملة لنشاطهم ، وأوقاتهم ، وأسرهم • ثمة عدو يقوم داخل الحرم وذلك وضع مثبط للهمم •

تلقى الدكتور جوزيف ايسيغ الكلمة التالية : «انت على القائمة السوداء • اننا نعلم انك عامل نشيط في ابحاث الملاحة الجوية • من اجل امرأتك روث وابنتك انجه وابنك بيتر ننصحك ان تترك مصر وترجع الى المانيا • وبقدر ما تسرع في العودة بقدر ما تجنب اسرتك الفاجعة •

التوقيع : الحراب

في ٢٧ ايلول رغم جميع الاحتياطات المتخذة من قبل المصريين ، انفجرت رسالة ، مع انها كانت قد فحصت على الاشعة ، في وجه الدكتور

كيرماير ، اخصائي آخر في الملاحة الجوية • بعد بضعة ايام ، رسالة اخرى موجهة الى عالم الماني ثالث انفجرت بين يدي مستخدم في بريد المعادي •

تلك الدلائل المتكررة ، وتلك الاعمال الصادرة عن القاهرة نفسها كما يبرهن في كل مرة ختم البريد، دفعت عديدا من الالمان الى الرحيل، مما اثار ضيق المصريين الشديد الذين اصبحوا عاجزين عن التمسك بهم، اذ انهم لم يعودوا قادرين على تأمين سلامتهم • وفي نهاية ايلول ترك ولفغانغ بيلز ، خير اخصائي في الصواريخ ، مصر ، دون فكرة العودة اليها ، تصحبه لينور فندا المسكينة (التي شوه وجهها) •

هبطت حماسة المتقدمين للذهاب الى مصر في المانيا بشكل كبير • فالرسائل التي تلقونها من أصدقائهم أطفأت حرارتها • هؤلاء اليهود هم حقا شياطين اشرار • وفي العاصمة المصرية كان ولفغانغ لوتز واحدا من اشد الناس نقمة ضد «حملة الارهاب الصهيونية» • ومن كان في وسعه ان يتصور ان المتفجرات التي ألقت الذعر في روع اهالي الحي الالماني في المعادي ، كانت مخبأة داخل قطع صابون «ياردلي» جلبها من باريس عميل الموساد خلال رحلته الاخيرة الى اوروبا لشراء سيارة فولسواكن جديدة ؟

سيلقى القبض على لوتز من قبل المصريين في نهاية شباط ١٩٦٥ • في ٢٤ من ذلك الشهر وصل السيد والتر اولبريشت رئيس دولة الجمهورية الديمقراطية الالمانية في زيارة رسمية الى القاهرة ، وشنت الشرطة المصرية قبل وصوله عملية واسعة مألوفة بناء على طلب مصلحة الأمن في المانيا الشرقية • عدد من النازحين القدامى ، الحقيقيين او المفترضين ، أبعدوا عن القاهرة أو وضعوا تحت المراقبة ، لمنعهم من القيام بعملية ضد «لحية التيس» الذي يكرهونه • شملت تلك التدابير

ما يقرب من خمسين شخصا ، بما فيهم جيرار ـ ب •• المقيم في القاهرة لمصلحة استخبارات المانيا الغربية •

اما لوتز فانه تخلص من الشبكة • فقد قدم حمواه قبل ذلك بعشرة ايام الى القاهرة ، وكان طلب نومان الشيخ الى زوج ابنته معروفا : ان يأخذه الى مكان مآثره ، ايام معركة افريقيا وروميل • وسلكت الأسرة جميعها طريق الاسكندرية ومرسي مطروح والعلمين في سيارة الفولسواكن بعد شراء مجارف ليحفروا في الرمال بحثا عن «ذكريات» • عند العودة كانت المصيدة بانتظاره ، يوجد اليوم ثلاثة افتراضات عن ظروف توقيف لوتز • الاول وهو الأسهل : حدث كما حدث لزميله في دمشق ايلي كوهين ، فقد قبض عليه اثر تحديد موجة الارسال التي يبث منها • اذا صح ذلك فيجب الافتراض ان مصلحة مكافحة الجاسوسية المصرية قد جازفت بعدم توقيفه في الحال وتركته يتنقل كسائح قبل ان تضع يدها عليه •

الافتراض الثاني: احد الضباط المصريين كان قدم الى مسكن لوتز قبل بضعة ايام من وصول السيد اولبريشت، ليبلغهم امر تطبيق الاقامة المراقبة على الأسرة • وقد أثار ريبته غياب اصحاب البيت الطويل فتسلل الى داخله ، وقام بعملية تفتيش ، واكتشف في أسفل جارور ذي طبقتين مبلغا كبيرا من الدولارات • فأخطر رؤساءه بذلك ، وحدث تفتيش دقيق اولي ادى الى اكتشاف محطة الارسال في الميزان وقطع الصابون المحشوة بالمتفجرات •

الافتراض الثالث : سلم «لوتز» ببساطة الى المصريين من قبل زميله في الاستخبارات الالمانية الغربية ، لرغبة منه في اطلاق سراحه قبل زيارة السيد اولبريشت ، وأنه اعطى اسم الذي ظن انه «زميله» في الحلف الاطلسي •

سيبرع ولفغانغ لوتز وينجح في اقناع المصريين بأنه ليس سوى سمكة صغيرة • وسيعترف بتفاصيل معقولة ، انه يعمل لحساب الاسرائيليين ، بعد ان جند لصالحهم في برلين • تمسك بقوة كالحديد، بجنسيته الالمانية وديانته البروتستانية ، اذ انه لم يختن (١) •

وأكد انه لعب دورا ثانويا بسيطا • خدمه في اثبات ذلك ذعر والدي فيلترود اللذين اوقفا معه عند نزول الجميع من السيارة • وفقد راحا يعيشان ضربا من كابوس ، وسط استجوابات وميزان مزيف، وقطع صابون ملغومة • خدمه في ذلك ايضا وفاء تلك المرأة الالمانية التي سخر منها بتلك الخفة وقت زواجها • فيلترود التي لم تكن غبية ، ادركت منذ زمن طويل ان نشاطات زوجها الحقيقية ليس لها الا صلات بعيدة مع الخيل • لكنها صمدت وحمت «رجلها» قدر مستطاعها ، اثناء استجوابها•

بدأت المحاكمة في ٢٦ حزيران سنة ١٩٦٩ في القاهرة ، امام محكمة عسكرية خاصة • طلب المدعي العام سمير نجدي حكما بالاشغال الشاقة المؤبدة ضد لوتز وبالحبس ثلاثة اعوام ضد امرأته • ذلك هو بالفعل الحكم الذي صدر • الجاسوس الاسرائيلي في القاهرة حالفه الحظ اكثر من زميله بدمشق ايلي كوهين الذي شنق • سجن الزوجان لوتز في سجن القاهرة نفسه ، الذي سجن فيه الناجون من فصيلة «١٣١» وسينجحون بالاتصال ببعضهم بعضا بواسطة محكومي الحق العام • وان يلطفوا قليلا من مصيرهم• وبالفعل تلقوا بانتظام زيارة اعضاء قنصلية المانية الغربية الذين جعلوا ظروف حبسهم اقل مشقة• بل شاطرت فيلترود بعض الوقت زنزانة فيكتورين تينو ، وهي «مرسيل» في قضية لافون• نقل سجناء (١٣١) الى معسكر في الصحراء اثناء حرب الايام الستة بينما

(١) من عادة اليهود ختان الصبيان •

لوتز سيتابع تطور المعركة من اعماق زنزانته على ترانسيستور صغير اوصله الموساد اليه داخل اناء من الحلويات •

ان ما لم يعرفه هؤلاء واولئك غداة الحرب هو ان حكام القدس اجابوا بلا كلل مفيدين الصليب الاحمر الذين اقترحوا الشروع بتبادل اسرى الحرب : «اتفقنا ، لكننا نريد اخلاء سبيل مرسيل ، واصدقائها ، والزوجين لوتز (١) » •

غداة رجوع ولفغانغ وفيلترود الى اسرائيل سيضطر ميمونة اسرائيل الجنرال ماير اميت ان يقوم بمسعى غير اعتيادي • ذهب الى ريفكا ، زوجة لوتز الاولى ليقول لها : «بعد كل ما قاساه زيف وتلك المرأة معا ارى من واجبي ان اخبرك بأسى ان الاحتمال في رجوع زوجك اليك بات ضعيفا جدا» • ريفكا ضحية مصلحة الدولة احنت رأسها •

اعتنقت فيلترود الديانة اليهودية واختارت لنفسها اسم نوائيسي وتزوجت لوتز مرة ثانية بعد طلاقه •

ترك موظف الموساد الخدمة الفعلية ، وفتح ناديا لترويض الخيل ، من « مدخراته » قريبا من القدس على طريق تل ابيب • لم تكن الاعمال بمثل ما كانت عليه في القاهرة ، وما كان الفضوليون الذين جاؤوا بكثيرين • اضطر لوتس آسفا الى اغلاق «نادي الخيل» بعد عام فقط من افتتاحه • يشتغل اليوم في وكالة خاصة للغزل والمراقبة • كتب هو ايضا ذكرياته ، وهو عازم على نشرها عام ١٩٧١ • ايسير هاريل •• ولفغانغ لوتز •• عديدون هم رجال الموساد الذين يشكون عقدة الموهبة الادبية ••

---

(١) يريد الكاتب من هذا المقطع الملتوي ان حكام القدس الحوا على تحرير جواسيسهم قبل اي عملية تبادل لأسرى الحرب ، موحيا بما لديهم من عطف عليهم وتمسك بهم .

القسم الثالث
مطاردة السلاح

ثلاث قصص طائرات

ان العرض الجوي الكبير في سماء تل ابيب غداة حرب الايام الستة هلل له الاسرائيليون بجنون • لكن الطائرة التي نالت اعظم استحسان ليست هي واحدة من تلك الطائرات الفرنسية الصنع التي سمرت على الارض خلال سبعين دقيقة القوة الجوية للمتحالفين العرب • كانت طائرة اكثر تربيعا ، ومظهر أشد خشونة قليلا من طائرات الميراج التي تتقدمها وحدها في رأس العرض •

لم تكن تحمل على جناحيها نجمة داوود ، لكن رقم تسجيلها هو وحده يتضمن برنامجا كاملا : (٠٠٧) • لقد كانت طائرة ميغ ٢١ سوفييتية الصنع • كان وجودها في اسرائيل منذ عام معروفا ، لكن مئات آلاف الاشخاص الذين حضروا العرض فوجئوا في ذلك اليوم باكتشاف اهمية امتلاك تلك الطائرة لتحضير الحرب الخاطفة • المكان المختار الذي خصص لطائرة الميغ ورقمها يدلان دلالة واضحة على الخدمة التي امكن ان تقدمها • كان ذلك ايضا طريقة خفية ناعمة لاسباغ التقدير على رجال الموساد الذين «نفذوا» عملية دقيقة التعقيد •

بدأت القضية في حزيران ١٩٦٣ • طائرات الميراج ٣ س بدأت في

الخدمة في جيش الجو • الاتفاق المتعلق بتسليمها لم يمر دون صعوبات، اذ انه رغم رأي وزير الدفاع الفرنسي الموافق ، فان وزير الخارجية السيد كوف دو مورفيل قد عارض تسليمها الى الاسرائيليين • واحتاج الأمر الى احتكام شخص في مجلس وزراء الجنرال ديغول الذي اصدر قرارا لصالح الدولة العبرية والتي ما زالت «صديقة وحليفة» • وبالمقابل تلقت الجمهورية العربية اولى طائرات الميغ ٢١ • وهكذا فان توازن القوى في الشرق الادنى ، العزيز على الدول الكبرى ، لم يختل •

كان لخبر وصول اولى طائرات الميراج ، لدى رئيس مجلس الوزراء الاسرائيلي ، في ذلك العهد السيد بن غوريون ، موقع الرضى العميق في نفسه وطلب الى الجنرال (ايزر وايزمن) قائد سلاح الجو ان يقدم له تقريرا عن علاقات القوى بين اسرائيل وبين جاراتها • اهتم بن غوريون دائما عن قرب بالطيران ، ولقد اكتشف اهميتها بالنسبة لبلاده منذ البدء• غداة حرب الاستقلال كتب : «ان واقع كون دولة اسرائيل موجودة اليوم وأن حدودها ممتدة من دان الى ايلات يعود الفضل الاعظم فيه الى سلاح الجو الاسرائيلي • فما كان لنا حتما ان ندفع الغزو العربي وأن نحرر ارضنا لولا تفوقنا الجوي» •

يقوم تضاد عجيب بين «بن غوريون الكهل» الذي لا يكاد يخرج من التوراة ، وبين وايزمن ، طيار (الران) انسابق ، الولد الرهيب في الجيش الاسرائيلي صاحب الضربات الجنونية العديدة • لكن بن غوريون يكن مع ذلك الثقة والتقدير لهذا الفارس الجوي الذي كان الأب الحقيقي لسلاح الجو الاسرائيلي حين فرض شراء طائرات عصرية جدا من فرنسا، رغم يأس وزير المالية العظيم ، وهو الذي رفع مستوى التدريب الى مستوى استثنائي •

ان وايزمن هو صاحب شعارين يلخصان فلسفة اسرائيل الدفاعية :

«الخيار مكانهم في سلاح الجو ، والدفاع عن تل ابيب يقوم على خط عمودي بالنسبه للقاهرة (١) » • انه يقدم امام بن غوريون دليلا على صراحته المعتادة: فتبين له ان تفوق الطيران الاسرائيلي ما يزال كبيرا بسبب وصول الميراج • غير انه من المزعج اننا لا نعرف بدقة ما هي امكانية ونقط ضعف الميغ ٢١وهي طائرة لها مزايا مؤكدة • واما الطيارون المصريون فهم دون المستوى ، لكن يجب الاحتياط لكل امر ، وخاصة حين عودة الضباط الشباب الذين تدربوا في القرم والقوقاز الى القاهرة• من الممكن ان يكون هؤلاء على مستوى افضل من متقدميهم ، وفي حالة صحة هذا الافتراض ، يكون من المفيد جدا امكانية اجراء تشريح لطائرات العدو • وافق بن غوريون ، وبعد بضع دقائق من انصراف وايزمن ، يضغط على زر هاتف داخلي ويقول لسكرتيره آنذاك نافون : «ارسل لي ايسير» • ان الميمونة الذي لم يكن بالرجل الذي يمكن اثارة عجبه بسهوألة ، باغتته في ذلك اليوم مفاجأة من أكبر مفاجآت حياته • اعلن رئيس الوزراء له ببساطة : «نحتاج الى طائرة ميغ ٢١ •• — قال ايسير الصغير دهشا : «متى ؟» •• اجاب «الكهل» : «في اسرع وقت ممكن» • ومع ذلك ستطول القضية ثلاثة اعوام •

في ١٦ آب ١٩٦٩ ، في الساعة السابعة و٥٢ دقيقة كانت طائرة لم تعرف هويتها تطير على ارتفاع منخفض فوق الارض تقترب بسرعة باتجاه الحدود الاسرائيلية • ثلاث رادارات اكتشفتها في وقت واحد تقريبا ، وتحركت شبكة الأنذار جميعها • الكومندان (ران) اقلع فورا من قاعدته في النقب وتبعه فريقه • ران هو واحد من خيرة الطيارين الاسرائيليين ، انه هو الذي اجرى في العام السابق الدور البهلواني الذي نال اكثر التصفيق اثناء العرض الكبير في السلاح الجوي •

---

(١) يقصد ان الطيران هو اساس الدفاع عن تل ابيب •

ان الطائرة التي لم تعرف هويتها والتي تتابع سيرها على خط مستقيم نحو الحدود ، تطير على ارتفاع ٣٥٠٠٠ قدم «١٠٥٠٠» • ولقد ارتفع (ران) بأسرع ما يمكن الى اعلى ، الى ٣٧ الف قدم ، كي يكون في مأمن من اية مفاجأة • ولقد ادرك ان ثمة امر غير عادي • وبعد بضع دقائق من اقلاعه ناداه قائد القاعدة ليصدر اليه الأمر القاطع ، الا يطلق بأي ثمن • انها «قضية دولة» ، اكد «المعلم» •

تبين ران فجأة تحته ، على خط عامودي من الحدود الاردنية ، وعلى بعد ما يزيد قليلا على «عشرة» كيلومتر الى الشمال من البحر الميت خطا سحابيا ابيض لطائرة قادمة من الشرق اي من ارض العدو • كانت طائرة (ران) محمية من قبل طائرة اخرى تحمل رقم (٢) • وراح ينقض باتجاه الدخيل ، فيكتشف هوية ميغ ٢١ ، ويخبر على الفور بسماع الصوت الرتيب والابح للكولونيل «موتيل» هود ، الذي خلف فايرمان على رأس الطيران ، صوت يعرفه جيدا جميع الطيارين الاسرائيليين، يقول له : «هنا موتي • اياك ان ترتكب حماقة ، وان تلعب دور البطولة • هذا الميغ الصغير سيتبعك بلطف ويرسو عندنا» • اقترب (ران) بعض الحذر من طائرة العدو التي طالما تأمل صورها او نماذج مصغرة عنها • انها تحمل على جناحها الشارة العراقية ، وقائدها لا يبدو بالفعل عليه اية نية عداوة• ما ان اقتربت الميراج الاسرائيلية منه حتى خفف سرعته بشكل محسوس، وترنح من جناح الى جناح ليدل على نيته بالهبوط وليبرهن على حسن نيته • اقترب ران ، وهو ما زال محميا من قبل زميله ، واصبح على بعد بضعة امتار وشاهد بوضوح الطيار العراقي بقميصه الرمادي الأزرق داخل قفصه البلاستيكي الشفاف • اشار الطيار عدة مرات بيده اليمنى، وابهامه الى اسفل معبرا عن عزمه على الهبوط ، وقبل ان يبدأ بالهبوط اشار ران اليه بابهامه الى اسفل ايضا بأن يتبعه •

اتجهت الطائرات عندئذ نحو النقب ، و(ران) على اتصال بالراديو مع «موتي» هود الذي يضبط عملية الهبوط .

انه قائد القاعدة الذي كان الاول في استقبال الزائر العجيب عند نزوله من طائرته الميغ ، رجل اسمر اللون ، بدين قليلا ، حطت طائرته بشكل كامل . – «طيران جيد يا سيدي ؟» سأل بالانكليزية الضابط الاسرائيلي زميله العراقي – «ليس رديئا» اجاب الثاني باللغة نفسها بعد ان قدم نفسه باسم الرئيس منير روفه» . حاولت طيارتان اردنيتان (هوتتر) اعتراض طريقي على خط عمودي من عمان ، لكنهما لم يتمكنا من الصعود عاليا كفاية وما كانتا سريعتين كفاية » . منير روفه متوتر قليلا رغم هدوئه الظاهري . اقتيد الى غرفة صغيرة حيث يمكنه خلع قميص الطيران ويصلح من شأنه قليلا . عاد فظهر ثانية بقميص ازرق وسروال خاكي واقتيد في الحال الى هيليكوبتر «الدويت» اقلعت باتجاه الشمال ترافقها هيليكوبتران اخريان .

وأما الميغ ٢١ ، التي لا يجرؤ احد ان يشعل محركها ، سحبت الى داخل محطة بينما شريط من الشرطة العسكرية انتشر في القاعدة ليرجع الى الوراء الفضوليين الذين بدأوا يتوافدون . فالخبر اعلن في اذاعة خاصة من صوت اسرائيل انتشر كسحابة من بارود .

في المساء ، الميغ محاطة بجديلة حمراء غليظة ، كتحفة ثمينة في معرض . قدمت الى الملحقين العسكريين الاجانب الذين تدافعوا مبهورين حواليها . الكولونيل الفرنسي كاترو فقد تقريبا لسانه . راح يردد بلا توقف «مثير ، مثير ..» الاميركي ، الكولونيل فرنه ، حرك قهقهة الاسرائيليين . انه مدجج بآلات تصوير ولا يستطيع ان يمنع نفسه من مداعبة غرامية لجميع اجزاء الميغ التي هي تحت متناوله . انه اول ضابط اميركي في العالم يلمس ويرى عن قرب هذه الطائرة السوفييتية التي

منحت المخابرات الاميركية في عدة مرات بواسطة المناشير والاذاعة ، مبلغ مليون دورلا لطيار فار ينهزم بها ، وهو يقودها • الاسرائيليون بوسائلهم الضعيفة حققوا مأثرة حلمت بها وكالة الاستخبارات الاميركية •

وفي الساعة التي كان الملحقون العسكريون الاجانب يتدافعـــون حول الميغ ، كان طيارها مسلما الى فضول الصحفيين ؛ الذين هم ايضـا كانوا متوتري الاعصاب• ذلك المؤتمر الصحفي عقد في ناد لقاعدة سلاح جوي في مكان ما ، جنوبي تل ابيب • الرئيس العراقـــي منير روفه مجهد ، متوتر ، سيضطر الى ترك الصالة بضعة دقائق ليسترجع هدوءه• دوره مع ذلك سلبي •

الليوتنت كولونيل (يهيل بن زفي) الناطق بلسان الجيش الاسرائيلي يقرأ رسالة كتبت بالانكليزية مضروبة على الآلة الكاتبة على ورق ازرق• والمفروض ان تشرح هذه الرسالة اللغز ، وان يكون الرئيس روفه قـد ارسلها من بغداد الى صندوق بريدي في نيقوسيا (قبرص) اخذ رقمه عن عدد من مجلة القوى المسلحة للدولة العبرية وقع بين يديه مصادفة فـــي العراق • والنص الذي بيد بن زفي هو الآتي :

« سيدي ، ارجو ان تصلك هذه الرسالة بسلامة ، اذ ان ذلك مهم جدا لسلامتي الشخصية • ارجو ايضا ان تتفضل بتصديق اخلاص هذه السطور وكل ما اكتب • رغم القلق الذي اشعر به ، فاني عازم على تنفيذ بمشيئة الله ما اخبرك به •

« انا طيار ميغ ٢١ في الطيران العراقي وانـــي قررت ان اجـيء بطائرتي الى بلدك • لقد توصلت الى هذا القرار بعـــد تفكير طويل ، ساحدثك عنه شفهيا •

« انني اقدر بلدك كثيرا واني مقتنع انك لن تعيدنـي الى نقطـة انطلاقي • وقد صممت ان انفذ ما عزمت عليه من الآن الى اسبوعين او

ثلاثة . ارجوك ان تعطي الأمر الى طياريك الا يفتحوا النار علي . اذ اني قادم بنوايا مسالمة .

« سأجيء على ارتفاع عال بين الساعة السابعة والحادية عشرة صباحا قادما من جهة الشرق . سأجتاز الارض عند شمال البحر الميت . بمشيئة الله آمل ان اهبط في احدى قواعدكم .

« يا سيد ، اريد ان اعيد القول عليك مرة اخرى ان نواياي صادقة وارجوك بالحاح ان تصدر التعليمات الضرورية الى رجال طيرانكم ليضمنوا سلامتي . يمكنك التأكد اني لن اخيبك . بأخلاص لك .

التوقيع : طيار ميغ ٢١

حاشية : تفضل بقبول اعتذاري لاني لم اوقع باسمي . ارجو ان تصلك هذه الرسالة وان تفهم» .

وردا على اسئلة الصحفيين شرح الرئيس منير روفه بانه ترك بلاده بسبب معارضته للقمع الوحشي الذي تأمر به السلطة ضد الاكراد ، وكذلك بسبب التمييز المذهبي الذي يشعر انه ضحيته لكونه مسيحيا في بلد مسلم . كل ذلك بدا قريبا الى المعقول ، محتملا ، و«يلتصق» بالرسالة التي قرأها الليوتننت كولونيل بن زفي . ومع ذلك انها تغطية داهية . فهبوط الرئيس روفه في اسرائيل هو في الواقع حصيلة عملية بدأت قبل ذلك بثلاث سنوات بناء على «هوى فجائي» استبد بن غوريون : «اريد طائرة ميغ ٢١» .

كثير من الاشياء تغيرت بين التاريخين في البلد . اخلى بن غوريون مكانه لليفي اشكول ، وحل الجنرال ماير اميت محل ايسير الصغير. ايزر اصبح رئيس مكتب العمليات و«موتي» هود استلم رئاسة سلاح الجو. لكن «عملية الميغ» تابعت سيرها .

وكان اول رجل في القضية هو شخص اسمه محمد رغلوب ، ٣٣ سنة ، من عائلة طيبة في بغداد • خدم مدة ثلاث سنوات كمساعد طيار في شركة مصرية ، شركة (الطيران العربية المتحدة) • صرف من عمله في نهاية ١٩٦٠ لانه قدم في حالة سكر قبل اقلاع طائرته • وبما انه يجب على المرء ان يعيش ، فانه تقدم بطلب للعودة للعمل في السلاح الجوي في بلاده • وقبل طلبه بسهولة اذ يفتقر العراق الى طيارين • عين بسرعة في القاعدة الجوية «هـ ٣» القائمة على طول خط التابلاين من الموصل الى البحر الابيض المتوسط ، وعلى مقربة من الحدود الاردنية • وسائل التسلية المحلية محدودة جدا والمشهد غير مسل• وحن راغوب الى «العهد السعيد الماضي» بين علب الليل الصغيرة في «شارع المحطة» في فرانكفورت ، وهي التي كانت تشد وثاقه في اوروبا اليها عندما كان طيارا مدنيا •

في مطلع ١٩٦٤ حصل على اذن استثنائي ، بفضل بعض صداقات عالية المقام في بغداد للسفر باجازة الى اوروبا لمدة خمسة اسابيع • وفي شهر شباط ١٩٦٥ زار فرانكفورت ، في تلك المدينة التي تطيب اقامته فيها ، بيد انه عانى من مشكلة مالية خطيرة • فالدراهم التي اقتصدها في قاعدة «٣ هـ» من راتبه كضابط لا تسمح له بحياة الفخفخة ، وراح يسأل جميع معارفه عن وسيلة «يربح المرء فيها مالا بسرعة» • في شهر آذار قالت له احدى صديقاته الصغيرات ، التي تقدم بالمناسبات معلومات الى عملاء الموساد عن الاوساط العربية في فرانكفورت (احد أقسام الدائرة في اوروبا) : «احد اصدقائي يضارب مضاربات كبيرة • اذا اردت ان تقدم خدمة له ، فسيجلب لك ذلك مبلغا ضخما» • جرى اللقاء بينهما في فندق انتركونتيننتال في فرانكفورت : ــ «هل تحب ان تربح ١٠ آلاف دولار ؟ » سأل راغلوب ، شخص قدم نفسه باسم «هر فرانز» •

ـ « اي عمل علي القيام به ؟ »

والآن جاء دور «هر فرانز» بالقاء الاسئلة • طوال ثلاثة ايام كاملة خضع محمد راغلوب لذلك الرجل القصير الذي لا يرفع صوته ، قص عليه حياته ، دراسته في مدرسة في بغداد ، كلية الطيران ، عمله في شركة الطيران العربية المتحدة ، عودته الى العراق• كل شيء مفيد بالنسبة الى «هر فرانز» الذي يلقي اسئلة كثيرة ، اغلبها متعلق باصدقاء محدثه •

هر فرانز ، هو واحد من خيرة عملاء ايسير الصغير ، ورئيس الموساد في اوروبا • انه يستعمل احيانا اسم (اموس بركت) • في مساء اليوم الثالث من المحادثة مع راغلوب كشف اوراقه : «ان ما يهمني ، هي طائرة ميغ ٢١ » • اصابت العراقي لوثة • كان ينتظر عملية تهريب مخدرات كبيرة ، لكنه لم يتوقع ابدا الوقوع على اسرائيليين • ومع ذلك لم يرفض دراسة المسألة وضرب موعدا في امد قريب • انه رجل حذر جدا • التقى راغلوب بصديقته الالمانية التي سلمته ٥٠٠ دولار وبطاقة سفر الى باريس •

اللقاء «المغطى» من قبل عميلين اسرائيليين تم في فندق باريسي كبير ، قريب من ساحة البيراميد • لكن اللهجة تغيرت • فقد فكر راغلوب في كبر العملية ومخاطرها، وأصبح طماعاً في استطاعته لا شك الاتصال ببعض رفاقه الذين يقودون ميغ ٢١ ، لكنه طلب لنفسه بصفة عمولة مبلغ (٢٥٠) الف دولار • وراح يهدد : مصلحة الامن العسكري العراقي تدفع هي ايضا مبلغا محترما لتخبر بما يحاك • يا لراغلوب الطائش ! اغضب كلامه هر فرانتز الهادىء ، وبعد يومين بينما كان قطاره يسير بسرعة اكثر من مئة كيلومتر في الساعة خلط العراقي، بمصادفة مشؤومة، بين باب الحمام والباب الخارجي المفضي الى الخط الحديدي • وعثرت الشرطة الالمانية على جسم مقطع الاوصال ••

ومع ذلك ، رغم تلاشي راغلوب ، تقدمت امور الموساد • اصبح تحت تصرف رجال الميمونة قائمة بأربعة اسماء، اربعة طيارين للميغ ٢١ ، لعل بعضهم على استعداد لترك بلاده فيما اذا أحسن قيادة العملية •

احد اولئك الرجال يدعى منير روفه • بدت الدراسة الدقيقة لوضعه مفيدة بشكل خاص • خريج كلية الطيران بدرجة جيدة ، جيد العلامات خلال تمرينه ، يراوح في مكانه منذ فترة طويلة برتبة رئيس متواضعة• هذا المسيحي هو أقل حظوة بصورة ظاهرة في التقدم من رفاقه المسلمين• انه متزوج ، اب لولدين ، من المحتمل انه سيرفض ترك العراق مخلفا عائلته كرهينة بين ايدي شرطة ، قسوتها معروفة •

قام اتصال بمنير روفه بكتمان ، واعلن انه بالفعل مستعد للجوء الى اسرائيل مع طيارته ، شرط تأمين سلامة عائلته اولا ووضعها مسبقا بعيدا عن متناول السلطة العراقية ، وذلك ما بدا عسيرا • فعائلات الضباط مراقبة جدا ، وانه لمن المستحيل حصولهم على سمات خروج• راحت جميع مصالح الموساد تنقب عن مخرج حتى وجد احد الاطباء حلا لهذه المشكلة •

بلع احد طفلي روفه حبة صغيرة أرسلت من تل ابيب بطرق ملتوية: اصابه بعد بضعة ايام جميع اعراض اصابة يوليوميليت الحادة • وحصل ابوه بسهولة على اذن بارساله الى لندن برفقة امه ليعالج من قبل اخصائي كبير انكليزي • وتبعه الابن الثاني : اذ يصعب على الضابط الاعتناء به•

ما ان تأكد من وصول عائلته الى لندن حتى شرع منير روفه ، بعد ان عرج على قبرص ، بالاستعداد لرحيله • حدد تاريخا لوصوله الى اسرائيل ما بين ١٦ و٢٤ آب ، تبعا للامكانيات التي ستتوفر له • وكان ستة اشخاص في اسرائيل فحسب ، على علم بالعملية ونهايتها الوشيكة : رئيس الوزراء ليفي اشكول الذي يشغل منصب وزير الدفاع ايضا ،

والجنرال رابين ، رئيس الاركان ، والميمونة ، ورئيس الآمان، وقائد سلاح الجو «موتي هود» . فهو الذي اصدر يوم ٩ آب الأمر القاطع والسري الى جميع رؤساء التشكيلات الجوية بالا يطلقوا النار ، ولا لأي سبب ، على الطائرات المجهولة الهوية . وكان « موتي » شديد الخوف من ان طائرته فيحطم كل تلك الجهود . لذلك راح يمضي وقته كله مدة اكثر يقوم احد الطيارين الاسرائيليين العصبيين قليلا ، باطلاق رشة من من اسبوع في مكتبه . ويتدخل بنفسه في شبكات اذاعة الطيران ، كي يتمكن الطيارون من معرفة صوته حالا حين تكشف اجهزة الرادار الميغ. والواقع ان الكومندان (ران) عرف حالا صوت « موتي » واعترف فيما بعد ان ذلك ساعده على السيطرة على رد فعله الاول كمطارد .

الرئيس السابق منير روفه يعيش اليوم في مكان ما في ضاحية تل ابيب مع امرأته وولديه اللذين يتكلمان حاليا العبرية كاولاد « الصبرا » تماما . عنوان عائلة روفه ، التي غيرت بالطبع اسمها ، هو سر دولة ، لكن أهالي الحي يعرفون جيدا من هو ذلك السيد الاسمر ، العاطل والذي لا يحتاج الى ان يعمل بما انه قبض بعد وصوله مبلغا من المال يقيه الحاجة حتى آخر ايامه . الطيار السابق ينظر غالبا بحنان الى مرور الطائرات في سماء اسرائيل . بوده ان يعود ويقود طائرة في شركة مدنية ، لكن تلك الرغبة اعتبرت خطرة جدا على سلامته وقد رفضت . وقبل اربع سنوات من وصول الميغ الى اسرائيل حطت طائرة عربية غيرها في القاعدة نفسها في النقب ،طائرة « ياك ١٥ » يقودها الرئيس الطيار المصري عباس حلمي. كانت « ياك ١٥ » طائرة ، من طراز قديم . لا تهم الاسرائليين . لم يكن للموساد اية علاقة في تلك الحكاية . وتلقى عباس حلمي مع ذلك مئة الف دولار في شلك سياحي كي لا تثبط همم اصحاب «النيات الحسنة» ، وذهب الى روما باذن مرور صادر عن السفارة الارجنتينية في تل ابيب.

فكر حلمي ٠٠وهو في ايطاليا بالتقدم الى منصب قائد طيار، ثم الاستقرار في الارجنتين بعد حصوله على تلك الشهادة ٠لكنه سقط في الامتحان وذهب مع ذلك الى بيونس ايرس ٠ وفي اعقاب اول زيارة له للنادي العربي في المدينة عرفه عملاء المخابرات المصرية ، وبعد ستة ايام كان الرئيس الطيار السابق قد « صفي » ٠

ان امتلاك ميغ ٢١ في حالة جيدة كاملة كان ضربة هامة للطيران الاسرائيلي ، سمح للطيارين ان يتدربوا طويلا ضد افضل طائرات العدو٠ وأثناء حرب الايام الستة لم يكن للطائرات السوفياتية أي سر بالنسبة الى الطيارين الاسرائيليين ٠ عرفوا انها اسهل انقيادا على ارتفاع منخفض من طائراتهم الميراج ، وعرفوا انه يجب اذن بأي ثمن فرض القتال في كل مرة على ارتفاع عال ٠ وعرفوا كذلك نقطة ضعفها الكبير الذي كشفه لهم غداة المعركة اخصائي اميركي من الملاحة الجوية بقوله : « ربما كان اهم اكتشاف تقني (للاسرائيليين) هو معرفتهم ان نظام تشغيل الميغ اساسه البنزين يزيد هذا النظام من استغلال الطائرة ، ويجعلها قادرة على الاقلاع دون تدخل مساعدات تشغيل ٠ لكنه من ناحية اخرى يسبب خطر الانفجار في الجو في حالة اصابة خزان البنزين المخصص للاشتعال، بشظية قنبلة» ٠ وفي المعارك الجوية التي تقابلت خلالها الميغ باتنظام منذ ١٩٦٧ مع الميراج الاسرائيلية ، تحطمت اغلب طائرات الميغ العربية في الجو ٠ وانها لقوة هائلة للطيارين الاسرائيلين معرفتهم جميع خصائص ومزايا ، وجميع الزوايا الميتة وجميع النقط الضعيفة لخير طائرات عدوهم:

مصالح الاستخبارات العربية حاولت هي ايضا ان « تعرف » ٠ لم نكن المسألة بالنسبة لهم الحصول على طائرة ميراج من اسرائيل لكن الرغبة لديهم اصبحت نافذة عندما تلقى لبنان من باريس اول طائرات الميراج ٣ التي كان قد اوصى على اثنتي عشرة طائرة منها ٠ وكانت تلك

الطائرات رابضة في مطار يقع في شمالي البلاد . ورغم التعهدات التي قدمتها سلطات بيروت الى الحكومة الفرنسية والى مصانع داسو فأنها لم تستطع ان ترفض للمصريين الاذن بفحص تلك الميراج الشهيرة التي غدت ضربا من الوسواس في العالم العربي .

واتضح بسرعة كبيرة ان كل ذلك غير كاف. فان ما كان يهم المصريين هو امكانية تجربة الميراج في الجو في قتال وهمي ضد الميغ ٢١ يمكنهم ايضا من استخلاص الدروس المفيدة من تلك التجربة . كانت المسألة على جانب عظيم من التعقيد . لم يكن في الامكان ارسال الميراج اللبنانية الى مصر ، والجيش اللبناني لا يملك اية ميغ يمكنه ان « يعيرها » داخل لبنان للطيارين المصريين . ومن ناحية اخرى كانت العلاقات بين سورية وبين لبنان سيئة جدا لا تسمح بامكانية ارسال مؤقت للطائرات اللبنانية الى سورية ، او العكس . ومع ذلك كانت الميراج في قاعدتها رابضة، كالوسواس . وعرضت المسألة على السوفيات الذين كانت حماستهم اكثر من حماسة شركائهم . فالدرس ، حسب رأيهم ، ليس هو مفيد بالقدر الذي يعتقده المصريون وربما انهم لم يكونوا متحمسين جدا لفكرة مقارنة يمكن ان تعقد بين نوعين من الطائرات المطاردة القاذفة . ومع ذلك كان من المستحيل عليهم كما يظهر الا يستجيبوا لتبكيت اصدقائهم العرب الملح الذين يعتقدون حقا ان امتلاك ميراج واحدة هو ما ينقصهم في معركتهم. عندئذ اصبح لبنان مسرحا لمطاردة فعلية لميراج ، بواسطة شخص ثان ، مطاردة انقلبت بسرعة الى مأساة مهزلة .

في ٣٠ أيلول ١٩٦٩ يقوم « رجال المخابرات اللبنانية » بناء على معلومات ، بتطويق منزل السيد فلاديمير فاسيليف ، الملحق التجاري في السفارة السوفياتية . الذي كان بصحبة السيد اسكندر كامياكوف، السكرتير الاول ، وضابط طيار في الجيش اللبناني هو الملازم محمود

مطر • السوفياتيان اللذان لم يكونا بالتأكيد يتصوران ان لبنان الصغير يستطيع ان ينقض عليهما ، قاوما • وقع تبادل اطلاق النار • لكن «رجال المخابرات اللبنانية» لم ينتابهم الخوف • اطلقوا النار • استسلم فاسيليف • كومياكوف ، الذي اصيب بخمس طلقات في بطنه ، حاول ابتلاع سم ، ثم القاء نفسه من النافذة • عمره طويل اذ نجح الاطباء اللبنانيون بانقاذه من براثن الموت • غليان في بيروت • وتهافت من قبل جميع الصحف على القضية • وثارت مختلف الفرضيات عندما فرض الصمت المطبق بشدة من قبل السلطات العليا • اعلمت موسكو ان المزاح دام بما يكفي ، وفرض فورا مراقبة قاسية على جميع الانباء المتعلقة بتلك القضية والتي ستنتهي دونما ضجة برحيل كومياكوف محملا باتجاه موسكو • مهمة فاشلة ، وفاشلة جدا بالنسبة لذلك العميل المتهن الذي «اصطيد» على الارض من جراء تحالف غريب جدا •

كان على المصريين ان يصبروا بضعة اشهر قبل ان يستطيعوا ارسال طياريهم ضد الميراج في معارك وهمية • وكان عليهم كذلك ان ينتظروا قيام وفد ليبي مؤلف من ضابطين يرافقهم ضابط مصري طيار ، رفيع الرتبة بزيارة الى باريس في مطلع شهر كانون اول من عام ١٩٦٩ • فان العقيد القذافي الذي اطاح بالملك الشيخ ادريس ، قرر لاسباب تتعلق بنفوذ ، استئناف المحادثات التي بدأها سلفه للتزود بالميراج • والمصريون شجعوا بحرارة رئيس مجلس ثورة طرابلس • انهم لا يريدون ضم الميراج الى اسطولهم الجوي فذلك يطرح مسائل وقائية ، لا يمكن حلها عمليا ، اذ انهم يجدون صعوبة كبيرة في تعهد طائراتهم الميغ ، لنقص الاشخاص المختصين ، لكنهم يستطيعون اخيرا دراسة ميزات والنقط الضعيفة في

الميراج ، في شروط المعارك الجوية • تلك القضية الليبية ، المعلن عنها في مجلس الوزراء في باريس منذ ١٥ كانون الاول ، مع العدد التقريبي للطلبية حوالي (مئة طائرة) سيكون لها مضاعفات عديدة ونتيجة لما كشفت عنه النيويورك تايمس (التي زودها الاسرائيليون بالمعلومات) شعر وزير خارجية ليبيا (بويصير) انه مضطر لتكذيب ما اعتبر مسعى لنسف القمة العربية التي ستعقد في اواخر كانون الاول في الرباط • واعلن «ذلك نبأ لا اساس له» • وجدت الحكومة الفرنسية نفسها عندئذ في وضع غير مسر • استمرت الاخبار « تتسرب » لكن موقف شريك اضطرها الى منتهى التقصير • وراحت الاوساط المخولة القريبة من وزارة الدفاع الوطني تنتهج طريقة الطرود الصغيرة : خمسة عشر •• خمسين •• مئة •• مئة وعشرة •• امام سخط الرأي العام الذي لم يدرك شيئا من هذه القضية • والمصريون من جانبهم لم يضيعوا الوقت • ما ان وقع الاتفاق حتى ارسلوا الى ليبيا عددا من طياريهم «ليتلبينوا (١)» قبل وصول اول طائرات الميراج او اول المدربين الفرنسيين الى قاعدة ويلز الجبارة • لادراك الانفعال الذي اثارته هذه القضية في اسرائيل يجب تذكر الفوائد التي جناها طيارو (موتي هود) من امتلاك طائرة ميغ ٢١ صالحة للطيران • ليس من المؤكد ان يجني المصريون فوائد مشابهة• ولكن مثل ذلك الاحتمال اعتبر في تل ابيب اشد خطورة من الزيارة التي تضيفها المئة وعشرة من الميراج الى القوة العربية • ان قضايا الطيارات تلعب دورا هاما جدا في حرب الظل في الشرق الادنى • الحظر الفرنسي على الخمسين طائرة ميراج ٧ ، واستحالة توجيه مئة طائرة ميراج ف ، اخرى التي كان يجب ان تشكل الجيل الجديد للقوة الضاربة

(١) اي يحوزون على الجنسية الليبية .

الاسرائيلية ، ذلك الحظر وتلك الاستحالة دفعا بقادة القدس للتوجه نحو الولايات المتحدة لشراء السكايهوك والفانتوم ، الضرورية لسلامتهم • ولكنهم في الوقت نفسه اتخذوا قرارا قاطعا بان لا يرتهنوا ابدا بمورد فرد ، وان ينشئوا في اسرائيل نسخة طائرة قتال «وطنية» مهما كان الثمن ومهما تكن الصعاب التي يجب التغلب عليها •

مرة اخرى كلف الموساد بمهمة دقيقة فان طائرة القتال الاسرائيلية ستستمد من الميراج التي يعرفها التقنيون جيدا وهم اكفاء بتفكيكها مغمضي العينين ، لكن ذلك لا يكفي لانشاء طائرة •

٢٦ شباط ١٩٦٩ : قضية لم يسبق لها مثيل انفجرت في تاريخ الجاسوسية المضطرب جدا ، في سويسرا • اعلن المدعي العام الاتحادي السيد هلنس فالدر بنفسه في (برن) توقيف مهندس سويسري هو السيد (الفريد فراونكنيشت) المتهم ببيع عملاء الاسرائيليين عشرين صندوقا تحوي على مخططات ميراج ٣ س : لقاء مبلغ (٨٦٠) الف فرنك سويسري •

المدعي العام الاتحادي الذي هو رجل تعب متضجر من كل شيء ، وقليل الانفعال ، اعلن حرفيا : « انها اكبر قضية جاسوسية في سويسرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية • » •

بعد مضي اربعة ايام اعلن ان الكولونيل زفي الون ، الملحق العسكري في السفارة الاسرائيلية في روما والذي هو في الوقت نفسه معتمد في برن ، هو « شخص غير مرغوب فيه » وطلب اليه مغادرة الاراضي

السويسرية . الاراضي التي لم يكن موجودا فوقها عندئذ . وكان لسلفه الجنرال (نيشميا كايين) كذلك ضلع في القضية ، برأي السلطات السويسرية ، لكنه كان قد استدعي الى تل ابيب قبل ذلك بعض الوقت .

لماذا تلك البلبلة ؟ قبل ذلك بشهر ، انفجرت قنبلة حقيقية في دوائر مكافحة الجاسوسية .

السبت في ٢٠ ايلول ، عند الصباح ، كان هانز روتزنجر ، نائب قضاء بال ، ومدير شركة استيراد وتصدير،يفتش مصادفة احد مستودعاته، الواقع قرب الحدود الالمانية . اثار استفهامه في لحظة وصوله مشاهدته أحد مستخدميه من الجنسية الالمانية هانز شتريكر موقفا سيارتهالمرسيدس ٢٢٠ ذات اللون الاسود وجالسا امام عجلة القيادة امام العمارة . ليس في وجود ذلك الرجل اية غرابة ، لكنه ما ان رأى رب عمله حتى انطلق بسرعة فورا . قلق المدير فراح يفتش المستودع تفتيشا عميقا واكتشف صندوقا صغيرا خط عليه بالكلمتين التاليتين : « سري عسكري » . فتح الصندوق ووجد اوراقا بلون رمادي ازرق ممهورة جميعها بطابع : «سري» . انها مخططات ، ورسوم . وهانز روتزنجر ، مواطن سويسري صاحب ضمير ، اخطر لتوه ادارة مكافحة الجاسوسية السويسرية ، التي هي واحدة من اكثر أمثالها « وسوسة » في العالم. ستريكر الذي حسب ان مديره قد تعذر عليه معرفته ، القي القبض عليه ، وتكلم بسهولة . هذا اللاجىء من المانيا الشرقية . عمره ٣٢ سنة اب لطفلة صغيرة في شهرها السادس جن جنونه ، لفكرة فقدانه لعمله ، وقلق

جدا لخياناته ثقة روتزنجر الذي يشتغل عنده منذ ١٢ سنة . انه لا يعرف شيئا مهما ، دوره اقتصر على نقل صناديق بين سويسرا والمانيا ، لكنه اعطى اسم «مستخدمه» : شخص اسمه فراونكشت .

تحقيق واستخراب شديد . الفريد فراونكشت ، ٤٣ سنة هو رئيس قسم الآلات المحركة لشركة كبرى في فينترتور ، اسمها شركة سولزر، ويعمل فيها منذ ٢٣ سنة . سولزر هو في سويسرا . عملاق صناعـي يستخدم اكثر من ١٥ الف شخص وهو مصنع محركات (آتار) التـي تجهز الميراج ٣ س . والتي اوصى الجيش السويسري عليها ويصنع جزء منها في البلد .

عندما اوقف ألفريد فراونكشت كشف اوراقه على الطاولة واقر انه يعمل لحساب الاسرائيليين منذ اذار ١٩٦٨ . اتصل به عملاء الموساد اثناء رحلة من رحلاته الكثيرة في اوروبا وقبل التعاون معهم « تعاطفا مـــع الدولة اليهودية » ، لكن ذلك لم يمنعه خلال اثنى عشر شهر من قبض المبلغ الرمزي المرتفع (٨٦٠) الف فرنك سويسري ، الذي سيكـــون من المستحيل العثور على اثره . فهل السر المصرفـي في سويسرا كلمة فارغــة ..

كان « عمل » فراونكشت سهلا جدا . فمؤسسته ، سولزر ، مكلفة بانشاء قطع عديدة من محرك (آتار) لنحو عشرين شركة سويسرية التي تعهد اليها خلال فترة من الزمن المخططات التـي تقدمهـا (السنكمـا) الفرنسية وحين تعاد تلك المخططات السرية الى مؤسسة سولزر ، يدخل في اختصاصات الفريد فراونكشت ابادتها في افران جبارة تستعملهـا الشركة تحت اشرافه ومراقبته الى ان تتحول الى رماد .

وجد الفريد فراونكشت حلا سهلا جدا لارضاء أصدقائه الجدد الاسرائيليين: حرق اوراق لا اهمية لها ثم نقل المخططات السرية للميراج الى مستودع استأجره من مؤسسة روتزنجر. وكان على ستيكر المستخدم الالماني الذي يجتاز عدة مرات في اليوم الحدود الجرمانية السويسرية في سيارته المرسيدس ويعرف جميع موظفي الجمارك، تسليم الصناديق الثمينة في الجمهورية الاتحادية الى عملاء الموساد الذين يهمهم الا يتعرضوا لادنى المخاطر في سويسرا، لمعرفتهم بتمسك السويسريين المفرط بحيادهم. وكان لا بد من حذر وحاسة شم السيد روتزنجر لاكتشاف الامر قبل ان يسعف الوقت فراونكشت لشراء منزل احلامه في (التسان) . لكن عشرين صندوقا، تزن اكثر من مئتي كيلو من الوثائق السرية جدا تمكنت من الوصول الى تل ابيب .

في اسرائيل اكتفى الناطق الرسمي بلسان الحكومة بالتزام الصمت. أعلن كما هي العادة دائما في مثل تلك الحالة : « لا نعـرف شيئا، لا تعليق » . لكن رجلا يفرك يديه فرحا هو (آل شفيمر) ، رب العمل الكبير في الملاحة الجوية. فغداة حرب الايام الستة والحظر الفرنسي استدعاه الى وزارة الدفاع موشي ديان وقال له : « هل نستطيع انشاء طائـرة اسرائيلية ؟ »

اجاب (آل شفيمر) بعبريته المخضبة باللكنة الامريكية الصارخة:ـ « لن يكون سهلا ، لكن سنجرب » .

وفجأة تضخم جهاز (البديك) ، الشركـة الوطنية للملاحة الجويـة وبلغ عدد المشتغلين فيها ١١ الف شخص. بصورة رسمية يشاد في مصانعها (الآرافا) وهي طائرة من نوع اطلس مصغرة ، تستطيع نقل عشرين شخص

او شحن طونين من البضائع ، و«كومودور جت» وهي نوع من طائرة صغيرة فخمة ، مستوحاة من طائرة امريكية من الطراز نفسه .

وبالفعل منذ غداة حرب الايام الستة اعطيت الافضلية الاولى لصنع طائرة قتالاسرائيلية تشبه شبه الشقيق الميراج، لكن جميع الناس في البلد اطلق بسرعة عليها اسم«سوبر ميراج».انانشاء طائرة«الآفارا» و«كومودور جت » يسمح بتمرين اليد ، واكتساب المعرفة الضرورية وكذلك الحصول من اوروبا ، وخاصة من فرنسا ، على الادوات والالات اللازمة وكذلك بعض المعادن النادرة الضرورية لصنع مركبات معدنية خاصة . رغم الحظر فالجمارك الفرنسية تغمض العين ، سواء انخدعت ام لا بالصفة«المدنية» لبعض الطلبيات . ومع ذلك طرحت مشكلة نفسها بسرعة كبيرة : لا يكفي امتلاك ميراج ومعرفتها جيدا لانشاء مثيل لها . يجب ايضا معرفة اية آلة تستطيع صنع اية قطعة ، وكيف يمكن ضبط قياساتها وحركتها . من هنا مباشرة كانت عملية سويسرا ، التي سمحت لمهندسي (آل شفيمر) ان يدركوا ان تلك القطعة مثلا التي كانوا «يفشلون» في صنعها زمنا طويلا ، كانت مصنوعة ببساطة بواسطة متعهد (شولتزر) على آلة تصنع عادة اغلفة الساعات الخارجية . رغم توقيف (الفرد فراونكشت) المبكر فالحصاد كان خصبا وسمح للاسرائيلين ان يربحوا ثلاث سنوات من التقديرات المبدئية . كان (آل شفيمر) قد قدر في البدء أن موعد اول طيران تجريبي مثالي سيكون عام ١٩٧٤ . لكن منذ نهاية سنة ١٩٦٩ تمكن من اعلان انجاز ذلك السبق الى دايان محددا الموعد في نهاية عام ١٩٧١ .

سوبر ميراج : انها الطائرة التي كما يبدو جديرة بحمل ذلك الاسم

فيما اذا انجزت وعودها • وستكون اقوى واسرع من شقيقتها الميراج ، وستحمل كمية من القنابل اكثر • والملحقون العسكريون الغربيون لبثوا زمنا طويلا قبل ان يأخذوا السوبر ميراج الاسرائيلية على محمل الجد • أن يستطيع بلد صغير انشاء طائرة تفوق سرعتها سرعة الصوت بزمن قصير لهي فكرة سفسطائية وليست منطقية ولا معقولة • لقد سبق لاغلبهم ان وقعوا بذلك النوع من الخطأ نفسه عندما انكروا وجود محرك نووي سري في النقب ، أنشىء بمساعدة الفرنسيين واكتشف عن طريق المصادفة، بتأخير كبير، بواسطة طائرة تجسس اميركية• والفرنسيون انفسهم ظلوا هذه المرة متشككين حتى مطلع ١٩٧٠ • لكن بعض البلدان كانت اكثر واقعية منذ البدء ، وخاصة رومانيا ، التي اهتمت في وقت مبكر جدا ، بطائرة القتال الاسرائيلية بسبب بسيط جدا : يوجد في العالم في نهاية المطاف عدد قليل جدا من المصنعين للطائرات الاعتراضية وللمطاردات القاذفة «الصغيرة» والرفيعة نسبيا • لا بد بسبب حيادها ان ترفض في اغلب الحالات بيع طائراتها الممتازة•وبريطانيا العظمى منذ زمن طويل لم تنتج صنفا جيدا • بقيت فرنسا والاتحاد السوفياتي ، وهما البلدان الملتزمان سياسيا ، واللذان يريدان على الارجح ، بيع طائرات الى بلد كرومانيا • امام اسرائيل اذن حظ مؤات « لتكسر » السوق العالمية وان تفرض نفسها على بعض البلدان «غير الملتزمة» التي لا تريد شراء الطائرات السوفيتية ، الغالية جدا من الناحية السياسية ، ولاشراء الطائرات الاميركية الغالية جدا ماليا ، ولا الطائرات الفرنسية ، المعرضة بسهولة كبيرة للخطر • ويتوفر لاسرائيل معطى آخر : فطائراتها مشتركة باستمرار في معارك جوية فعلية وبالتالي تستفيد من هذا الواقع لتدخل

العديد من التغييرات والتحسينات المتتابعة • ولدت الصورة الرائعـة للميراج الفرنسية في اجواء الشرق الادنى بينما البريطانيون الذين ظلوا طويلا السادة غير المنازعين في صنع المطاردات يجدون انفسهم مبعدين الى مرتبة ثانوية ، لضياعهم فرصة « اختيار » طائراتهم المقاتلة ، ان مـن الارجح ، وذلك هو في كل الاحوال الحساب الذي اجراه الاسرائيليون، ان تفرض السوبر ميراج بسرعة كبيرة قانونها (١) •



(١) يريد المؤلف من هذا كله أن يقول أن اسرائيل لا تطمع في ان يكون لها طائراتها الحربية الخاصة بهدف عسكري فحسب ولكن لهدف تجاري ، اذ انها سوف تبيع كمية لا باس بها للدول الاخرى .

ليس للاقوام اليهودية التجربة في اشياء البحر خلال العصور ولم تكن الجماعة اليهودية في فلسطين عشية اقامة دولة اسرائيل استثناء للقاعدة • وقد وجدت بعض الفرق البحرية داخل البالماخ سميث بالبام (بالماخ البحر) لكن تمرينها بدائي • اكثر تلك الفرق غنى واوفرها حظا كانت تتعلم الملاحة على مراكب شراعية في خليج حيفا، وبعض الشبان ارسلوا الى الكليات الامريكية • لم يكن تحت تصرف الفرق الاخرى سوى بعض القوارب ، تجذف بعناية شديدة عدة مرات في الاسبوع على (البركون) وهو النهر الآسن الذي يخترق تل ابيب ، والذي لا يتجاوز عرضه ثمانية امتار اثناء الشتاء • سيضحى بسلاح البحرية دائما في اسرائيل بمقتضى اختيار متعمد • اذ لا يستطيع ذلك البلد الصغير ان يتعهد في الوقت نفسه طيرانا قويا ، ووحدات من المصفحات الخطيرة وبحرية عسكرية متقدمة ، فمكان هذا السلاح هو الاخير في قائمة الافضليات• لكن ذلك لا يمنع من ان يكون في تاريخه العسكري ونضاله السري ثلاث قصص سفن ، بمثل جرأة المغامرات الجوية • قضية لينو والقرصان في ١٩٤٨ ، وقضية ابراهيم الاول في ١٩٥٦ ، وقضية قوارب شيربورغ ١٩٦٨ : كان الخمسمئة الف يهودي في فلسطين يعيشون في انتظار هجوم الجيوش العربية المقرر حين اعلان الاستقلال (١) • عملاء الموساد يتابعون بحمى شراءهم للسلاح • رغم جميع الجهود لم تكن الهاغانا تملك اكثر من ١٠ آلاف بندقية والبالماخ الف وخمسمئة• والاسلحة

(١) لا يتعب المؤلف من تكرار هذا التضليل المتعمد . فاليهود يعيشون الخوف الدائم من العرب وهو يتناسى ان الصهاينة اسياده كانوا يتحرقون شوقا الى اليوم الذي يغادر فيه البريطانيون فلسطين لينفذ هؤلاء مخططهم في سرقة البلاد وتشريد شعبها .

الاتوماتيكية نادرة الى حد انها تتنقل بين مختلف الوحدات تبعا لخطورة الموقف • الحرب لم تقم بعد لكن الموقف جدي • سقطت مستوطنات (غوسن اتزيون) لتوها • وطريق تل ابيب ـ القدس لم تعد سالكة الا لقوافل الكميونات المصفحة جزئيا • ورجال (فوزي القاوقجي) غير النظاميين وصلوا حتى ابواب القدس : وتسببوا بمذبحة ما يقرب من مئة طبيب وممرضة حرق اغلبهم احياء في سيارات الاسعاف ، بينما كانوا في قافلة على طريقهم الى مستشفى الهاداسا (١) • اتخذ الانكليز الذين كانوا رسميا ما يزالون المسؤولين عن حفظ النظام موقف « الحياد » المحض الذي يعني ترك العصابات القادمة من البلدان العربية المجاورة تدخل بحرية الى فلسطين وتركها تحتل في حالات عديدة المراكز التي يتخلى الجيش البريطاني تدريجيا عنها (٢) •

اهود أفريل نال لتوه بعض التوفيق في تشيكوسلوفاكيا في تسليم تلك الاسلحة التي يفتقر الجيش اليهودي اشد الافتقار اليها • لكن ميزان القوى القائم يبقى متأرجحا جدا • في ذلك السياق اعلم احد عملاء الموساد في ليلة ٢٧ آذار عند وصول كمية من سلاح وذخيرة الى ميناء تريستا الذي كان حينئذ تحت الاحتلال اليوغسلافي • اربعمئة صندوق مرسلة من مصنع (زابريوفكا) تحوي ثمانية آلاف بندقية وستة ملايين خرطوشة • ذلك المصنع التشيكي الذي سوف يشتغل للدولة اليهودية المستقبلة •

---

(١) كذبة تاريخية لا اساس لها من الصحة . اذ ان هذه القافلة المزعومة لم تكن تحمل حمامات السلام والاطباء ، ولكنها كانت مملوءة برجال العصابات ، وقد تسترن بالاشارات الطبية .

(٢) كل ذلك محض اختلاق . وعكس لوقائع التاريخ ، فمن المعروف ان الانكليز تخلوا عن اسلحتهم الخفيفة والثقيلة لليهود ، كما سلموهم معسكرات كاملة التجهيزات .

لكن «شايكه» العميل الذي يمركز جميع المعلومات المتعلقة بتوريد السلاح ، حسم الموضوع:تلك الاسلحة ليست مرسلة الى فلسطين. وعلى الفور اتصل بأهود افريل في براغ الذي فتح تحقيقا سريا . بعد مضي يومين ، المفاجاة المسرحية : تلك الاسلحة وتلك الذخائر مشتراة من قبل السوريين تبعا للاساليب التي سلكتها اسرائيل نفسها . باخرة ايطالية، ليمو ، قبطانها الكابتن بيترو فيزالي ، راسية تنتظر في مرفأ فيدم المحتل كتريستنا . من قبل اليوغسلاف .

حكم على القضية انها خطيرة الى درجة ان افريل سافر بنفسه الى جنيف لملاقاة شاؤول افيغور ، رئيس الموساد في اوروبا . انتهى الرجلان الى نتيجة بسيطة : يجب منع حمولة لينو باي ثمن من الوصول الى سوريا . سيشرع بالعملية انطلاقا من ايطاليا حيث مصالح الاستخبارات ثابتة القدم بصلابة ، لكن باقصى تكتم ولطف كي لا تضع سلطات روما في وضع حرج ، يمكن ان يدفعها الى اتخاذ بعض القرارات المزعجة جدا. افيغور بسبب خطورة الوضع ، لم يستعمل الاتصال اللاسلكي المعتاد . ارسل احد مساعديه ليقدم بنفسه تقريرا شفهيا للسيد بن غوريون. اعطى بن غوريون الضوء الاخضر للشروع في العملية .

كلف ثلاثة عملاء بقيادة العملية الى شاطىء الامان : يهودا ارازي ، رئيس الاذاعة الايطالية ، اداسيريني (ارملة انزو سيريني) التي هي من اكثر مساعدي ارازي في منطقة ميلانو فعالية ، ميرماردور المسمى « مونيا » رجل بغداد . الحل الاول المقترح هو غارة جوية على لينو. ذلك محتمل اذ يوجد تحت تصرف الموساد مطار صغير قرب روما تتوقف عليه جميع طائرات (لابسا) ، وهي شركة وهمية (بان اميركية) ابتدعها تيدي كوليك لتحول نحو فلسطين الطائرات التي يحصل عليها بطرق خارجة عن المألوف من الولايات المتحدة . روى «مونيا» في

كتابه « محكمات مغفلة » بعض الصعاب التي لقيها : الطائرات المارة عبر ايطاليا ليست مجهزة لالقاء القنابل ،كان علينا ان نلقي القنابل من الابواب او ان نعلقها بحبل تحت الطائرة ، ثم ان نقطع الحبل في اخر لحظة ، لكن ذلك يمثل اخطارا كبيرة جدا اذ قد يعرض الطائرة الى « النسف » من جراء الانفجار • ومن ناحية ثانية الطيران على مستوى منخفض جدا قد يكشف عن هوية الطائرة ويجر الى مصاعب جدية مع الحكومة الايطالية• ومع ذلك درست العملية بعناية ، عندما لوحظ ان لينو اقلعت • وبناء على طلب الموساد «مشطت» بحر الادرياتيك جميع الطائرات التي كانت تحت التصرف • وفي ١٤ نيسان وجدت الباخرة راسية في الميناء الايطالي الصغير مالفيتا • في اليوم التالي كانت مربوطة بقلس في باري • لقد قطعت سفرهاا بسبب عطب ميكانيكي • وصرف النظر عن ضربها بالقنابل في ميناء ايطالي ، والحل الذي اقر في هذه المرة هو ببساطة تخريبها في مرفأ باري •

واحد من خيرة الاخصائيين اليهود في التخريب الذي كان مارا باوروبا ، يوسف درور دعي للنجدة • سبق له ان نجح في عدة ضربات مشهورة ضد السفن البريطانية • انه هو الذي سيستلم بعد زمن طويل في ١٩٥٩ في مرفأ بورتسموث اول غواصة اسرائيلية «تانين» •

درس درور بعناية المسألة في باري ، ولم تكن سهلة • الانكليز يرتابون بان رجال الموساد يتعقبون لينو ، ولقد رست مدمرة بجانبها لتحميها• اللينو متلألئة في الليل بجميع اضوائها لتتحاشى مفاجأة • درور ارسل في ٦ نيسان التقرير الى آمنون يونا ، مساعد أفيغور ، المرجع الاول للعملية :

« بحق الله ، يجب علينا الا ننتظر ، اذ يستطيع العصفور ان يطير في كل لحظة • يجب ان ننفذ مساء الغد ، اذ لن يغفر التاريخ لنا ابدا اذا

وصلت هذه الاسلحة الى الجبهة واسالت دم رفاقنا (١) » •

جرت محاولة اولى في مساء اليوم التالي • اقترب درور الى بعد عشرين مترا من لينو لكنه كان عليه ان يتراجع كي لا تظهره اضواء كشافات المدمرة الانكليزية • ويقوم باقتراب جديد اكثر سهولة في الغد • ولقد نفذ عملاء الموساد واحدة من تلك العمليات التي يتقنونها خير اتقان ، اذ اوصلوا الى الانكليز معلومات عن قارب حامل للصواريخ يقترب من الميناء • اقلعت المدمرة لتقوم بالاستطلاع في عرض البحر امام (باري) • لم يجد رجال ضفادع «يوسيل» درور ، اية مشقة هذه المرة للاقتراب وتثبيت حمولتهم المتفجرة تحت خط العوم على لينو • بعد ذلك بأربع ساعات ، في فجر ٩ نيسان كان ماردور ، واسمه بالشيفرة «اور» في ايطاليا ، ارسل الى «اميتاي» (بن غوريون) والى «هيلل» (اسرائيل غليلي) البرقية التالية :

« غاصت الباخرة • التفاصيل ستتبع • جميع رفاقنا سالمون • انتهى » •

الباخرة غاصت بالفعل • لم يقع على ظهرها اية ضحية ، وتجهيزات الميناء الايطالي لم تصب بأي ضرر • انه لعمل «نظيف» • عملية لينو انتهت • وعملية «القرصان» بدأت •

علمت الحكومة السورية بنبأ التخريب في مرفأ باري بدهشة شديدة • الحرب واقعة ، والعديد من الكتائب السورية تنتظر السلاح لتمضي الى المعركة • ضباطها يعلنون عن نفاذ صبرهم في ثكنات دمشق وحلب • انه لوضع غير سار بالنسبة للحكومة •

(١) رأسالت دم العرب – لا فرق !

في اواخر شهر نيسان وصل (باري) ضابط شاب ، هو المقدم فؤاد مردم بك ، الذي هو ايضا ابن عم رئيس الوزراء . كلف باستعادة السلاح الغارق الى عمق عدة أمتار . نزل فيواحد من افخم فنادق المدينـــة ، وتعاقد مع ثلاث غطاسين ايطاليين . بدت عملية تعويم الصناديق سهلـة اذ غرقت (اللينو) امام رصيف يمكن اقامة آلات رافعة ثابتة عليه . بعـد عشرة ايام من وصوله امكن للضابط السوري ان يبرق الى دمشق: «انقذ السلاح . آمل امكانية ارسالها قريبا» . المقدم الشاب ، مهمل او كسول، لم يرسل رسالته بالشيفرة . اعطى نصها الى بواب فندقه ، وفي مســاء اليوم نفسه قرر عملاء الموساد الذين يراقبون العملية من بعيد ان ينتقلوا للمرة الثانية الى الشروع بالعمل .

انهم اتخذوا جميع الاحتياطات مذ ادركوا ان اعداءهم هــم ايضا يسعون للحصول على السلاح من اوروبا وخاصة من تشيكوسلوفاكيا. شاؤول أفيغور استدعى امنون يونا الى فندقه في جنيف وعهد اليه بقيادة قسم جديد للموساد مكلف بتخريب السلاح الذي يشتريه العدو فــي الخارج.وقد اقيم المكتبالمركزي لتلك الوحدةالصغيرة للصدام فيميلانو، في الرقم ٢ شارع برانسيب اميديو ، وكان في تلك البناية جهاز الارسال والاستقبال الذي يؤمن اتصالات الكوماندو . افتتحت قاعدة للتدريب لرجال الضفادع ، على شاطىء البحر في فورميا ، تستقبل المتطوعين الذين قدم كثير منهم من باليام .

وكان خير «أذن (١)» لامنون يونا هو «ماريو» ، وهـــو كابتن سابق في البحرية الايطالية ، مكلف بالاتصال مع سلطات الميناء ومــع الاوساط الملاحية .

---

(١) أي أنه كان جاسوساً للصهاينة داخل سلطات الميناء الإيطالي .

حسب المعلومات التي جناها ماريو ، فان السوريين يفكرون بنقل، بنادقهم وذخائرهم الى جنوه ، التي وضعت تحت مراقبة الجيش الايطالي منذ انتشالها من الماء • وينوون شحنها على الباخرة «الخديوي اسماعيل ابراهيم» التي ستتوقف قريبا في المرفأ الكبير • وهناك وسيلتا نقـــل ممكنتان بين باري وبين جنوه : الطريق البري او البحر •

اذا ما شحنت الصناديق بالكميونات فقد تقرر اعتراض طريـــق القافلة الصغيرة في الارض المكشوفة وشل السائقين والمرافقين ، ثـــم اخفاء الاسلحة مؤقتا في احد معسكرات الموساد قبل نقلها الى فلسطين• ولكن ذلك قد تنجم عنه سلسلة من المخاطر : فقد تجـري الدماء ، وقد تنساق السلطات الايطالية التي تغافلت عن عملية باري الى ان تعدل عـن «حيادها العطوف (١)» • وعثر على حل آخر أدق : «اقناع» (مخلص البضائع) الذي اختاره المقدم السوري فؤاد مردم بك، وهو السيد جيبب مونارو ، ان ينجز الشحن عن طريق البحر، والا يهتم كثيرا بتشكيل بحارة الارجيرو ، الباخرة التي يمكن ان تقوم بعملية النقل بين باري وبين جنوه• فبعض البحارة الايطاليـــين المزعومين سيكونون من رجـــال الموساد وسيخضعون ، في عرض البحر ، المرافقين السوريين ويتجهون نحو حيفاء بعد عدة محادثات مع «ماريو» قبل السيد مونارو ان «يغمض العينين» • مبلغ مليوني لير اودع بين يدي كاتب عدل • سيدفع له المبلغ ، اذا جرى كل شيء على ما يرام •

لن تعرف الخطوط العريضة للقضية الا بعد وقت متأخر جدا ، اثناء محاكمة المقدم فؤاد امام المحكمة العسكرية في دمشق ، لكن حتى فـــي هذا الوقت لم يعرف السوريون ان اسم الشيفـــرة الذي اطلقه رجال

(١) ومعنى ذلك أن السلطة الإيطالية آنذاك كانت ضالعة مع الصهاينة ، تسمح لهم بإنشاء مطارات، وتسيير طائرات، وإقامة مراكز تدريب، وقيادات يهودية لإدارة التجسس.!

الموساد على العملية هو «عملية غور» .

لماذا هذا الاسم ؟ انه اسم شاب يهودي سقط على الجبهة السورية منذ بدء القتال . انه ابن شخص يدعى مايروف ، رئس الموساد في اوروبا ، الذي اصبح بعد مقتل ابنه يسمي نفسه «افيغور» (اباغور) ، وفي القسم الثاني من قضية لينو اصبح اسمها «عملية غور» .

استعمل الاسرائيليون في هذه المرة اساليب على طريقة ماتا هاري ، وتلك لا تطابق كثيرا اساليبهم عادة (١) . جيري بيلما لاجئة يوغسلافية تعيش في ايطاليا وتزعم انها صحافية «حرة» . تلك الفتاة الجميلة هي في الواقع خفيفة ، تقبل ان تغري المقدم فؤاد لحساب الموساد ، حسب ما جاء في الادعاء اثناء المحاكمة في دمشق . بعد فترة وجيزة من تعرف الضابط العربي الى الصحافية الرشيقة ، ترك هذا الفندق وسكن في فيللا صديقته الكائنة في ضاحية سكنية لروما حيث ــ تبعا لاقوال المدعي العام ــ « انهمكا وحدهما او بصحبة آخرين في حمم الملذات من كل نوع» . تعرف بواسطة جيري بيلما فؤاد على الكابتن «مارو» ، ايطالي لطيف جدا .

عندئذ عدلت الخطة المبدئية ، وكان لنصائح «ماريو» الفضل الاكبر في التعديل . لماذا ارسال الاسلحة المنتشلة من البحر الى جنوه ، وذلك يكلف غاليا جدا،بينما يكون من الاسهل ارسالها الى بيروت مباشرة؟ ووافق المقدم فؤاد بحماسة على تلك الفكرة . وراح مخلص البضائع مونارو ، بعد ان قبض الليرات المجمدة لدى كاتب العدل ، يعد الشحن فأدخل بين بحارة الباخرة عميلين ايطاليين من الموساد، بصفة ضابط ميكانيكي وضابط ميكانيكي مساعد .

(١) يعود الكاتب ليدفع عن جاسوسية الصهاينة تهمة استخدام الجنس في عملياتهم .

تركت الباخرة (آرجيرو) ميناء باري في١٢ آب، الساعة العاشرة صباحا وسارت متبوعة على مسافة معقولة، من قارب، ركابه هم مجموعة منأزلام الموساد . وسار المركبان معا ، احدهما يتبع الآخر على مسافة معقولة، دون ان يثير شبهة، وفي ٢١ آب عطل «الميكانيكيان» (الارجيرو) بمحاذاة (الدوديكانيز) ليفحصا المحرك : مصادفة مدهشة : بعد مضي ساعة اقترب قارب ، وضابطان مصريان بيزتهما العسكرية ، وبسلاحهما صعدا على ظهر الارجيرو . اعلنا انهما موفدان من قبل المقدم فؤاد ليحميا السفينة من هجوم محتمل دائما ، من قبل اليهود . هدفهما الاول هو الطلب الى القبطان ، ان يتنازل لهما عن غرفته، كي يجهزا فيها محطة اذاعة تسمح لهما ان يبقيا على اتصال دائم «برؤسائهما» . في الليل ارسلا رسالتهما ، لم تكن موجهة الى دمشق او القاهرة ولكن الى تل ابيب ، موجهة الى السيد ليفي اشكول الذي كان حينئذ المدير العام لوزارة الدفاع ، هذا نصها :

« السفينة بين أيدينا . عُمِّدت من جديد باسم «القرصان» . الكابتن الجديد هو دوديل. المساعد الجديد هو أوفيد. ارسلوا تعليمات. انتهى » .

الضابطان المصريان المزعومان شرحا للكابتن ولبحارته ان المقدم فؤاد اعطاهما الامر بالاتجاه الى الاسكندرية بدلا من بيروت ، كي يتلافوا فخا نصبه «الصهيونيون» . وهو يعلن لهم عن منحهم مكافأة حسنة عند الوصول الى المرفأ .

الاسرائيليون هم اذن سادة على ظهر السفينة لكنهم شرعوا يتساءلون: ماذا نصنع بهذه السفينة ! وراحوا يجدون الوقت طويلا وهم مضطرون الى مراقبة ردود فعل البحارة . وامطروا القيادة العامة في تل ابيب بوابل من البرقيات من هذا النوع :

« نقترح الاتجاه الى حيفا حيث تفرغ حمولة السفينة ويعاد البحارة الى ايطاليا » •

لكنهم لم يتلقوا اي جواب • وفي تلك الاثناء كان يسود فلسطين وقف اطلاق نار فرضته الامم المتحدة بجهد كبير • وكـان موظفو وزارة الخارجية يؤكدون على التأثير الرديء الذي سيحدثه في الرأي العـام الدولي دخول سفينة محملة بالسلاح الى مرفأ حيفا ، حتى ولو كانت تلك الاسلحة موجهة في الأصل الى دولة لا تجد اية غضاضة في انتهاك وقف اطلاق النار • فيجب الأخذ بعين الاعتبار ايضا، حسب رأي الدبلوماسيين، الانعكاسات التي يمكن ان يحدثها في ايطاليا اعلان اختطاف سفينة فـي عرض البحر • عمل ينتمي ببساطة الى القرصنة البحرية • اتجـه الرأي في تل ابيب وجهة حل وسط ، فحواه التقاط البحارة الايطاليين من عرض البحر وانزالهم في اي مكان واغراق (الأرجيرو) المعاد تعميدها باسـم «القرصان» واغراق حمولتها معها •

شاؤول أفيغور علم بالأمر وهو في مستوطنة كينريت الذي هـو أحد مؤسسيها ، حيث اعتكف غداة موت ابنه • وبالرغم من حزنه انفعل بحميه • قفز حالا الى سيارة جيب وانطلق باتجاه القدس، وسط الليل،رغم ان الطريق غير مأمونة ومقطوعة في اكثر الاحيان من قبل كمائن عربية • وفي الثامنة صباحا دخل مكتب بن غوريون •

انه سيروي فيما بعد : « بينت له الموقف وأنهيت بهذه العبارات : يجب بأي ثمن ان تصل هذه الاسلحة الى مقاتلينا • اعطني الاذن كـي اتسلم شخصيا القضية بين يدي • كان قرار بن غوريون فوريا رغم ان بعض مستشاريه الحاضرين نصحوه بالحذر • قال لي فقط : اذهب ونفذ• استغرب صديقي يوسي الذي كان بانتظاري في الأسفل سرعة المحادثة• ذهبنا في الحال الى حيفا » •

ما كاد يصل الى حيفا ، أفيغور الذي لم يفقد شيئا من صفاتـــه كرجل عمل ، حتى اتصل بالأركان العامة للبحرية ، وحصل على أمر بأن تتهيأ في الحال ، البارجتان الوحيدتان الاسرائيليتـــان وهما (الهاغانا) و(العنيد غود) . وهما عتيقتان مجهزتان بسلاح فرنسي، لكن «القرصان» ليست بالصيد المرعب . قاد الاسطول الصغير شاؤول ياناي ، و«قبطان» الهاغانا شخص يسمى مرداخاي ليمون ، سيترانبوم سابقا .

بعد ظهر ٢٦ آب لحقت سفينتنا الحرب بالقرصان الذي كـان يدور ويدور منذ ٢٨ ساعة . نقل البحارة الايطاليين الى الهاغانا ، بينما اقتيد الضابطان «المصريان» دوريل وأوفيد ، على ظهر (العنيد غود) من اجل «الاستجواب» ومعهما حمل السلاح .

اما سفينة القرصان ، أرجيرو سابقا التعيسة ، فقد ارسلت الى القرار بضربة على مقدمها من قبل البارجة (الهاغانا) . فلكم كانت ذخيرة مدافع البارجتين القديمة ، ثمينة جدا .

ان مصير البحارة الايطاليين في العودة قد طرح مسائل خطيرة، ولم يتردد شاؤول افيغور ، المسؤول عن العملية ، في اختيار حل غير ملائم كثيرا للحقوق الدولية . احتفظ بالايطاليين اولا بالسر في سجن يافـا العسكري قبل ان ينقلوا ، بالسر دائما ، الى مستوطنة (بيت اورن) ــ القريبة من حيفا . كانوا يعاملون معاملة حسنة ، لكنهم لا يستطيعون ، بأي عذر ، الاتصال بالعالم الخارجي ، او تلقـي رسائل . وعندمـــا مات الكابتن اثر علة خطيرة (١) ، سمح للبحارة بحضور الاحتفال الديني

(١) لم يفصح الكاتب عن حقيقة العلة التي قضت على الضابط الإيطالي ، وهو الذي من دأبه نشر أدق التفاصيل ، أمـــات تحت التعذيب ، أو صفي لهدف منعه من كشف خفايا المؤامرة ، ذلك ما لم يجب عليه الكاتب ، وترك الأمر لخيال القارىء .

ودفنه في المقبرة الكاثوليكية في حيفا ، لكن مضت ستة اشهر قبل ان ينجح احد البحارة في ايصال رسالة الى قنصل ايطاليا ، الذي توجه الى السلطات القضائية الاسرائيلية ، وتمكن من العثور على آثارهم وحصل على اطلاق سراحهم في ٢٩ آذار ١٩٤٩ فقط •

اما العميلان الايطاليان للموساد اللذان ركبا (الارجيرو) ، وأحدهما كضابط ميكانيكي والآخر كضابط ميكانيكي مساعد ، فانهما انـزلا منذ وصولهما في فندق بيلما في تل ابيب ، واوصل راتبهما الى عائلاتهما بطرق ملتوية• ثم شارك الرجلان صاحب مطعم مجاور في فتح اول مطعم بتزا في تل ابيب •

استشاطت الحكومة الايطالية غضبا • ليس بالشيء المرضي لدولة ، وان كانت عطوفا ، ان ترى سلطتها موضع استهتار على اراضيها • ورغم اطلاق سراح البحارة ، رغم التعويض على مالك (الارجيرو) ، الذي لـم يخسر في المقايضة ، ووقع وصلا بالقبض والرضى ، فان روما انفعلت، روما احتجت ، روما انتهت بوضع اليد علـى زيف احـد العمـلاء الاسرائيليين الذي لا يعرف تهوره حدا • يوسيل درور ، مخـرب باري اوقف وحوكم وصدر الحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات •

انه غاضب كل الغضب على ذلك الحادث الذي منعه من متابعـة نشاطاته ، ولقي اصدقاؤه مشقة كبيرة في تهدئته • «اني اعطيكم ثلاثة اشهر ، وبعدها ، أفر» قال درور ذلك لممثلي القنصلية الاسرائيلية الذين زاروه في سجنه • السفارة التي تخشى تصعيدا جديدا للازمـة مـع الايطاليين جن جنونها ، وقدم موفد الموساد ليطمئن الرجل الصاخب • طلب اليه باسم امنون يونا ، رئيسه في الرتبة وشاوول افيغور ، المعلـم الكبير ، ان يصبر مدة ستة اشهر ، مهما يكن ذلك التوقف القسري عن

العمل كريما (١) • وكدليل على الارادة الحسنة اعلن له عن قدوم (يوسي هاريل) خير خبير في اساليب الفرار من الموساد ، الى ايطاليا ، اذا لم يستجد شيء قبل ستة اشهر فسيتسلم يوسي الأمور في يده • لن يكون مع ذلك ثمة جدوى من تدخله اذ سيمنح درور عفوا بعد بضعة اشهر من رجوع بحارةالارجيرو الى ايطاليا • وبعد خروجه من السجن، سيمضي الى اسرائيل حيث سيلمع نجمه في البحرية العسكرية •

ان البطل الاكثر شقاء في تلك المغامرةكان هو المقدمالسوري فؤاد مردم بك • بعد ابحار الارجيرو من باري ، طار الى بيروت ، ثم الى الاسكندرية ، بعد ان اعلمه «ماريو» ان ضرورة تكنيكية تقضي التوقف في ذلك الميناء • واقام حفلة كوكتيل في تلك المدينة عشية اليوم المقدر لوصول السفينة اليها • بعد بضعة ايام من الانتظار المحموم قليلاء امتطى الطائرة ليحقق في اسباب ذلك التأخير في ايطاليا • «ماريو» وجيري الحسناء نجحا عندئذ في اقناعه بأن الارجيرو ، نتيجة لعطب خفيف ، غيرت من جديد اتجاهها وانها في طريقها الى بيروت حيث ينتظر قدومها على الفور• اطمأن الضابط السوري وعاد الى دمشق ليعد شحن الاسلحة من بيروت • حوكم بجريمة الخيانة العظمى في ٢٤ آذار وحكم عليه بالحبس المؤبد مع الاشغال الشاقة • لكن التماس احد اقربائه الذي كان رئيس وزراء سابق انقذه من تنفيذ الاعدام فيه •

---

(١) ذلك تفسير صبياني آخر ، فالعميل السجون غاضب لأنه منع عن العمل ، وليس لأنه قدم ضحية وسجن !

بدأ خريف عام ١٩٥٦ مضطربا . فبعد تأميم قناة السويس من قبل المقدم ناصر ، وفشل مؤتمر مستخدمي الطريق المائية الكبيرة الدولية ، تصاعد الغليان اكثر في المنطقة . الفرنسيون مهتاجون ضد مصر ، منذ مصادرة قارب الاتوس الذي ينقل السلاح الموجه الى «العصاة» الجزائريين ، المحمل في الاسكندرية خلال ظروف حكم عليها «بالوقاحة»، وانطوني ايدن من ناحيته يترك نفسه لقيادة صقوره (١). اما الاسرائيليون فانهم حددوا منذ زمن طويل عدوهم الاول : مصر ، رغم ان الحوادث التي كانت تقع على الحدود الاردنية هي اكثر بكثير من تلك التي تقع على طول قطاع غزة .

في ٢٢ تشرين الاول بينما كان العالم ينتظر عملية ردع جديدة ضد بلاد الملك حسين ، استعمل بن غوريون لغة شرسة . واعلن : «الخطر الحقيقي الذي يتهددنا لا يتمثل بالاردن او بتلك العصابات الصغيرة من المخربين الذين ينشطون على طول حدودنا . الخطر الحقيقي هو الارادة التوسعية والعدائية للنظام الناصري . الخطر ، هو مصر » .

وافق بن غوريون مبدئيا على حملة سيناء التي قدمها له موشيه دايان وشيمون بيرس واصدقاؤهما منذ زمن طويل ، كشرط حقيقي لبقاء

(١) أي يخضع لرغبة العسكريين بإعداد حملة ضد مصر .

دولة اسرائيل • واعتبارا من ٢٥ تشرين الاول راجع موشيه دايان مع رؤساء مكتب العمليات خطط عملية «كاديش» المقررة في الاصل لفتح مضيق تيران والتي حولت باتجاه قناة السويس لتبرير التدخل الفرنسي البريطاني •

في ٢٧ تشرين الاول وصل الى حيفا مئتا شاحنة من طراز دودج (٦×٦) مرسلة من قبل الفرنسيين • ستتيح لكتيبة المظليين (٢٠٢) التي كان عليها اجتياز منطقة تلال رملية صعبة جدا ، الانضمام الى رجال أريك شارون الذين سيكونون قد قفزوا فوق شعاب ميتلا وقبضوا على موقع حصين على بعد خمسة عشر كيلومتر من القناة •

كل ذلك كان مقدمة لما سيسميه المصريون قريبا « العدوان الثلاثي الغادر» • نجح ناصر في ان يبلور حول شخصه فيضا من الاحقاد • انه نجح في ان تتحالف ضده مصالح مختلفة متباعدة كمصالح الاشتراكيين الفرنسيين المتورطين في مشكلة الجزائر ، ومصالح البريطانيين المحافظين الذين يلعبون لعبة معقدة في العالم العربي ، ومصالح قادة تل ابيب الذين يؤملون منع قيام وحدة العالم العربي الاسلامي حول (الريس) جمال عبد الناصر(١)• وقد جرت محادثات سرية جدا منذ عدة اسابيع بين اصحاب المصلحة • كانت سرية الى حد ان السفراء انفسهم جهلوا عنها كل شيء• يكفي للاقتناع بذلك قراءة «مقدمة الى السويس» التي تسرد ذكريات السيد (جاكوب تسور) الذي كان ممثل اسرائيل في باريس • قطع التيار حتى مع وزراء الخارجية ونحوا جانبا تماما • سيخلق ذلك بعض الضغينة، ستشتد كثيرا فيما يأتي ••

(١) وصف الكاتب مصالح هذه الدول بالتباعد والاختلاف بالنسبة لهدف الحرب ضد مصر، ولكنه حين عدد عناصر الاختلاف ، بدا الأمر على العكس تماماً ، إذ جمعت هذه الدول مصالح الاستعمار والخوف من تعاظم موجة الوحدة العربية التحررية ، كما يعترف الكاتب في ذات العبارة ، دون أن يحس بالتناقض المتهافت بين أطراف عبارته تلك .

ينقضي خطاب بن غوريون في ٢٢ تشرين الاول غير منظور في تل ابيب ولندن وباريس • طال الكلام في تلك المدن الثلاث عن تدخل عسكري ضد مصر الى حد ان الاهتمام بالامر قد سقط • لم يتصور احد ان احداث بودابست ستجعل العسكريين في البلاد الثلاث يعجلون الامور• ان الجنود الفرنسيين والبريطانيين ينتظرون منذ فترة طويلة الاشارة في قبرص وفي الجزائر ، والاسرائيليون كانوا شنوا العديد من غارات الردع منذ بضعة اشهر حتى يؤخذ الانذار مأخذ جد •

وكان المصريون بالمقابل هم اكثر ادراكا للخطر الذي يتهددهم • غداة خطاب بن غوريون التقى في عمان رؤساء اركان الجيوش السورية والاردنية والمصرية ، حيث جددوا شرعية معاهدة الدفاع المشترك في حال اعتداء من جانب العدو • كان لذلك الاجتماع مع ذلك فائدة ثانوية بالمقارنة الى الاجتماع الذي عقد يوم ٢٧ في دمشق ، حيث وقع المصري عبد الحكيم عامر ، والسوري توفيق نظام الدين ، معاهدة دفاع جديدة • وكان اكثر من اربعين خبيرا في الاسلحة الثلاثة ، قدموا مباشرة من القاهرة ، واعدوا بيانا مفصلا عن عتاد الجيشين مع زملائهم السوريين • وكان الرجل القوي في دمشق ، وهو شكري القوتلي ، قد حضر بنفسه الاجتماعات قبل سفره الى موسكو ، وفيها قابل بعد ثلاثة ايام السادة بولغانين ومولوتوف وميكويان • انتهت الاجتماعات في ٢٨ تشرين الاول بنتائج حكم عليها بالايجابية في القاهرة وفي دمشق •

في صبيحة ٢٩ تشرين الاول ، العسكريون المصريون الذين أحسوا بارتفاع الحمى في المنطقة عادوا الى بلادهم على ظهر طائرتين عسكريتين• اشترك في ذلك الوداع في المطار رئيس الاركان العامة السوري وعدة عشرات من الضباط واخذت لهم التحية ثلة من حرس الشرف وعزفت الاناشيد العسكرية •

اقلعت الطائرات بفارق دقيقة واحدة في العاشرة صباحا في اللحظة التي اعلنت الحكومة الاسرائيلية فيها النفير العام «كي لا نفاجأ بهجمات صادرة عن الجنوب او الشمال او الشرق ويجب علينا مواجهتها بوسائل دفاع غير كافية» .

وبعد اقل من ساعة من الاقلاع من دمشق ارسل ربان احدى الطائرتين المصريتين رسالة يائسة : «انفجار في الطائرة» ، ثم سكت الارسال ، سكوتا نهائيا . سقطت الطائرة في البحر تجاه مدينة صور اللبنانية . كان عليها حوالي عشرين ضابطا مصريا ، منهم رقم ٢ في مخابرات الجيش ، العقيد شربجي .

اعتداء اسرائيلي ؟ لم يكن ممكنا ابدا الحصول على أقل تأكيد حول هذا الموضوع من اسرائيل ، بيد ان صحافة بيروت ، ولعلها استقت معلوماتها من «المخابرات» ، اكدت عدة مرات ان عملاء الموساد نجحوا في وضع قنبلة داخل الطائرة لاغتيال المشير عبد الحكيم عامر ، الذي كان يعتبر في ذلك الوقت واحدا من المع الرؤساء العسكريين المصريين واكثرهم فاعلية ونفوذا .

واقعة غريبة حول هذا الموضوع : لقد تأكد اليوم انه «حين اعلان الكارثة اصدر الاميرال سليمان عزت امرا الى ابراهيم الاول» بترك مرساها في بور سعيد والتوجه الى مكان المأساة ، بينما يؤكد الجنرال موشيه دايان في «دفاتر سيناء» ان امر الاقلاع ذلك كان اعطاه قبطان البارجة حسن رشدي طمزان مباشرة بعد بدء الهجوم الاسرائيلي ، دون اعتبار الكارثة الجوية بل حتى دون الاشارة اليها .

امضى ملاحو «ابراهيم الاول» نهار ٢٩ في التزود بالوقود واملاء المخازن وتركت بور سعيد في المساء. وبالرغم من حجمها المتواضع نسبيا فان هذه البارجة ، في ذلك الوقت، هي «قطعة كبيرة» في الشرق الادنى. وزنها ١٤٩٠ طن ، مسلحة باربعة مدافع من عيار ١٠٢ مم ، ومدفعين

مضادين للطائرات من عيار (٤٠) مم وهي تحمل تجهيزات مضادة للغواصات ورادارا حديثا • تبلغ سرعتها ٢٧ عقدة • انها وحدة قديمة في البحرية البريطانية ، اعيرت الى الصين الوطنية قبل ان تشتريها مصر، مع بارجة اخرى من الصنف نفسه • هاتان السفينتان تبادلتا اسمهما عندما لاحظ الملك فاروق في جولة بحرية ان «محمد علي» هي اسرع من «ابراهيم الاول» • «يجب الا يذهب الابن اسرع من ابيه» قال الملك البدين ، آخر عقب لسلالتين ملكيتين «ألبانيتين» في مصر •

ينظر الى قبطان البارجة النقيب حسن رشدي طامزان على انه واحد من خيرة ضباط البحرية العسكرية المصرية • انه تابع تدريبا عاليا في البحرية الملكية ، وبحارته جابوا البحار • وصلت السفينة بسرعة كبيرة الى المكان المفترض حيث اختفت الطائرة ، والذي سبق ان حومت فوقه طائرات مصرية ولبنانية وسورية • لم تعثر على اية آثار • وفي المساء عندما طلب طمزان تعليمات جديدة ، تلقى رسالة شيفرة • اخطره الاميرال عزت بالهجوم الاسرائيلي على سيناء وعهد اليه بمهمة الاغارة ، على سبيل الردع ، على ميناء حيفا وضرب مصفاتي كيشون • سيساند ابراهيم الاول ويحميها في هذه المهمة وحدات مصرية اخرى ، لكن النقيب طمزان الذي كان تجاه الشواطىء اللبنانية اختار استعمال المفاجأة وعدم انتظار قطع بحرية اخرى لن تنضم اليه قبل طلوع النهار ، وذلك ما يسمح للطيران الاسرائيلي بالتدخل [1] .

وفي الساعة الثالثة والنصف كانت بارجة ابراهيم الاول على بعد ستة اميال تجاه حيفا واطلقت ٢٠ قذيفة ، وهي تتحرك بسرعة ١٢ عقدة تقريبا • اصيب الرصيف وورشات البناء باضرار ، لكنه لم تقع ضحايا• شاهدتها الرادارات الاسرائيلية لكنها لم تتثبت من انها قارب عدو • كان

(١) الحادثة معروفة ، ويحاول الكاتب اخفاءها وهي تدخل الطيران الفرنسي وليس الطيران الاسرائيلي .

ثمة عديد من السفن في ذلك المساء في عرض المرفأ الاسرائيلي الكبير. انها المدمرة الفرنسية كيرسانت التي كانت اول من اكتشف البارجة المصرية في الساعة الثالثة و٣٨ دقيقة : واطلقت ٦٤ قذيفة ، بعضها اصاب الهدف . ومع ذلك ، ولخيبة ملاحي الكيرسانت الكبيرة ، اصدر الاميرال بارجو ، القائد المساعد للجيوش الفرنسية البريطانية امرا بعدم مطاردة ابراهيم الاول ، اذ لم تكن جيوش الحلفاء قد تدخلت رسميا . اوقفت الكيرسانت المطاردة ، وذلك بعد فترة قليلة من الزمن من وضع البارجة المصرية نصب الهدف ، لكنها أخطرت اركان البحرية الاسرائيلية التي استدعت قطعها والتي كانت تراقب مخارج الموانىء المصرية ، الى الجنوب .

ان البحرية الاسرائيلية ، السلاح «الضحية» في البلد ، ليس لديها سوى مدمرتين صغيرتين تلقي بهما في المعركة ، يعود تاريخهما الى الحرب العالمية الثانية وسلمتا من قبل البريطانيين في آب ١٩٥٦ . انهما «يافا» و«ايلات» (التي سيغرقها المصريون بعد احد عشر عاما تجاه بور سعيد).

هجمت اليافا والايلات باتجاه الشمال والتقطتا على شاشات الرادار هيكل ابراهيم الاول في الساعة الخامسة صباحا . بدأت المطاردة ، وقد تخللها عديد من التقلبات . وفجأة شاهد الاسرائيليون اربع قطع بحرية ثقيلة الحمولة . نجدة مصرية ؟ نجدة سورية ؟ بل انها اربع سفن اميركية من الاسطول السادس تتجول هي ايضا في تلك المياه المضطربة والمطروقة .

الساعة السادسة صباحا ، قام حوار عجيب بين ابراهيم الاول ومطارديها . اليافا وايلات تطالبان السفينة المصرية التي تفر باتجاه الشمال منذ ان قطع عليها طريق العودة باتجاه مصر ، ان تظهر هويتها :

ــ « اثبتوا هويتكم » .

ـ « اثبتوا هويتكم خلال ثلاثين ثانية ، والا فتحنا النار » •

لم يعد امام ابراهيم الاول مجال للاختيار • اطلقت النار وهي تضاعف سرعتها ، وبدأ تبادل اطلاق النار بين السفن الثلاثة، دون جدوى• لكن النهار اشرق • وطائرات اسرائيلية ، داكوتا اولا ثم طائرتان اوراغان هجمت على السفينة المصرية بالمدافع وبقذائف ١٦ مم • اصيبت مقدمة ابراهيم الاول ، وعندما ادرك قائدها ان التيار الكهربائي قد قطع وان مصعد مخازن الذخيرة قد تعطل ، رفع العلم الابيض • اعطى الربان حسن رشدي طمزان الامر بفتح العنابير تحت خط العوم ، لكنها كانت صدئة لذلك استحالت المناورة •

وكان آخر تبادل رسائل راديو بين ابراهيم الاول وبين قيادة الاسطول في الاسكندرية هو التالي :

ابراهيم الاول الساعة السابعة و٣٢ ـ تتخلى عن السفينة • سنستسلم •

الاسكندرية الساعة السابعة و٣٧ ـ اديتم جميعكم مهمتكم • ذلك مدعاة لاعتزازكم • سيكون الوطن فخورا بكم دائما • سنعتني باسركم• ليكن الله معكم •

ابراهيم الاول الساعة السابعة و٥٥ ـ فتحنا عنابير التوقف لنغرق السفينة • اننا بين مدمرتين اسرائيليتين يافا الى اليسار ، وايلات الى الميمنة • *

اصيب من بين البحارة المصريين ستة بين قتيل وجريح ، والتقط الاسرائيليون حوالي خمسين بحارا عربيا من زورق انقاذ ثقب قعره

(*) لم يستطع المؤلف أن ينكر على طقم المدمرة ابراهيم رجولتهم ، وهو الذي يحاول التقليل من حجم المقاتل العربي وتضخيم حجم المقاتل الاسرائيلي .

بصواريخ طائرتي الاوراغان • اول رجل صعد على ظهر السفينة الاسيرة هو قائد الايلات • خاطب المصريين من مكبر الصـوت ليطلب اليهم ان يتجمعوا عند المقدمة • وكان عليه ان يواجه مسائل دقيقة تتعلق بالتقاليد الرسمية المرعية ، اذ ان البحارة العرب عندما اقتنعوا ان سفينتهم ستغرق بين دقيقة واخرى تجرد اغلبهم عن بزاتهم الرسمية ووقفوا في ثيابهـم الداخلية • ألح الضباط كي يمنحوا فسحـة من الوقت لارتداء بزاتهم «قبل ان يقدموا انفسهم الى غالبيهم» ، وذلك ما سمح لهم به • امـا الملاحون فكانوا ضحية حركة بلبلة حين صعـد الاسرائيليون على ظهر بارجتهـم • لم يبـق سوى اخمـاد حريقين صغيرين على ظهـر البارجـة • وفي الساعـة الثالثة عشرة و٤٥ دقيقـة ، دخلت ابراهيم الاول دخولها الظافر ميناء حيفا ، ترافقها الايلات ، وترفع العلم الاسرائيلي •

بعد بضعة ايام ، وبعد تصليحات طفيفة ، اشتركت وحـدة جديدة في الاسطول الحربي الاسرائيلي في العمليات ضد مصر ، اسمها : حيفا، ابراهيم الاول سابقا •

انفجرت قضية قوارب شيربورغ رسميا في ليلة عيد الميلاد عـــام ١٩٦٩ • انها بدأت في الواقع قبل ذلك بعام تقريبـا ، في ٣ كانـــون الثاني ١٩٦٩ • وكان ذلك اليوم يوم جمعة• وكان الاسرائيليون قد قاموا يوم السبت ، بغارة ردع ضد مطار بيروت الدولي ، والجنرال ديغــول قرر حظرا كاملا على تسليم السلاح المتجه الى الدولة العبرية • وكـــي يكون الجزاء على قياس الاهانة قرر ، من هو أسمى الفرنسيين مقاما ، الا تعلن التدابير رسميا الى اصحاب العلاقة ، انما ان يخطروا بواسطة رجال الجمارك • وكان مجلس الوزراء في باريس لم يخبر ولم يستشر•

ومع ذلك فان موظفا فرنسيا كبيرا ، رغم ولائه تجاه الحكم ، حاول ان يخفف من حدة الموضوع • انه السيـــد جان بلانكار ، المندوب الوزاري للتسلح ، الذي يقيـــم علاقات شخصية طيبة مـــع الاميرال (مورداخاي ليمون) رئيس البعثة العسكرية لشراء السلاح في باريس • ليمون هو واحد من اكبر زبائن بلانكار الاجانب • لذلك اراد بلانكار اخطاره بالتدابير التي اتخذها الجنرال ديغول •

دامت المقابلة نصف ساعة • اكد السيد بلانكار بعبارات عامة جدا ثقته في المستقبل وتمنى الا يمنع «هذا الانقلاب» التعاون الفرنســـي الاسرائيلي من ان يستأنف من جديد في ايام افضل •

«موكا» ليمون ، يصغي الى محدثه بشيء من الشرود • ينظر الى ساعة يده بلا انقطاع من طرف عينه ، وما ان يستطيع الانصراف حتى يتدحرج على السلم • لا يضيع الوقت حتى للذهاب الى مكتبه، في شارع مالزرب، انما يتهافت على اقرب بائع تبغ حيث يطلب في الهاتف شيربورغ على الفور • فندق اطلنتيك • يتلفظ بعض جمل بالعبرية • ثم يذهب الى تمضية السهرة بهدوء في منزله وحده برفقة امرأته راشيل •

في اليوم التالي بعد الظهر ، وفي غضون ساعتين ، كانت السفينتان الصغيرتان السريعتان رقم ٦ ورقم ٧ المشيدتان لحساب البحرية الحربية الاسرائيلية من قبل «الانشاءات الميكانيكية في النورماندي» قد تركتا ترسانة شيربورغ ، حيث أنزلتا الى البحر ، لتقوما بتجارب في عرض البحر • لم يكن قد انجز صنع هذين القاربين تماما بعد • والرقم «٧» منهما لم يسقف بعد كلية • سلطات الميناء ورجال الجمارك اتنابتهم بعض الدهشة لكنهم يتركون الامور تسير سيرها • وموظفو الجمارك المساكين لم يدروا انه لهذا السبب ، بعد الظهر ، صدرت تعليمات برقية تحتم عليهم الا يسمحوا بذهاب اي عتاد مرسل الى اسرائيل • يوم الاثنين صباحا : يجب مواجهة اليقين : ترك القاربان شيربورغ بلا نية في العودة• سيحدد مكانهما بسرعة بواسطة الملاحة الجوية في غربي البحر الابيض المتوسط ، حيث سيزودوا بالوقود بواسطة ناقلة نفط قدمت من حيفا لملاقاتهما • وفي باريس سئل الاميرال ليمون فلم يبد أية صعوبة في الاعتراف بان القاربين قد تلقيا بواسطة اللاسلكي اثناء « تجاربهما » الامر بالاتجاه مباشرة الى اسرائيل • وقال «موكا» موضحا : « انهما سفينتان مدنيتان ، غير مسلحتين ، وامتلكتا بشكل شرعي» •

لكن ذلك في الواقع كان خرقا متعمدا للحظر الثاني ، الذي قرره الجنرال ديغول : انه يمكن اللعب على الساعات ، والزعم ان القاربين

استفادا من ضرب من التسامح قبل ان يبلغ رجال الجمارك الفرنسية رسميا • في الواقع ، الوضع مختلف جدا • فقد نجح الاسرائيليون في «تهريب» قاربيهما بفضل تحركهم بسرعة كبيرة جدا ، وفي اتهازهم ضربا من «التوازن» داخل الادارة الفرنسية •

لم يثر عمل الكومندو الوقح هذا غير ردود فعل معتدلة جدا من جانب الايلزة : نقل مسؤولان في جمارك شيربورغ الى كولمار ، وذلك ما يمكن اعتباره كعقاب مسلكي ، لكن التحقيق لن يذهب الى ابعد ، وأحيطت القضية بكاملها بكتمان كبير • الى درجة انها لن تذكر الا بعد مضي عام من قبل الصحافة الفرنسية والدولية •

لماذا ذلك الصمت ، بينما اهينت سلطة الدولة علنا ؟ من المحتمل ان الجنرال يكره ان يعترف بصورة علنية انه كان العوبة • لكن ثمة ما هو اكثر اهمية وان السبب الحقيقي لسكوت السلطات الفرنسية سيكون له تأثير ضخم على ولادة قضية القوارب الثانية •

تلك السفن الصغيرة السريعة الشهيرة قد صنعت حقا في فرنسا ، لكن من الصعوبة اعتبارها «فرنسية» بكليتها ، وفي هذا يكمن احد مفاتيح تلك البلبلة • فالاميرال شلومو ايرل ، رئيس اركان البحرية الاسرائيلية شعر في مطلع عام ١٩٦٢ بالحاجة الى امتلاك زوارق مضادة للقوارب السريعة القاذفة للصواريخ من نوع كومار التي سلمت الى المصريين من قبل السوفييت • اجريت طلبية من مصانع سفن لوئرسن في بريم في الجمهورية الاتحادية الالمانية لاثني عشر قارب قادرة على حمل صاروخ بحر ـ بحر المسمى (غبرييل) الذي انشأه الاسرائيليون بمساعدة سرية من قبل شركة مارسيل داسو • رسمت المخططات بمساعدة الالمان وسلمت السفن الثلاث الاولى ، المعمدة باسم «جاكوار» ، في التاريخ المحدد ، الى البحارة اليهود الذين قدموا لاستلامها •

في نهاية سنة ١٩٦٤ نشر سر في النيويورك تايمس (كما فعلت فيما بعد في قضية الميراج الليبية) أثار ازمة سياسية • مجلس وزراء المستشار ايرهارد ، المنقسم جدا حول الموقف الذي يجب اتخاذه تجاه العالم العربي تضايق من ذلك الكشف المدعم بوثائق صحيحـــة عن اتســـاع التعاون الجرماني ـ الاسرائيلي • ولانقاذ ما هو جوهري في هذا الموضوع قرر الفريقان متفقين ، نقل طلبية القوارب التسعة «جاكوار» الاخيرة الـــى مصنع سفن اجنبي • ستستمر المانيا في تحمل التكاليف المالية الاساسية حسب آخر «بند» من اتفاق اديناور ـ بن غوريون • وبدا اختيار فرنسا منطقيا لجميع اصحاب المصلحة • هذا البلد هو اكبر مورد للعتاد الحربي الى الدولة العبرية ، التي ما تزال علاقاتها السياسية معها جيدة جدا • بالنسبة لشيربورغ ولشركات «الانشاءات الميكانيكية فـــي نورماندي» التي يديرها السيد فيليكس اميوت ، انها كانت عملية تجارية ممتازة ، مع زبائن لهم سمعة متحققة يدفعون عـــدا ونقدا • وسيسمح ذلـــك بتنشيط الاقتصاد في المرفأ الكبير النورماندي الذي كان يسوده ركود وهزال منذ زمن طويل • تلك هي اذن «الجاكوار» المتجنسة فرنسية ، لكن المخططات تبقى جرمانية اسرائيلية ، والمحركات هي من ماركـــة (مانسمان) مصنوعة في الرور ، وعدة تسليحها يقدمهـــا الايطاليون • وينبغي ان يتم تركيبها ، كما حدث للنماذج الاولى ، في ترسانة شبيتزا، والمال قسمه الاكبر يأتي من بون • انه فعلا لمـــن العسير اطلاق الصخب والضجيج لمناسبة رحيل قاربي رقم ٦ و٧ • فبعد تقليب الامر على جميع وجوهه قرر الجنرال ديغول تناسي القضية (١) • واستمرت الحيـــاة في شيربورغ كالمعتاد •• حتى ان البعثة الاسرائيلية الدائمة ، المقيمـة في ابنية فندق (اطلنتيك) الذي يملكه السيـــد اميوت غدت مستعمرة

---

(١) يقصد الكاتب أنه لكون هذه القوارب قد ساهمت فيها عدة دول ، واستفادت فرنسا منها ، فإن ديغول فضل عدم إثارة ضجة عل إثر تهريب القاربين الأولين .

صغيرة حقيقية • ولقد لحقت بأغلب البحارة والتقنيين أسرهم ، وصار الاولاد يذهبون الى المدرسة • وكان سكان شيربورغ ، بما فيهم مناضلو النقابات اليسارية« C.G.T. »يلتزمون ضربا من السكوت المتآمر حول صنع القوارب ووجود الاسرائيليين • كل شيء يجري طي كتمان كبير ، وصحفيو «صحافة المانش» انفسهم (الجريدة الوحيدة في شيربورغ) قبلوا بالتواطؤ في تلك اللعبة •

كانت السلطات الفرنسية متضايقة جدا بعد الحظر الاولفي ٣ حزيران ١٩٦٧ • فالصفة «الدولية» للقوارب تمنع مراقبة بوليسية صارمة جدا ، والعسكريون رفضوا مسؤولية الاحتفاظ بالقوارب داخل الترسانة البحرية ، وكلما انزل واحد منها الى البحر ، أخرج ليربط في حوض مرفأ المحيط • وبين اعضاء الحكومة اعتبر تصرف الاسرائيليين يوم ٤ كانون الثاني ١٩٦٩ انه كان بدافع الانفعال ، وانه ليست لهم اية مصلحة في التعجل وقطف الثمرة قبل نضوجها والقيام بعملية كومندو يمكن ان تقود باريس الى «كسر» آلات صنع العتاد العسكري التي ما زالت بعد تدور ، برضى باريس الضمني ، لترسل انتاجها الى تل ابيب • لهذا السبب تقرر بشيء من التردد ، ترك القوارب تقوم ببعض التجارب في عرض البحر ، التي تقودها احيانا الى محاذاة الشواطىء البريطانية • ولذلك فانها تستطيع الفرار بسهولة في مثل تلك الظروف ، وانها لم تفعل • اذ ان مصلحة الاسرائيليين الانتظار حتى يتم انشاء جميع سفنهم، وبعد انزال القارب الثاني عشر والاخير الى البحر ، حينئذ فقط يمكن ان يُدفعوا الى الحركة ، لكنهم خلال الاشهر التسعة الاولى من سنة ١٩٦١ يبدو انهم غدوا «عقلاء» جدا •

تخلل تلك الفترة بالفعل سلسلة من مواقف سوء تفاهم، ومن الخيبات، ومن وعود أسيئتصياغتها او أسيء فهمها، وقد ادتالى تعكير الجو بشكل

محسوس • ومع الجنرال ديغول كان كل شيء يسير سيرا نسبيا ، تم ان سفير اسرائيل ظن انه فهم من تلميحات خلال مقابلة بقيت حتى الآن سرية مع رئيس الدولة الفرنسية في ٣ حزيران ١٩٦٧ ، قبل يومين من بدء الحرب ، « ان كل شيء يمكن تسويته (١) » • بعد الغارة على مطار بيروت ، ذهبت الآمال الاخيرة هباء منثورا • غير ان رحيل الجنرال ديغول اعاد طرح جميع المسائل في ربيع ١٩٦٩ (٢) •

في مطلع شهر تموز افضى السيد شلبان ديلماس الى راديو اوروبا رقم ١ بحديث اعتبر مشجعا ، ولمح بوضوح بامكانية حدوث تطور في الموقف الفرنسي المتعلق بمشكلة الحظر ، اذ ان كبار موردي الاسلحة الى الشرق الادنى لم يقتفوا اثرها • والسيد جورج بومبيدو نفسه ، رغم الحذر الشديد في اقواله ، فقد لمح يوم ١٠ تموز في اول مؤتمر صحفي كبير عقده اثر استلامه سدة الرئاسة لسبع سنوات مقبلة ، الى امكانية رجوع محتمل عن الحظر عن انواع منتقاة من الاسلحة المسلمة الى الدولة العبرية •

وفي ٤ آب سلم مستشار السفارة الاسرائيلية في باريس السيد ايتان «اوتو» رون في الكيه دورسيه ، قائمة طويلة بقطع التبديل التي تود اسرائيل اقتناءها من فرنسا • وتتكون تلك الوثيقة من اربع صفحات مضروبة على الآلة الكاتبة • فكرة الاسرائيليين بسيطة جدا : انهم يريدون الحصول على نوع من «الحصة» السنوية لشراء عتاد عسكري يبلغ خمسة ملايين دولار • انهم صوبوا الى مرمى عال كي يحصلوا على الاقل على حرية شراء سنوية بمبلغ مليوني دولار •

---

(١) هكذا فهم رئيس وزراء إسرائيل ، في حين برهن ديغول بما لا يدع مجالاً للشك أنه أنذره بأنه في حال بدء إسرائيل بالهجوم فإن فرنسا لن تقف الى صفها .

(٢) يقصد أن فرنسا قد تعيد النظر في مسألة الحظر وسواها من المسائل المعلقة بينها وبين إسرائيل .

الاسرائيليون ، الذين تلقوا بعض التشجيعات قبل الشروع بذلك المسعى ، لم يتلقوا اي جواب سلبي • قيل لهم فقط : «انتظروا • كونوا صابرين • سننظر في كل ذلك حين العودة» •

مضى الصيف بازمته النقدية واسقاط قيمة النقد ولم يستجد بالنسبة لاسرائيل شيء ما • في بدء شهر تشرين الثاني قام «اوتو» رون بمسعى جديد يؤدي الى فكرة اتفاق ــ محدود • «ويهبط» رسميا الى مليونـي دولار في العام • ولم تتلق اسرائيل اي جـــواب • انما صارت باريس الآن تجيب بأكبر قدر من الكياسة : «انتظروا الى مطلع العام القادم» • وبالفعل كانت الحكومة الفرنسية منقسمة بين متمسكين برفع الحظر وبين انصار الاستمرار • فالحظر كان ارثا ثقيلا يود السيد شابان ديلماس ، وعديد من مستشاريه ، التخلص منه • في الايلزيه كان السيد جـورج بومبيدو متضايقا هو ايضا من هذا الحظر الذي لم يوافق ضمنيا عليـه عندما كان رئيس وزراء ، لكنه الآن مضطر الى ان يحسب حسابا للنزعة الديغولية الصارمة لدى بعض اعضاء فريقه ، وخاصة دوغولية ، غـير متساهلة ، لدى ميشيل دوبريه الذي يشغل منصبا رئيسيا في الوزارة ، كوزير دولة للدفاع الوطني • وبينما كان نفاد الصبر يعظم في تل ابيب، تصور الفرنسيون انه يمكن حمل الحمار الاسرائيلي على التقدم فـــي تقريب حزمة جزر الحظر من أنفه •

وفي نهاية الاسبوع الاول من تشرين الثاني، ذهب «موكا» ليمون، الى تل ابيب حيث قابل اولا مستشار وزير الدفاع ، الجنرال زفي تزور الذي يناديه اصدقاؤه «شيرا» والذي كانت اركان البحرية لا تكف عـن مراجعاتها الملحة له ، اذ انها لم تعد تتمكن من مراقبة السواحل (ساحل سيناء خاصة) وتطالب بقوارب سريعة • كانت بعض القطع من هــــذا الصنف قد اشتريت من اليابان ولكن كان من المؤكـد ان البحريــة

تتسلط عليها فكرة الاحتياز على تلك السفن الصغيرة السريعة من شيربورغ ، المجهزة بما يستجيب لحاجات اسرائيل تماما • جيل «يبكي» يوميا تقريبا لينال «قواربه» ••

وكان «شيرا» تزور ، وهو ذراع دايان الايمن ، مقتنعا منذ زمن طويل بضرورة توجه اسرائيل لجلب السلاح الامريكي ، ريثما تستطيع اسرائيل ان تستقل اكثر ما يمكن في مجال التجهيزات العسكرية • فهو يعتقد انه لن يستجر من فرنسا شيء بعد،ويفضي في مجلسه الخاص باقوال قاسية جدا تجاه حكومة باريس • انه بالفعل كان قد بعث في مهمة الى العاصمة الفرنسية من قبل دايان في تشرين الثاني ١٩٦٨ ليحاول تحديد الموقف • استقبل وهو مندهش حقا ببعض الحرارة من قبل السيد بيير ميسمير ، الذي كان في ذلك الوقت وزير الدفاع الوطني ، والذي افهمه بوضوح (كما قال تزور) ان كل شيء سيسوى قريبا ، وان اولى الميراج٧، الموضوعة تحت الحظر حتى قبل بدء حرب ايام الستة ، ستصل قريبا الى اسرائيل •

خطأ او صوابا يظن « شيرا » انه قد كذب عليه وان الحكومة الفرنسية تبرهن على ازدواج حقيقي • انه يعرف اكثر من غيره ان جميع الخيوط لم تقطع ، ويعرف ايضا ان الحقيبة الدبلوماسية عند خروجها من باريس تزن غالبا عدة عشرات من الاطنان (١)، ولكنه يعتقد ان باريس لن ترفع الحظر على العتاد «المهم» وان مخزون قطع التبديل هو الآن

---

(١) كما سيكشفه السيد دوبريه نفسه أمام لجنة الدفاع في الجمعية الوطنية في كانون الثاني ١٩٧٠ . (المؤلف) .

والمقصود هو أن الاسرائيليين يهربون القطع داخل الحقيبة الدبلوماسية بمعرفة الأجهزة الفرنسية . وأن أسرائيل لم تخطف الزوارق إلا بعد أن حصلت على مؤونة كافية من القطع الى مدة طويلة . (المعرب)

كاف كي نستطيع المخاطرة بتهريب قوارب شيربورغ بطريقة مصدمة قليلا ٠

ذلك تماما رأي « موكا » ليمون الساخط هو ايضا من الكلمات المعسولة ومواربات السلطات الفرنسية ، ويعتقد ان اختفاء القوارب رقم ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ لن يثير ضجة اكثر من « الذهاب للمناورة» التي قام بها قاربا ٦ و٧ ، والذي ما تزال قصتهما سرية حتى هذا الشهر : تشرين الثاني ١٩٦٩ ٠ « شيرا » و « موكا » ناقشا عندئذ المسألة مع دايان الذي اعطى الضوء الاخضر لعملية « الاستعادة » ٠ قال الجنرال الاعور : « اوافق ٠ لكن على الا تعقب امواجا ٠٠ » موشيه دايان ، بخلاف فكرة منتشره عنه جدا ، هو رجل لا يخاطر ابدا مخاطرات لا فائدة منها ٠ انه لا يتعلل بأوهام امكانية انقلاب الحكومة الفرنسية نحو اسرائيل ، لكنه يعتبر ان فرنسا ما تزال تستطيع « ان تخدم » وأنه لمن الحماقة تماما السعي لاغضابها ٠

منذ ١٠ تشرين الثاني عندما لم تكن الاتفاقية الليبية حول بيع (١١٠ من طائرات الميراج) قد ابرمت بعد، قررت تل ابيب ان تمتلكقواربها الخمسة الاخيرة ، لاسباب عسكرية بشكل اساسي ٠ لم يتصور احد في ثانية واحدة ان يكون رد فعل السيد بومبيدو اكثر قسوة من الجنرال ديغول ٠ وكان رأي الاميرال ليمون الذي يشاطره فيه كل من الجنرال (تزور) وموشيه دايان ان اختفاء القوارب سيمر دون ان يلاحظ تقريباه وبدأ الشروع في تنفيذ العملية بعناية كبيرة: انالسيد (ميلا برينر) ، رجل اعمال اسرائيلي والمساهم الرئيسي في الشركة البانامية (ارياس فابريغا) انشأ في باناما شركة «السترابوات» واستأجر باسمها صندوق بريد رقم ٢٥٠٧٨ في اوسلو ليضفي عليها هيبة نورويجية تطمئن الحكومة الفرنسية بصورة اكثر من غطاء باناما ٠

وليجعل السيد برينر كل ذلك اكثر «جدية» عهد بتمثيل السترابوات الى السيد مارتن زيم، رجل اعمال نروجي والمدير العام لشركة اكبر، وهو المقاوم الكبير للاحتلال النازي سابقا . وكان منذ عهد بعيد قد راح يقيم علاقات ممتازة مع الاسرائيليين. ان السيد زيم هو الذي سيتفاوض مباشرة مع السيد اميوت لشراء القوارب .

الاميرال ليمون من ناحية يعلن في رسالته ان اسرائيل تتنازل عن الخمسة الموضوعة تحت الحظر في ميناء شيربورغ . هذه الرسالة التي سيتشبث بها السيد ميشيل دوبريه فيما بعد في مناسبات عديدة ليتهم ليمون « بالخيانة » كانت موجهة الى السيد فيلكس ، ولم توجه الى وزارة الدفاع الوطني في باريس .

وكانت اضبارة «قوارب» قد فحصت في ١٨ تشرين الثاني في باريس من قبل اللجنة الوزارية لتصدير العتاد الحربي . اجتماع عادي . شراء القوارب الخمسة من قبل (الستاربوات) عرض بسرعة في نهاية الجلسة من قبل المهندس الجنرال (لويس بوتتيه)، الذي اشار الى ان هذه المشكلة المزعجة قد سويت . والتقرير الذي اعده الجنرال (غيلما دو موتتبلانيه) لم يلحظ اي شذوذ . شركة (ستاربوات) تدفع نقدا بالدولار ، وبعض الوزراء لم يخفوا رضاهم حين اخبروا . والسيد موريس شومان نفسه اعلن : « انه اتفاق ممتاز يصلح ان يكون نموذجا » .

وعندما تنفجر الفضيحة ، فان اعضاء اللجنة الوزارية الذين اجتمعوا في ١٨ تشرين الثاني يغدون كبش الفداء بالنسبة للحكومة الفرنسية : بصورة خاصة المهندس الجنرال (بوتتيه) . واما الجنرال غيلمان دو موتتبلانيه فانه سينجو بمعجزة من الصواعق الرسمية ، اذ انه لم يعد في الخدمة حين عقد الاجتماع الشهير . وكان يعد عدته لينضم الى فريق مارسيل داسو . الجنرال بول كازيل ، السكرتير العام للدفاع الوطني سيصفى

ايضا «للعبرة» • وفي الواقع لا يتحمل اي واحد من هؤلاء الضباط الكبار ادنى مسؤولية في قضية قوارب شيربورغ • انهم حكموا تبعا للاوراق المقدمة ، مثلما تكون الحال عليه عادة في ظروف مشابهة ، وان ممثلي الوزارات الاخرى (بما فيها وزارة الخارجية) لم يظهروا اقل شك ولم يرفعوا الي اعتراض •

ان قضية قوارب شيربورغ الحقيقية تبدأ في الواقع غداة تلك الجلسة للجنة الوزارية • والاسرائيليون الذين رأوا ان كل شيء يسير جيدا ، وان عثرة الاجراءات الكبرى قد تم التغلب عليها ، بدأوا يعدون بجدية استعداداتهم للرحيل ، بشبه سرية طبعا ، اذ كان ينبغي ارسال البحارة اللازمين الى شيربورغ للقيام بالرحلة البحرية ، واختير لذلك بقدر الامكان شبان يهود مراكشيون لغتهم افرنسية • بيد انهم لم يمروا دون ملاحظة • فقد ظهر في شيربورغ من جديد المقدم (ازرا) ، رجل طويل ذو شارب، مألوف من اهل المدينة• انه هو الذي قاد القاربين اللذين خرجا «للتجربة» في ٤ كانون الثاني ١٩٦٩ • يتذكره الاهالي جيدا في شيربورغ اذ ان احد «رواد» الكازينو المعروف جيدا • والبحارة الشبان هم كتومون ، كسائر الاسرائيليين ، لكنهم يتكلمون ، ويصدرون بعض تلميحات • انهم يأملون بالعودة الى بيوتهم في نهاية السنة •

وعلى الجانب الفرنسي منذ مطلع شهر كانون الاول ، لم يعد ثمة مجال للشك • فان دوائر الاستخبارات العامة في شيربورغ ، وال D.S.T مصلحة الامن البحري ، ادركت ان كل ذلك الهرج معناه ان الرحيل وشيك • وابلغت جميع من يعنيه الامر • ومن ناحية اخرى كان تقرير W.D.L وهو رجل المخابرات الفرنسية في تل ابيب ، قاطعا : الاسرائيليون يستعدون لاسترداد قواربهم • وفي باريس ، الكولونيل «بومون» يكتب تقريرا ، يذهب مباشرة الى قصر الايليزيه والماتينيون •

خلال ما يقرب من ثلاثة اشهر راح يعملان «كما لو ان ٠٠ (١) » كل من ناحيته : الاسرائيليون الذين لم يقل احد لهم ان تنكرهم قد تمـزق استمروا في التخفي كما ينبغي وراءه وفي انقاذ الظواهر ٠ والفرنسيون الذين ليسوا أغرارا ، على كل حال ، على المستويين الرئيسيين في رئاسة الجمهورية ، واوتيل ماتيينون ، يتظاهرون بعدم الفهم ولا يقيمون أي وزن للتحذيرات التي تصلهم من عدة اطراف ٠ ان علة ذلـــك الصمت واضحة جدا : لم يتصور ، أي احد في ثانية واحدة ، من بـين المطلعين على خفايا الامور في باريس ان الاسرائيليـين «سيهدمون السقـــف» وكذلـــك لم يقـــدر جانب « الكومنـــدو » فـــي اسرائيـــل ، الدولة التي غالبا ما تستعمل اساليب صدام ، دون ان ترتبك اكثر ممـا ينبغي ، بقواعد اللعبة الدبلوماسية والتقليدية ، عندما تتعرض مصالحهـا للخطـــر ٠

بعض الانفراج يتبدى حتى في باريس: فلعل الاسرائيليين سيرحلون قواربهم الى اوسلو وتركها بعض الوقت في النوروج او فيبلد اخر والقاء ظل النسيان عليها ٠ وهكذا ستسوى هذه القضية المزعجة جدا ، قضية سفن «دولية» الى اقصى حد يجمدها في فرنسا حظر لا يعـرف كيـف السبيل الى التخلص منه ٠ وسيكون من الممكن اصابة هـدفين بحجـر واحد ، بما ان شركة (ستاربوات) ستسدد (لفيليكس اميوت) قيمة تلك القوارب التي ستصل، مع ذلك ، الى هذا المبلغ التافه: عشرة ملايين فرنك ٠ السيد اميوت يهدد منذ بعض الوقت بمطالبة الحكومة الفرنسية بالتعويض بما انه ، خلافا لما جرى مع مصانع داسو في قضية الميراج ، لم يقبض القيمة سلفا ٠

في مطلع شهر كانون الاول وقع حادث مكدر جدا : انزال الـى

---

(١) يقصد : كما لو أن اتفاقاً ضمنياً كان معقوداً بين الجهتين .

البحر ، في حفلة كبيرة في ميناء شيربورغ ، «للرهيب» الغواصة الذرية الثانية في قوة الردع الفرنسية • دعي الى حفلة الاحتفال ما يقرب من مئة صحفي وخصص لهم قطار خاص لينقلهم مباشرة من محطة سان لازار في باريس الى ترسانة صنع السفن • بعض ممثلي الصحف سافروا في سياراتهم الشخصية ووصلوا الى المرفأ الكبير عشية الاحتفال• تجولوا قليلا في المدينة واثار فضولهم في حوض الاطلنتيك ،وجود تلك القوارب الخمسة ، الانيقة المظهر ، التي لا تحمل اية علامة تسمح بمعرفة جنسيتها • عندما اقترب بعض الصحفيين وحاولوا تصوير تلك القطعات، برز امامهم بحارة بثياب مدنية ويظهر انهم غير فرنسيين ، رجوهم بأدب ان يبتعدوا • بالنسبة لمراسلي الصحافة الفرنسية الخصوصيين ، ليس ثمة لغز • واغلبهم يعرفون بوجود القوارب المصنوعة لاسرائيل • وبالنسبة للاجانب ، وخاصة الانكلوسكسونيين ، كان ذلك بمثابة خبر من المفيد ابراقه الى صحفهم • انطوني مان ، من الديلي تلغراف ارسل اكثر من ألف كلمة الى لندن • وأبرزت جريدته «المقال» في مكان ممتاز، بعنوان على ثلاثة اعمدة • وتناقلت الخبر صحف يومية بريطانية اخرى ، يطالع قراءها بنهم الاخبار المتعلقة بالبحار • وانه لمدعاة للتسلية الاعتقاد بان الفرنسيين ، رغم الحظر ، يصنعون عتادا للاسرائيليين •• المراسلون المرتبطون بالوكالات الاميركية الكبيرة .A. P و .U. P. I يشيرون من ناحية اخرى على مراسليهم المحليين (الذين هم جزء من موظفي مكتب شيربورغ للجريدة اليومية الكبيرة : ويست فرانس) ان جميع المعلومات المتعلقة بتلك القوارب الاسرائيلية هي « صحيحة » •

وفي باريس عند الجنرال ليمون ، استقبلت بعدم الارتياح تلك الدعاية السابقة لاوانها • قد يدفع ذلك الى انذار دوائر الامن الفرنسية، ويجعل ذلك امر الاحتفاظ بسر رحيل الاسطول الصغير لمدة طويلة،

مستحيلا • قرر « موكا » بعد فترة تردد الا يغير من خططه شيئا اذ ان الحكومة الفرنسية تبدو غرة او تتظاهر في كل حال بانها لكذلك • ومن ناحية اخرى، ينبغي ألا ننسى ان الاسرائيليين يعرفون اليوم تماما اثر ذلك (اي اختطاف القوارب) على الاتصالات التي كانت جارية بين فرنسا وليبيا • فان عملية اختطاف القوارب لم تكن مخططة منذ البدء كعملية ردع هدفها نسف انجاز عقد لم يكن في ذلك الحين قد ابرم بعد •

في ٢٠ كانون الاول انذر وزير الداخلية في باريس مرة جديدة• اشارتدائرة الاستخبارات فيشيربورغ بتفاصيل دقيقة الىان الاسرائيليين يستعدون للاقلاع قريبا • الواقعة مثبته في مكان بارز من التقرير الملخص الذي يوجه يوميا الى اعلى السلطات • ومع ذلك لم يصدر أي رد فعل ولم يبق احد في باريس يتخيل بان الاسرائيليين سيتصرفون بطريقة سيئة، بل انهم لا بد ان ينفذوا العملية بعزيمتهم المألوفة التي عللها سفير فرنسا في اسرائيل عندما استعمل تعبير « دبلوماسية كوماندو » مشيرا بذلك الى شدة حفيظة محدثيه• فالسبب الرئيسيلسوء التفاهم هو التالي: قدرت الاوساط الرسمية الفرنسية ان على الاسرائيليين ان يقنعوا بالوعود الغامضة التي تلقوها بالتخفيف التدريجي على الحظر ، بينما اعتقد الاسرائيليون ، على خطأ او على حق ، ان السيد بومبيدو « يضللهم» منذ وصوله الى الايليزيه • ومن غير ان يؤخذ أي عهد ، ودون ان تثار المسألة ابدا تصور الفرنسيون ، ببعض السذاجة ان هدف القوارب الخمسة لا يمكن ان تكون حيفا (١) • واستمر العمل « كما لو ان •• » او « الظن ان •• » • بينما لم يحصل على اي عهد ، بل حتى لم يطلب• تلك المقدمات ستبين ان استعمالها يؤدي الى انفجارات •

« موكا » ليمون لم يفكر ابدا بارسال القوارب الى مكان اخر غير

(١) يريد المؤلف من كل هذا أن يقول أن الفرنسيين غضوا الطرف اعتقاداً منهم أن الاسرائيليين سوف يهربون القوارب الى ميناء أوربي آمن دون ضجة .

اسرائيل • لم يقترح احد عليه ذلك ، والسهولة التي وقعت بها الحكومة الفرنسية في الفخ ، كانت مدعاة لاثارة ريبة كبيرة حولها • ليمون هو بحار • يعرف جيدا ان ثمن القوارب غال جدا ، وانها سريعة جدا ، ولا يمكن تحويلها الى سفن مدنية • ومن العجيب ان احدا في باريس لم يثر اقل اعتراض ، لم يطلب اسهابا في التحقيق • ومن العسير القاء العبء كله على عاتق تحقيق اداري سريع ، ولم يستبعد « موكا » دون ان يملك البرهان ، الاحتمال بان الحكومة الفرنسية تتركه يفعل ، لكنه استبقى اذا ما تردت الامور ، امكانية الطلب الى محكمة دولية بحجز القوارب في مرفأ اجنبي في اوسلو او في بلد اخر • انه المثل السائر الذي يلخص افضل تلخيص الفلسفة الاسرائيلية في مادة شراء السلاح وهو الآتي : « واحد تمسك به خير من اثنين سوف تحصل عليهما (١) » • لم يفكر اذن قط بالقيام بدورة مرور باوسلو ، بل ان «موكا» تخلى حتى عن تجهيز القوارب بالسلاح في الترسانة البحرية الايطالية ، لاييزيا • كما كانت الحال بالنسبة للنماذج الاولى منها • الامر بسيط : الهدف حيفا ، وباسرع ما يمكن • بعد الظهر من يوم ٢٤ كانون الاول وصل الاميرال ليمون الى شيربورغ في سيارة جاكوار ذات رقم ٥٩ CD ٥٩ التي لم تكن ملكا له خلافا لما اكد غالبا ، في تحقيقات الصحافه الاولى : ان « موكا » ليمون يستخدم في باريس سيارة D.S التي هي سيارة الوظيفة. والسيارة الوحيدة التي جلبها معه الى اسرائيل هي فيات صغيرة (٥٠٠)• واما الجاكوار الشهيرة فيملكها فيكتور زيبشتاين ، احد مساعدي ليمون في البعثة للشراء في شارع هوسمان • زيبشتاين هو احد قدماء

(١) لعل هذا المثل ترجمة للمثل العربي : عصفور في اليد أفضل من عشرة على الشجرة. وبهذه المناسبة ننبه القارىء مرة أخرى الى أننا نحاول قدر الإمكان المحافظة على الأصل وأسلوب الكتابة كعينة عن أدبيات الصهاينة ، رغم ما تسببه هذه المحافظة من صعوبة النص العربي وعدم ملاءمته للأساليب العربية المألوفة . ففي هذه المحافظة كذلك بعض التنوير بعقلية المواربة والمخاتلة لدى الصهاينة البارزة من هذا الأسلوب الإيحائي والعامي في الوقت نفسه .

«المقاومين اليهود» في الجبل الاسود ، وهاو للجاز . انه صحب «موكا» الى شيربورغ ، عندما وصلت الاوراق الاخيرة التـي تسمح بالاقلاع « الشرعي » من شيربورغ ، غداة يوم العيد .

نزل الرجلان في فندق (سوفيتل) واتصلا بالمقدم ازرا ، الاليف القديم لشيربورغ ، الذي سيتسلم من جديد قيادة الاسطول الصغير . نزل الاميرال ليمون في فندق سوفيتل بهويته الحقيقية ، وذلك ما يـدل على ان هذا الاخصائي بالتخفي لم يكن راغبا في السرية . انه لم يفعل شيئا ليضيع آثاره ، ولماذا يفعل وجميع الوثائق نظامية كلية ؟ عائق صغير وحيد: لم يكن من الممكن الحصول على اعلام بانامية وهي التي يجب ان ترفع على القوارب حين خروجها من الميناء ، بما ان صندوق البريد في اوسلـو يؤلف عنصر اطمئنان وان جنسية القوارب الحقيقية هي بانامية .

كان الرحيل مقررا في البدء بعد الظهر لكن الحالـة الجوية كانت رديئة الى حد ان أيزرا وليمون قررا انتظار هدأة . استفيد من تلك المهلة الاضافية لاستكمال عملية التموين التي شارك الاميرال نفسه فيها . كان يمكن مشاهدته نازلا هو شخصيا من سيارة الجاكوار ، لشراء التبغ وزجاجات الكلفادوس ولاعتبارات الامن لم يخطر البحارة بالموعد . ولكن «الهاتف العربي» (١) دار وجميع البحارة حزموا اكياسهم . في فندق اطلنتيك ، انتشرت الشائعات بسرعة كبيرة : «انهم» ذاهبون . «انهم» سيكونون في بيوتهم في يوم راس السنة .

عند المساء ، اعلنت اذاعة (سوثامبتون) عن هدوء الطقس . وراحت محركات (مانسمان) العشرون القوية (اربعة محركـات في كل قارب) تزار ،بينما كان مئة وعشرون بحارا اسرائيليا على ظهر قواربهم ، وبعـد وداع قصير لأحد رفاقهم المريض ، والى اسرهم التي ستعود بطريـق

(١) باعتبار أن البحارة الاسرائليين من أصل مراكشي فهم يتكلمون العربية، ولعل الكاتب يريد من هذه العبارة أن خبر الرحيل قد انتشر بين البحارة بصورة غير مباشرة .

الجو ، انه الرحيل الكبير • وفي الساعة الثانية صباحا خرجت القوارب الخمسة بلا اعلام ، لكن جميع اضوائها مشتعلة ، من الحوض الاطلنتيكي الى عرض البحر من الممر الغربي • راقب رجال الجمارك بسكون رحيل القوارب • فلقد كانت وثيقة « صالح للتصدير » التي استلموها من السيد جورج لوفيك وهو مخلص بضائع مأذون ، مطابقة للاصول • موظفو الجمارك تحققوا من جميع الوثائق بدقة خاصة • انهم ما يزالون يذكرون حادث ٤ كانون الثاني ١٩٦٤ و «فرار القاربين الاسرائيليين» ، ذلك الفرار الذي كلف نقلا مسلكيا لبعض رفاقهم •

خلال ما يقرب من ٢٤ ساعة ساد الصمت ، والهدوء وتراتيل عيد الميلاد • نجحت العملية • وكانت القوارب منطلقة نحو اسرائيل دون ان يبالي بها احد • رجع الاميرال ليمون الى باريس في ليلة الخميس الجمعة، ولديه جميع الاسباب ليعتقد انه قد ربح وان اختفاء القوارب رقم ٨ و٩ و١٠ و١١ لن يثير من الاضطراب اكثر مما اثار القاربان رقم ٦ ورقم ٧ •

وكانت اليقظة مسرحية دون ان تكون دراماتيكية • مراسل الوكالة الفرنسية ACP في شيربورغ ، الذي هو محرر في « صحافة المانش » (جريدة شيربورغ) لاحظ منذ صباح الجمعة رحيل القوارب ، دون ان يدهشه الأمر فوق الحد• وكان وفيا لعهود قطعها فلم يلق فورا بالخبر، انما انتظر حتى مساء الجمعة ٢٦ • وأرسل الخبر البرقي في الساعة ٢٢ و ٢٣ وقد نقل الخبر بسرعة كبيرة الوكالتان الاميركيتان A. P و U.P.I وتطلبان المزيد من مراسليهما في شيربورغ • الساعة ٢٣ و٥٨ تؤكد وكالة الصحافة الفرنسية رحيل القوارب • كل هذا يحرك فضول جماهير الناس لكن الامر لم يصل الى حد الخطورة بعد • فالتغطية الاسرائيلية هي من الناحية القانونية متينة ، حتى وان لم تخدع احدا •

ففي نهاية ذلك العام لن تحتفظ القوارب مدة طويلة بمكان الصدارة من الاخبار •

ومع ذلك ، ففي تلك الليلة ، انها الكارثة • عند الساعة الثانية صباحا ، قرر وزير الدفاع الوطني بعد ان ضايقته الاسئلة ان ينشر بيانا• السيد دوبريه غير موجود في باريس ، ومدير مكتبه الجديد السيد (لويس ساغيه) استلم حديثا وظائفه • والبلاغ الذي نشر كان مخيبا بما لا يمكن تصوره : « انها سفن مدنية ، كانت ستسلم بصورة تجارية نظامية الى شركة نروجية »•الاسرائيليون لم يزعموا قط ان(الستاربوات) هي شركة نروجية حقا ، بل على العكس فان جميع الوثائق تؤكد انها فرع لشركة بانامية ، التي هي نفسها شركة ترفع العلم البانامي ، وكانت الغاية من صندوق البريد في اوسلو اضفاء قليل من الهيبة عليها ولتسهيل دخول مارتن زيم الى المسرح ، وهو رجل الاعمال المعروف جيدا في العاصمة النروجية •

تلك « الزلة » الفرنسية ستجر الى ردود فعل فورية • حين سأل الصحفيون سفارة النروج فانها بينت ان ليس لشركة (ستاربوات) اسم في السجل التجاري النروجي • وفي صبيحة يوم السبت اكدت اوسلو ذلك • ليس للقوارب حق رفع العلم النروجي • وهكذا تغدو قضية القوارب فضيحة القوارب• والحكومة الفرنسية ظلت خلال بضع ساعات تهدهدها الاوهام وترفض مواجهة الأسوأ من الأمور • والسيد موريس شومان وزير الخارجية يستدعي الى الكيه دورسيه « اوتو » رون، مستشار السفارة الاسرائيلية ، اذ ان السفير والتر ايتان كان في اجازة في سان موريس في سويسرا • كانت اقوال السيد شومان هامة وهي تعكس بوضوح شديد الموقف الرسمي ، قال الوزير : «لا اريد ، ولا استطيع ان اصدق ان تلك القوارب تتجه نحو اسرائيل • اني اطلب اليك

ان تقول لي ان الامر ليس هو كذلك » : صحيفة مسائية كبرى قريبة الصلة بالسلطة عنونت صفحتها الاولى : «زال اللغز عن قضية القوارب • انها في طريقها الى آلالاسكا » • رغم « الزلة » النروجية ظل الاعتقاد سائدا بانه ما يزال ممكنا انقاذ الظواهر •

خيبة جديدة • اعلنت جبل طارق ان خمس سفن سريعة جدا شوهدت حين تجتاز المضيق • و(بريغه ــ اليزه) من قاعدة (نيم ــ غارون) يشاهد قريبا قوارب شيربورغ في غربي الابيض المتوسط • انها تغذ السير على خط مستقيم نحو الشرق • وفي باريس طاش صواب المسؤولين• السيد دوبريه يفكر في لحظة، باختطافها وهي في اعالي البحار، لكن البحرية العسكرية الفرنسية لا تملك قطعا بحرية بتلك السرعة • فلا بد من الطلب الى الطيران ان يتدخل ، لكن الاحتمال ضعيف ان ينجح ذلك التأنيب البسيط في الاسرائيليين• اطلاق النار على سفن غير مسلحة؟ المخاطرة بقتل بحارة شبان يهود ، بينما الجنرال ديغول ، وقبل عام من ذلك بيوم واحد تقريبا ، لم يثأر للاهانة ؟ السيد بومبيدو من اعماق منزله الريفي في (كارجاك) ، في (لولوت) يحاول ان يهدىء وزير دفاعه الملتهب غضبا ، لكنه يؤكد له ان الاسرائيليين لن يضيعوا شيئا حين ينتظرون •

وفي ٣١ كانون الثاني جمع غداء في الايليزيه قبل انعقاد مجلس الوزراء، كلا من السادة شابان ــ ديلماس وشومان ودوبريه حول السيد بومبيدو• وكان المقصود اتهام احد والقاء المسؤولية على عاتق انسان• ولكن ليست المسألة ببسيطة، او انه لم يكن ثمة تواطؤ حقيقي ولا خفة وتهاون على اي مستوى من المستويات الادارية• فالرجال الاربعة الذين جلسوا حول المائدة جميعهم قد اخطروا، كل من جهته، خلال الاسابيع الاخيرة عما يهيئه الاسرائيليون ، وكل منهم « نفض يديه » اعتقادا منه انه ربما اعطي الضوء

الاخضر ، كما استحصل على بعض الضمانات (من جهة ما) • لكن الامر الواقع كان هو هذا : فلقد سخر من فرنسا وسلطة الدولة اهينت ، وانها لقضية قذرة •

تدابير جزائية على المستوى السياسي ! من المستحيل اتخاذها بما انه لم يغط احد العملية فعلا • والمسؤولية متحللة وغامضة بشكل رهيب• الجميع ظن ان •• لم يتصور ان ••

تدابير جزائية على المستوى الاداري ؟ الجنرال (غيلمان دو مونبلاتيه) ترك الجيش • لكن سيطلب الى المهندس الجنرال بوتتيه، مدير القضايا الدولية في المفوضية الوزارية للتسلح (D M A) والذي سيتقاعد بعد ثلاثة اشهر ان يستقيل • هذا الموظف الكبير ، النظامي ، الذي هو موضع احترام عميق من قبل اقرانه ، يحس انه لم يرتكب اي خطأ • انه يرفض تحمل وزر وصمة لم يقترفها • الجنرال بول كازيل، السكرتير العام لوزارة الدفاع الوطني ، قبل من جهته ان يُضحى به، رغم عدم علاقته بالقضية على الاطلاق • والبيان الذي صدر في ختام اجتماع مجلس الوزراء يعلن تنحية الرجلين عن منصبيهما «ووضعهما تحت تصرف» وزارة الدفاع • والمهندس الجنرال بوتتيه بعد مشادة داخلية طويلة ، رفع في ٢٥ شباط دعوى امام مجلس الدولة ، والعديد من الضباط يعبرون عن برودتهم المفرطة الى السيد دوبريه اثناء الاحتفال التقليدي في تقديم تمنيات الجيش الى وزيره • لكن الشرف الفرنسي قد سلم من الاذى ، واعلن الاميرال ليمون شخصا غير مرغوب فيه • سيترك باريس بعد ثلاثة ايام ، بعد ان اقام حفلة وداع حضرها العديد من الشخصيات الفرنسية المدنية والعسكرية •

دخلت القوارب الفارة من شيربورغ ، خليج حيفا قبل نصف ساعة من نهاية اجتماع مجلس الوزراء في باريس ، وقد كانت جلسة طويلة استثنائية ، كما لو انهما ، من كلا الطرفين ، سعيا حتى اخر لحظة للاحتراز

ضد مفاجاة ، محتملة الوقوع دائما ، فبالرغم من العاصفة في البحر الابيض المتوسط ، ومن الشروط الصعبة للتموين في البحر فقد وصل المقدم ازرا منذ عدة ساعات الى امام الشواطىء الاسرائيلية : لكنه تلقى الامر بالراديو بالبقاء في عرض البحر حتى اشعار اخر . وعندما رسا الاسطول الصغير في ميناء كيشون (ملحق ميناء حيفا) كان في انتظاره اسراب من الصحافيين الدوليين والفضوليين الاسرائيليين ، وكذلك الجنرال موشيه دايان الذي اراد ان يهنىء شخصيا البحارة . لقد استحق هؤلاء ذلك الاستقبال ، على المستوى التقني المحض على الاقل ، اذ انهم وصلوا الى قواعدهم في سرعة قياسية ، رغم الشروط الجوية غير الملائمة، على ظهر قوارب ما تزال غير جاهزة تماما ، وان آخرها لم يتم بعد جميع تجاربه . ولقد اقتضى الامر عدة مرات القيام باصلاحات مرتجلة بايد قليلة . والمقدم ازرا الذي لم يترك مركز عمله منذ ليلة الجمعة الى مساء الاربعاء ، ورغم تعبه المفرط فقد قام، حين وصوله، بدور البحار النشيط، الذي تجازوته الاحداث تماما ، امام نظارة تطرح عليه وابلا من الاسئلة. المسكين ازرا ، لم يكن يعلم بعد ان صورته ستنتشر قريبا في جميع المجلات العالمية الكبرى ، وان رفاقه في البحرية سيجبرونه على دفع حسابات كؤوس لا حصر لها ليعتذر عن « الدعاية التي نحتها لنفسه » . حاول ازرا ان يشرح لهم انه سبق له ان كسر الحظر اول مرة، منذ عام . محاولة غير مجدية . يجب ان يدفع ثمن الشراب .

سيكون حظ «موكا» ليمون اقل.فقد استقبلهو ايضا في مطار اللد من قبل الصحافة والفضوليين ومن قبل موشيه دايان . وخلال بضعة ايام، سيتحول الى بطل وطني ، وكلما دخل الى صالة مسرح او سينما يقوم الناس ليصفقوا له .

وباعتبار ان ليمون لا يملك بيتا في تل ابيب اذ عاش في باريس

منذ أكثر من عشر سنوات) فان وزارة الدفاع منحته مسكنا في فندق (هلتون) مدة شهر واحد • لكن عندما بـدأ «موكا» ، وهو الرجـل الواقعي ، يتحدث عن نية بمباشرة اعمالا مالية ، اصطدم برفض مهذب كان حلم هذا البحار الذي قاد طول ٢٦ سنة الاسطول الاسرائيلي ،البقاء في الجيش • لكنه في السادسة والاربعين غدا متقدما فـي السن جـدا بالنسبة للخدمة الفعلية ، واصبح قديما في الجندية وغدا عمله واجهـة خارجية• وكان المركز الوحيد المناسب له هو منصب المدير العام فـي وزارة الدفاع ، اذ ان صاحب المنصب (كاشطي) سيترك الجيش قريبا• ولكن لكي يعين في هذه الوظيفة كان عليه ان يعمل يدا بيد مع «شيرا» تزور ، والاميرال ليمون لا يتعاطف معه ولا يوده • واعتبر موشيه دايان، الذي ليس هو بالرجل العاطفي ، ان « العهـد الفرنسي » قد انتهـى قطعا ، فقد سمى (يشياهو لافي) المدير السابـق للصناعة العسكريـة مديرا عاما للوزارة • وهكذا فان الاميرال ليمون ، وقـد بلـغ السن القانونية ، يترك الجيش خائبا قليلا • وبعد تردد طويل ، قبل ان يمثـل في اسرائيل المصالح الكثيرة للبارون ادمون روتشيلد • «موكا» المقاتل والمقاوم السري القديم في الباليام وجد نهاية «بورجوازية» غير منتظرة •

اما التحقيق الذي قررته الحكومة الفرنسية وعهدت به الى مستشار في محكمة المحاسبات هو السيد جاك لابارك، فانه يتابع مجراه والاحتمال ضعيف في ان يفضي الى نتيجة ، رغم نزاهة وجد وذكاء هـذا الموظـف الكبير • وذلك لسبب بسيط جدا هو انه ليس ثمة من لغز فـي قضية قوارب شيربورغ • عدة صحف القت السؤال التالـي : « تواطـؤ ام اهمال ؟ » الجواب يمكن ان يكون : « تواطؤ من جراء الاهمال » لكنه لن يكون صحيحا تماما • فالحكومة الفرنسية بالفعل اساءت تقديـر مبلغ غيظ وتصميم شركائها ، رغم تحذيرات عدة جادة جـدا • فقـد

ظنت حتى اخر لحظة انها تستطيع تصفية قضية محرجة دون تحمل ادنى مخاطرة ، في اغماض العينين ببساطة ، امام عملية ، تصورتها بلا مخاطرات، ولاقت بغتة دعاية غير متوقعة اطلاقا . وأما بيع الميراج الى ليبيا فانه لم يصلح شيئا .

تلك الدعاية لم يردها الاسرائيليون منذ البداية . وان التاريخ الذي قرر فيه استرداد القوارب يدل بوضوح على ان المقصود في ذلك الحين ليس الرد ضد بيع الميراج الى نظام العقيد القذافي . كان ذلك تصادف ظرف عجيب جعل من تلك القضية حلقة من رواية لجيمس بوند ، بينما كان يمكن ان يجرى كل شيء بصورة سرية كما حدث في٤ كانون الثاني١٩٦٩ . كثير من المعلقين مقتنعون حتى اليوم بأن العملية كلها قد اخرجت من قبل الموساد لمحاولة نسف العلاقات القائمة بين فرنسا وبين العالم العربي ، واثارة أزمة داخلية في فرنسا يمكن ان تؤدي الى رفع الحظر (عن شحن الاسلحة) .

القسم الرابع
الكوماندوس

عين بعين

ليلة عيد الميلاد عام ١٩٦٩ ، كانت ليلة مضطربة جدا لكثير من الاسرائيليين ، ليس فقط بالنسبة للاميرال ليمون والمقدم ازرا وبحارة قوارب شيربورغ • في ليلة السلام تلك حدثت غارة للكوماندوس اليهود داخل اراضي العدو • غارة يمكن ان تعبر كمثل جيد عن دقة المعلومات التي قدمتها الامان ، وعن جرأة المنفذين، وشدة مداراة دوائر الاستخبارات والصحافة • فاننا نلقى هنا ، بوضوح ودقة ، قوى اسرائيل الكبرى الثلاث : دقة التحضير ، وسرعة الحركة ، والسر المحاطة به •

في ٢٧ كانون الاول ، حيا الجنرال حاييم بارليف ، رئيس الاركان، تحية تقدير استثنائية افراد وحدة صدام نفذت غارة على الضفة الغربية لقناة السويس• فقد اعلن «ان ما قمتم به كان معقدا ودقيقا وقد نفذ بدقة رغم العقبات الكثيرة الى حد يبدو معه انه ينتسب الى عالم السينما اكثر من الواقع » •

هذه النزعة لم تكن مألوفة البتة في طباع الجنرال بارليف، المعروف بالبرود والهدوء والذي له شهرة حقيقية ، بانه يزن بعناية كلماته • فهم الجمهور العريض في اسرائيل بان شيئا ما قد حدث• ومع ذلك فالصحافة

في اليوم التالي لم تذكر اية تفاصيل عن العملية • انما على الصفحة الاولى من احدى الجرائد كانت صورة اربعة جنود مصريين اسرى ، جلبوا الى داخل الخطوط الاسرائيلية بهدف ، على ما يعتقد ، مبادلتهم لقاء ضابط يهودي وقع في الأسر قبل بضعة ايام بيد كومندو مصري على الضفة الشرقية لقناة السويس (١) •

كان رؤساء تحرير الجرائد الكبرى في تل ابيب على اطلاع تام • فقد اُعطوا جميع تفاصيل العملية ، حسب العادة ، خلال اجتماعهم اليومي مع العسكريين ، وخصص كل منهم صفحتين لسرد بالتفاصيل ، تلك القصة التي تبدو بالفعل «اقرب الى عالم السينما من عالم الواقع» • جاء الاذن المعاكس في آخر لحظة ليضطرهم الى «سد» الصفحات الملغاة بريبورتاجات قديمة (٢) • المراقبون المرهفون يمكنهم مع ذلك ان يتأملوا باتنباه كبير الى الرسم الكاريكاتوري ا (دوش)، «المنسي» على الصفحة الاولى من معاريف والذي يمثل الشخص الصغير المألوف الذي يجسد دهاء وحكمة اسرائيل • انه جالس على شاطىء البحر ويصطاد بقصبتين• في نهاية القصبة الاولى تهتز خمس سفن : هي قوارب شيربورغ • وفي نهاية الثانية ، الملقاة باتجاه مصر ، صندوق ضخم يحمل عبارة : «عتاد عسكري» • لماذا طلبت المراقبة الى الصحف شطب الريبورتاجات المخصصة لتلك العملية ؟ ذلك ببساطة لان لدى رجال باريليف الذين يتسمعون على الدوام الى شبكة المواصلات العسكرية المصرية ، البرهان القاطع على ان الرئيس عبد الناصر ورؤساء الاركان لم يبلغوا بما حدث،

---

(١) لقد قامت اسرائيل بغارة واحدة خطفت بها مقاتلين مصريين ، ولكن المؤلف لم يذكر شيئاً عن بطولة الكومندو المصري الذي غزا موقع الاسرائيليين عشرات بل مئات المرات ، وعاد بالأسرى وبالأسلحة .

(٢) يريد انه صدر أمر معاكس للصحافة بإلغاء الصفحات المخصصة لنشر تفاصيل الغارة . وتلك زلة من الكاتب ، تكشف مدى ارتباط الصحافة بالمؤسسة العسكرية الاسرائيلية .

لذلك قدروا ان من غير المجدي اطلاقا اعلامهم بالامر بواسطة الصحف الاسرائيلية • وثمة تعليل اخر قدم احيانا : فحواه ان الاسرائيليين ما ارادوا اهانة المصريين قبل وصول القوارب الى حيفا ، ليتلافوا «انتقامهم» من سفن غير مسلحة • هذا التعليل هو محض خيال •

رغم «ستار الصمت» المفروض من قبل المراقبة ، فان جميع الناس في اسرائيل راحوا يتناقلون الحديث بسرعة عن «رادار سري» ، لكن يجب الانتظار حتى ٣ كانون الثاني ، كي تلقي الديلي اكسبريس في لندن بالخبر وان يقرر اخيرا الناطق بلسان الجيش الاسرائيلي تأكيد فحواه •

في ليلة عيد الميلاد كانت وحدة من المظليين صغيرة تجتاز خليج السويس على ظهر زوارق سريعة وتنزل عند رأس غريب على بعد (٣٠٠) كم تقريبا من مدينة السويس • وعند مطلع النهار تسرب المظليون الى عمق ثلاث كيلومترات داخل الاراضي المصرية • ولقد قطعوا ، دون ان يلحظهم احد ، الصف الاول من الاسلاك الشائكة لموقع حصين مصري حول تلة يعلوها صاري ردار كبير يدور في الفضاء بقطر قدره (١٨٠) درجة • في الساعة الرابعة و٣٠ ، بعد ان القى بنظرة سريعة على ساعته، هب المقدم (اتزاخ ر•) على قدميه وهو يصيح : «الى الامام» • على رأس رجاله الاربعين واستولى على موقع العدو •

الجنود المصريون ، باغتتهم المفاجأة ، فلم يبدوا اية مقاومة • وكان احد المهاجمين قد جرح جرحا بسيطا جدا • وفي اللحظة نفسها راحت طائرات السكايهوك والفانتوم الاسرائيلية تهاجم على دفعات متتالية المواقع المصرية في قطاع عريض جدا لتمنع وصول التعزيزات المحتملة ولتشل كل استعدادات العدو •

في رأس غريب ، العملية لمّا تبدأ بعد • عندما استولى (اتزاح) على المركز أبلغ بالراديو : «لقد اخذناه» • ثم لم تمض ثلاثون دقيقة حتى انزلت طائرتا هيليكوبتر (سوبرفرلون) اثني عشر خبيرا في الهندسة

والمواصلات • كان الهدف اخراج الرادار من غلاف البيتون الذي يحميه، ثم تفكيكه لنقله الى اسرائيل • خلال ما يقرب من ست ساعات سيتمكن الاسرائيليون من العمل بكل اطمئنان ودون ان تطير فوق رؤوسهم طائرة مصرية واحدة بل من دون ان تشن محاولة واحدة لهجوم مضاد من قبل فرق المنطقة •

يزن الرادار سبعة اطنان ، يجب تقطيع بعض اجزائه • احد الأنابيب يصاب بعطل ، فلتذهب الرياح به • وتقوم احدى الهيليكوبترين برواح ومجيء، لم يكن مقدرا ، لتجلب أنبوبا آخر • ستكون العودة مثيرة • قطعة بوزن اربعة اطنان علقت تحت بطن احدى (السوبرفريلون) • فوق خليـــج السويس (عرضه الوسطي : ٣٠ كيلومترا) انقطع حبل سلكي وأخذت الحمولة ، (٤) آلاف كيلو ، تتأرجح وتفقد الطائرة توازنها بشكل خطر• وكان كل شيء قد انتهى حوالي بعد الظهر • والمظليـــون والتقنيون والرادار وصلوا الى اسرائيل. والآلة من نوع (P ١٢) وهي من صنع سوفييتي. لم يكن رادارا من النوع الذي تحلم به جميع جيوش العالم ، والـــذي لم يسلمه السوفييت بالتأكيد الى المصريين فيما لو افترض انهم اكتشفوا سره ، (وذلك ما يبدو غير محتمل) ، انما هو رادار يحوي معدات حديثة من طراز ما يزال مجهولا في الغرب • فالـ(P١٢) هو رادار متحـــرك متخصص باكتشاف الطائرات التي تطير على علو منخفض جدا ، وتصويب صواريخ من نوع سام ٢ المعدلة الى الطائرات • ودون ان يكون عتادا ثورية ، يمثل الـ (P ١٢) اخر اختراع سوفييتي في مجال الدفاع المضـــاد للطائرات ، وان في تفحصه فائدة حيوية للاسرائيليين الذيـــن لاحظوا بعض التقدم عند المصريين في محاولتهم للتصدي للطائرات المتسربة على علو منخفض • والاميركان من جهتهم سعوا في الحال للحصول علـــى معلومات حول موضوع الـ (P ١٢) •

ان القائمة طويلة عن تلك الاعمال الناجحة للكومندو المؤلفة من وحدات

صغيرة اسرائيلية داخل اراضي العدو • كانت اكثرها شهرة تلك التـي جرت في شهر كانون الثاني ١٩٧٠ وتم فيها الاستيلاء على جزيرة شدوان بواسطة ١٤٠ رجلا احتلوها خلال ٣٦ ساعـــة واستقبلوا فيها الجنرال بارليف ، وكذلك عديدا من ممثلي الصحافة الاجنبية ليبرهنوا لهم على انهم لن يرحلوا الا برضاهم • *

اولى تلك العمليات في العمق جرت غداة حرب الايام الستة وهي اكثرها جميعا شهرة باعتبار انها تحققت بعيــدا جدا داخل خطـــوط العدو واستعملت فيها معدات ضعيفة جدا •

الخميس ٣١ تشرين الاول ١٩٦٨ : جسر ســد كينه ، والمركـــز الكهربائي لنجع حمادي في مصر العليا الكائنان على بعد ١٠٠ و١٤٠ كم شمالي الاقصر ينسفان بالتتالي ولا يفصل بينهما غير دقائق معدودة• اعلن الخبر في اسرائيل بلا تعليق • القاهرة تجيب : طائرة عدوة منفردة قدمت الى تلك المنطقة والقت بعض قنابل • وسائل الدفاع الجـــوي اجبرتها على الفرار • لم تقع اية اضرار على اية منشآت» • لكن فـــي الغد ، وقع الرئيس ناصر مرسوما يقضي بتجنيد متطوعين لحراسة الابنية العامة والأثرية والفنية • وخلافا لما سيحدث فيما بعد في مناطق الجبهـة حيث يستطيع العسكريون اخفاء الوقائع فان الغارة جـــرت في منطقة آهلة بالسكان المدنيين وكان من المستحيل على القيادة العامـة لمصر ان تخفي الحقيقة طويلا • جميع الناس عرفوا بسرعة كبيرة ان الاسرائيليين جاؤوا شخصيا ووضعوا متفجراتهم •

كيف وصلوا ؟ ظل ذلك لغزا ، حتى بالنسبة للمستشارين السوفييت في الجيش المصري • فلو انهم كانوا مظليين لاكتشفوا عنـد عودتهم ، والاسرائيليون لا يملكون طائرات هيليكوبتر تستطيع ان تقطع المسافة الكائنة بين سيناء والاقصر ثم العودة •

(*) هذه القصة تكشف ادعاءً واضحاً ، فالجميع يعلم .

مع ذلك فالمظليون اليهود وصلوا بالهيليوكوبتر • كان عددها اثنتين، حملتا على قوارب صغيرة • ثم اقلعتا قرب الشاطىء المصري وتسللتا الى الغرب مستخدمتين الى اقصى حد مسالك ذات شجون لتبعدا عن مراقبة الرادار وحطتا شمالي الاقصر • سيارتا جيب يركب كل واحدة منهمـــا اربعة رجال خرجتا من طائرتي الهيليكوبتر واتجهتا نحو اهدافهما • بعد ساعة ، رجعت سيارتا الجيب الى بطن هيليكوبتري السوبرفريلون اللتين اقلعتا باتجاه سيناء المحتلة وحطتا بلا انزعاج • قام بالعملية ١٦ رجـــلا بكل امان ، على بعد ما يقرب من ٣٠٠ كم من قاعدتهم ، ونجحوا تماما في تقديم الدليل الذي كان دايان يرغب في ان يقدموه • الارض المصرية مفتوحة ، والكومندوس يستطيعون ان يضربوا في العمق ، حيث يشاؤون ومتى يشاؤون (١) •

تلك الاغارات التي يقوم بها رجال قليلو العدد ليست ممكنة الا بفضل دقة المعلومات المتناهية التي تقدمها الامان • كل شيء يحسب له حسابه في اختيار الهدف ، وفي الطريقة التي تستعمل : وضع الرادار، وعدد وفاعلية قوة الوحدات العدوة التي يمكن ان ترفد الموقع ، شخصية قائد القطاع ، طول الموجة وشيفرة شبكة الاتصالات ، وذلك حتى يمكن استباق اي رد فعل غير مقدر، فضلا عن الصور الجوية التي تسمح لافراد الكومندو باعادة ، عدة مرات ، سيناريو عملية التخريب او الهجوم على نموذج بالحجم الطبيعي ، يعاد انشاؤه في النقب او في مكـــان آخر • وجدير بالذكر حول هذا الموضوع انه باستثناء واحد هو الاستيلاء على

---

(١) نسي المؤلف ان يذكر ان الاراضي الاسرائيلية ومدنها الاكثر عمقا كانت مفتوحة كل ليلة امام ضربات الفدائيين . وفاته كذلك أن يذكر أن المراكز العسكرية والصناعية الكبرى داخل اسرائيل يمكن ضربها من قبل أي جيش عربي لو أريد لهذا النوع من الحرب التصعيد . ثم ماذا بعد أن أقامت مصر صواريخ سام ٢ ، وبعد ان استكملت بناء قوتها الدفاعية ، ومنعت العدو الاقتراب من أي جزء في الأعماق .

الجزيرة الخضراء والتي كلف استيلاؤها ستة قتلى (!) اسرائيليين (والموقع كان منيعا) • بالطبع فان احصائية الخسائر اليهودية ضعيفة جدا خلال تلك الاعمال الشرسة ، والمعدة اعدادا دقيقا •

ثمة اسطورة غامضة ومنتشرة عن الكومندوس الاسرائيليين • في البلاد العربية خاصة ، يسند نوع من العصمة والتفوق في كل مكان الى اولئك الرجال الذين يخرجون من الليل ليضربوا ضربة مسرحية ويختفوا في الحال • هؤلاء الكومندوس هم «كلاسيك» تماما • قصتهم مع ذلك غريبة بعض الغرابة •

غداة حرب «الاستقلال» وتوقيع اتفاقيات رودس كانت عقلية «كومندية» غريبة جدا تسود في البلاد • ورغم فشل مؤتمر لوزان الذي كان يجب ان يفضي الى توقيع اتفاق سلام حقيقي بين اسرائيل وبين جاراتها ، فان الزعماء الصهيونيين ، وبن غوريون على رأسهم ، ظلوا يعتقدون بامكانية قيام شكل من اشكال التعايش • ان اسم الجيش الجديد الذي اعقب الهاغانا هو برنامج تقريبا • اسمه المختصر «تساهال» وذلك يعني «جيش دفاع اسرائيل» ، اراد اعضاء الحكومة ، الاوفياء لايديولوجيتهم «الاشتراكية» ان يؤكدوا بتلك التسمية على الجانب الدفاعي الخالص لتلك القوة ، وهي انها وريثة ميليشيا شعبية (١) •

وكان بن غوريون وشاريت ولافون ، والقادة الرئيسيون الثلاثة للماباي ، حزب الحكومة ، يعتقدون بضمان الدول الكبرى وهيئة الامم المتحدة ، والاثنان الاخيران يحلمان بامكانية اتفاق مع العرب «الطيبين» • وبالنسبة لشاريت ولافون ، فالعرب الطيبون هم القوى التقدمية التي بدأت تطلع في نهار الشرق الاوسط ، والعرب الرديئون

---

(١) يحاول الكاتب ان يرفع عن جيش اسرائيل صفة الهجوم ويطمس مخطط «اسرائيل الكبرى» .

هم رؤساء الانظمة الاقطاعية المتهمون في رغبتهم بتغذية توتر دائم على الحدود الاسرائيلية ، كي يحولوا نقمة شعوبهم عنهم (١) •

١٩٥٠ هي سنة اعادة تنظيم الجيش اليهودي ، تقريبا على نموذج الفرقة الفلسطينية السابقة في الجيش البريطاني • تمارين تقليدية تستبعد اي «هوى طارىء» • اغلب رؤساء (تساهال) الجدد كانوا قد تلقوا تربية عسكرية على الطريقة الانكليزية •

منذ ١٩٥١ كشفت تلك الطريقة الكلاسيكية العسكرية عن ضعفها• الوضع ما يزال هادئا نسبيا ، ولكن هجمات اللاجئين الفلسطينيين والبدو قد ازدادت ، قادمة من الاراضي الاردنية • وأحد رؤساء الآمان اعلن في ذلك الوقت : «اذا عرفت ماذا ينقص في اسواق نابلس والقدس وجنين أستطيع ان اقدر سلفا ماذا سيسرق في الايام الآتية» • في الواقع لم تمض ليلة دون ان تسرق انابيب الاسقاء والأدوات الزراعية ، ورؤوس المواشي • انها عصابات لصوص حقيقية يمولها تجار اغنياء اردنيون ، والسرقات الصغيرة تنقلب بسرعة الى قطع الطريق ولصوصية مسلحة • وفي نهاية ١٩٥١ ، كان مئة وعشر من المدنيين قد قتلوا على ايدي متسللين ، وأغلبهم يسمون «بمناضلين من اجل تحرير فلسطين العربية » (٢) •

وظهر ان الجيش الاسرائيلي عاجز امام تلك الاعمال • وكان الجيش قد اصبح ثقيل الحركة ، اصابته البرجزة ، ولم يعد يبرهن عن

(١) لينتبه القارىء العربي الى التغطية الدعاوية لفكرة ان بن غوريون كان ينتظر حقا ان تسعى الدول العربية الى عقد صلح مع اسرائيل ، وما هذه المحاولة في اختلاق صورة عن مستقبل العلاقة مع الدول التقدمية الا تحريفا لاماني قادة الصهاينة . والصحيح هو انهم كانوا ينتظرون من سادتهم في الغرب ان (يأتوا) بحكومات عربية لتتفاوض معهم .

(٢) هكذا يصورون الفدائيين، الأوائل الذين حاولوا ان يقدموا موعد اندلاع الثورة الفلسطينية عشية الهزيمة الاولى .

خيال وثاب ، كما كانت حاله اثناء النضال السري • كثيرون من قدماء البالماخ عادوا الى المستوطنات ، او انهم انتسبوا الى الجامعة، ليعوضوا عن التأخر المتراكم طوال سنوات النضال • غير أن واحدا من اولئك الطلاب في جامعة القدس ، سيعود الى الخدمة بناء على طلب الكولونيل ميشيل شوهام ، وينفخ روحا هجومية جديدة في «قوى الدفاع» : انه اريل شارون ، الذي يناديه جميع اصدقائه باسم «اريك» اخصائي في الضربات القاسية • عندما سأله شوهام ان كان يتصور وسيلة لرد المتسللين الارهابيين ، اجاب ببساطة : ليس لدينا اية وسيلة فعالة لمراقبة حدودنا كلها • لكن يمكننا ان نضرب وراء الخطوط العربية لنعاقب المسؤولين عن جرائم القتل • يجب ان يكون شعارنا : عين بعين •

اطلقت يد شوهام لاعداد مشروع ، رفع الى الجنرال مرداخاي ما كلف ، رئيس الاركان ، والى وزير الدفاع بينهاس لافون ، الذي كان «حمامة» مجلس الوزراء القديمة ، والذي سيتحول الى اشرس باز ازاء تدهور الحالة على الحدود • الرجلان اعطيا الضوء الاخضر لانشاء اول وحدة كومندو اسرائيلية : وحدة ١٠١ •

تشكلت هذه الوحدة في البدء من ١٨ رجلا ، أخضعهم اريك شارون لتمارين منهكة في صحراء النقب • مشي في الليل ، «نظام الماء (١) » ، القتال المغلق ، معالجة جميع نماذج السلاح التي يستعملها العدو والتي يجب على كل جندي ان يتمكن من فكها وتركيبها معصوب العينين ، تمارين البقاء بدون اي غذاء • لا وجود للرتب في « الوحدة ١٠١» التي اختير افرادها، جنودا وضباطا ، تبعا لتصميمهم ، وفعاليتهم• ويحدث غالبا ان يقود ضابط صف او جندي بسيط الفئة المؤلفة من اربعة رجال ، التي هي النواة في الاساس • وفي نهاية صيف ١٩٥٣ ،

(١) لعله يقصد نظام التسلل كخيوط الماء او كقطراته .

اصبح المستوى يعادل خير زمر الكوماندوس في الحرب العالمية الثانية، وانتقل اريك الى اولى العمليات الفعلية وراء خطوط العدو • اصبحت وحدة(١٠١) ضربا من عصابات الذئاب المتدربةتدريبا فوقالعادة، يسود في داخلها نظام خاص ، لا علاقة له البتة بالنظـام التقليـدي العسكري • والبزات تتبع أهواء الجنود • وهكذا فان اسلوب الوحدة ، التي راحت اسطورتها تنتشر بسرعة في اسرائيل ، بدأ ينتقل الى عدة كتائب •

في ليلة ١٣ تشرين الاول تسرب العرب القادمون من الاردن الـى قلب الاراضي الاسرائيلية في منطقة هرزليا ، حين مروا بقريـة يهوديا الصغيرة القوا قنبلة يدوية من نافذة على غرفة كان في داخلها امرأة وستة اطفال يتناولون طعام العشاء • ثلاثة قتلى واربعة جرحى خطرين (٢) •

الأثار التي تعقبتها كلاب الشرطة قادت باتجاه الحدود الاردنية • أبلغت لجنة الهدنة المشتركة • وقدمت شكوى الى مجلس الامن لهيئة الامم المتحدة• لكن الانفعال كبير فيالبلد وقررت الحكومة تطبيق قانون الاخذ بالثأر على اراضي الاعداء • بدا ان «القتلة» انطلقوا من قريـة قبية البيرة • ستدفع قبية عن يهودا •

وحدة ١٠١ تقترب بصمت ، ولم تكتشف الا في اخر لحظة عندما كانت قد طوقت القرية • فتح المجندون نار الجحيم ، لكن رجال شارون لم يردوا ولم يتحركوا • بعد مضي ساعة من توتر عصبي ، منهك علـى الارجح ، لاذ المدافعون بالفرار • عندئذ راح رجال شارون يدخلـون البيوت بيتا بيتا آمرين الاهالي بالتجمع ، ووضعوا موادهـم الناسفة في جميع الابنية • بقي عدة عشرات من المدنيين ، مذعورين ، متخفين

(٢) لا يمكن التاكد من صحة هذه الرواية ، ولكنها الطريقة المعهودة التي يسلكها الصهاينة لكي يبرروا مجزرة انسانية سيأتي ذكرها بصورة مخففـة •

داخل منازلهم ، ظنا منهم انهم في ملجأ • النتيجة : ٤٦ قتيلا • على اثر تلك «البسالة» سيجهز اعضاء الكومندو بمشاعل كهربائية قوية كي يتمكنوا من التأكد بان احدا لم يبق داخل البيوت ، قبل ان ينسفوها •

في كانون الاول من ذلك العام نفسه ، اجرى رئيس الاركان العامة الجديد الجنرال موشيه دايانتفتيشا في الوحدة ١٠١ ودعى جميع اعضائها الى حفلة صغيرة ، ليعلن اليهم خبرا اذهل اغلبهم : لقد قرر الغاء هذه « العصابة » وضمها الى فرقة المظليين • كان الجنرال الاعور بواقعيته المعهودة قدر ان من الضروري ان يستفيد من «روح» وحدة ١٠١ لجسم أهم واكبر ، تتزايد خلاياه وتنقسم بدورها فيما بعد • وهكذا سيعم تدريب المظليين نفسه بالتالي على جميع وحدات المشاة • وسمى أريك شارون ليوتنانت كولونيل وقائدا لفرقة المظليين • ساعده الايمن اهارون دافيدس الذي سيكون المعلم الاكبر لجميع المظليين اثناء حرب الايام الستة ، ومعاونه في العمليات شخص نقيب اسمه رفائيل ايتان الملقب «رافول» (١) •

---

(١) يلاحظ ان الكاتب يقدم معلومات من حيث لا يدري ، وهو مسوق ببهرج الدعاية . انه يقول بكلمة واحدة ان جسم الجيش الاسرائيلي وهو المشاة ، يتالف جميعه من كومندوس مظليين . وهو بذلك لا يعتبر جيشا تقليديا .

هو هزيل ممتلىء ندوبا ، شرس ، خطر ، ملامحه تذكر بهيئة همفري بوغارد (مجرم السينما !) ذلك هو رفائيل ايتان ، المعروف في اسرائيل تحت اسم رافول ، ابعد المظليين شهرة واكثر من تتوزع الآراء حـــول شخصه ، وهو الرجل الذي ينفذ عمليات اخذ الثأر في اراضي العدو .

في هذا البلد حيث العسكريون يقبلون برضى على دراسة التاريخ او الفلسفة ، فان رافول يبدو على الهامش . انـــه ينتسب الى جنس الذئاب . وجميع الضباط الذين خدموا تحت امرته حاولوا عبثا نقـــل وقاحته ، زعيقه المفترس ، مشيته كحيوان متوحش . قليلون هم الذين توفقوا . ذلك النوع غريب في اسرائيل . وتظهر غرابة هذا الرجل خاصة حينما يخرج وحيدا دائما ، ووراءه كلبه الضخم . ثلاثة صور على مكتبه: صور اصدقاء سقطوا في ١٩٤٨ .

جاء ابواه من روسيا . ما ان قدم ابوه السيد كامينسكي الـــى فلسطين حتى كان احد مؤسسي «الهاشومر» (الحراس) اول ميليشيـــا للدفاع عن المستعمرات اليهودية ، وكان سلاحهـــا غالبـــا الهراوات . كان كامينسكي شخصية عجيبة . فقـــد أوقفه الاتراك فـــي عام ١٩١٧ واقتيد الى دمشق ليحاكم ويشنق . فر من السجن عشية تنفيذ الحكـــم والتحق بصفوف الجيش البريطاني وقاتل تحت امرة الجنرال (اللنبي) .

الأسرة فقيرة. ساعد رفائيل اباه في اعمال الحقول منذ الخامسة من عمره ومشى حافي القدمين حتى التاسعة . كان رب العائلة يشجعه ، هو واخوته على الذهاب الى المصارعة مع اولاد العرب من القرى المجاورة.

لم يكن ذلك عسيرا جدا اذ ان قريتهم ، تل اراشيم كانت معزولة تماما وسط قرى عربية. سيظل السيد كامينسكي يقاتل، في ذلك العهد، وسط قرى عربية حتى سن متقدمة ، كمسعـــور مع اولاده ، كل مساء جمعة ، ليبرهن لهم على انه يبقى الاقوى (اي لعرب القرى المجاورة) .

عندما رفض رفائيل بعزم الذهاب الى المدرسة تلقى افظع علقة في حياته . لكنه هنىء بحرارة عندما تطوع في السادسة عشرة في البالماخ ، فرق الصدام في الهاغانا ، بينما كان ذلك القرار في اغلب الاحيان يستقبل بالعويل والنواح بين العائلات .

حرفة عسكرية تخللها انقطاع وهروب . غير ان الشاب رافائيل ايتان لا يلائمه زمن السلم ، رغم ندرته في اسرائيل ، وفي عام ١٩٤٩ يعود الى قريته برتبة ليوتنانت ليقود سيارة شاحنة حتى ١٩٥٣ . تلك قصة تتردد دائما : ما ان تشتد الحالة على الحدود حتى يرتـدي البزة العسكرية . وما ان يسود بعض الهدوء حتى يعود الى شاحنته . دام ذلك الى اليوم الذي اكتشف فيه المظليين . اخيرا وجد ميله الحقيقي .

في ١٩٥٤ كان جالسا في صالة سينما ، طلبه اريل شارون الـــى الهاتف من الصالة بواسطة مكبر صوت : «صديقك ماركوس قد قتل . استلم قيادته سريعا وانتقم له». فكان هجوم معسكر خان يونس في قطاع غـزة » .

في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٦ قاد شخصيا عملية الأخذ بالثأر فـــي (ساموا) في الاراضي الاردنية التي كانت البداية الحقيقية لمقدمة الحرب.

وفي حزيران ١٩٦٧ اصبح على رأس فرقة المظليين التي احتلت مفرق رفح الكبير ، عقدة المواصلات المصرية الرئيسية في وسط سيناء . وبعد ثلاثة ايام وقبل وقف اطلاق النار مع المصريين بثلاث ساعات تلقى رصاصة في رأسه على شاطىء قناة السويس في منطقة جسر فردان . خرج مــن

غيبوبته ليخبر بموت ابن اخيه الذي يخدم تحت امرته ويحبه كابن • تلك هي احد الجروح الخفية لذلك الرجل القاسي •

بعد نهاية المعركة بشهرين ، من جديد قام رفول على رجليه ، مع ندبة جديدة ، ليتسلم قيادة فرقته ، التي كانت متمركزة حينئذ قرب اريحا •

منذ ذلك العهد ورفول هو المسؤول الكبير عن عمليلت الردع على اراضي العدو • وقبل كل واحدة من تلك العمليات ، فقد كان هو شخصيا الذي يختار الرجال واحدا واحدا ، بالنسبة للمهمة التي سيقدمون عليها ، يراجع شخصيا تمارينهم وردود فعلهم ومقاومتهم وتصميمهم • ولقد اشترك في عدة «ضربات» في مصر ، وقاد بنفسه العملية ضد مطار بيروت الدولي • اعطى دايان أوامر صارمة بالا" يمس لبناني واحد خلال تلك العملية المقصود منها تحطيم اكبر عدد من الطائرات بمثابة قصاص لاطلاق عيارات الرشاشات على طائرة بوينغ اسرائيلية في مطار اثينا من قبل فريق الفلسطينيين ، ولم يجد رفول وسيلة لمراقبة رجاله خيرا من اصطحابهم • انه طار على هيليكوبتر الطليعة •

منذ ان تم امتزاج وحدة (١٠١) بفرقة المظليين انتهت التشكيلات الخاصة للكومندوس داخل الجيش العبري • ويختار رفول اعضاء بعثاته من بين المظليين ، لكنه غالبا ما يتوجه الى اخصائيين في البحرية او المواصلات او الهندسة •

دايان ، وفيا للمنهج الذي كان اتبعه مع شارون في ١٩٥٣ ، عهد اليه بان يعبر بالجيش الاسرا ئيلي الى مرحلة جديدة • في ذلك العهد كلفت وحدة (١٠١) ان تبث روح الهجوم في المظليين • رفول هو اليوم جنرال ، ومدير العمل للمظليين ــ المشاة ، وأصبحت التمارين واحدة في جميع الوحدات ، كي تعطي اكبر قدر من الضرب • اذ ان الجيش

الاسرائيلي هو الوحيد في العالم الذي فيه لا يتجاوز مستوى تمرين الفرق المنقولة جوا مستوى فرق المشاة ، وذلك لسبب بسيط جدا : انهم المشاة الذين ارتفعوا الى مستوى المظليين •

كتوم ، وحيد ، عنيف ، رفول هو النموذج لصنف القادة العسكريين الجديد الذين يسهرون على حدود اسرائيل • انه محاط باسطورة حقيقية بسبب جرأته ومزاجه الثلجي، لكن اكثر الاسرائيليين لا يشبهونه• ان كثيرا من الآلام ومن التجارب جعلت شخصا مثل رفائيل ايتان ، واحدا اليوم من اكثر الضباط تمثيلا لجيش «داوود» الحديث •

يحدث ان يتخذ العسكريون المبادرة ليطلبوا الأذن من السلطـــة السياسية للقيام بغارة داخل اراضي العدو، بهدف الاستيلاء على معدات من صنف جديد او لأخذ اسرى يقدمون بعــــض المعلومات الى اخصائيي الآمان . لكن في غالبية الحالات العظمى ، فان الحكومة هي التي تقرر تلك الافعال ولعل الاصح القول «ردود الافعال» بدلا من «افعال» .

عندما تحدث عملية ما من عمليات العدو خسارات بشرية بـــين السكان المدنيين تغدو المسألة بالنسبة للرأي العام ليست معرفة ان كان سيحدث الرد انما متى واين سيكون . القرار يتشكل من ثلاث مراحل.

فورا يضع الآمان قائمة بالاهداف في اراضي العدو ، تبعا لخطورة الحادث ولدائرته الجغرافية . انه الجنرال (اريه شاليف) المكلف بصورة خاصة الى جانب الجنرال ياريف ، منذ حرب الايام الستة ، بدراســـة جميع اشكال الردود المحتملة . القرار منوط بعد ذلـــك بمجلس وزراء مصغر ، لا يعلن ابدا عن اجتماعاته والذي يشترك فيه حـــول رئيس الوزراء ، السيدة (غولدا ماير) كل من وزير الدفاع (موشيه دايان) ، ووزير الخارجية السيد (ابا ايبان) ، ونائب رئيس الوزراء السيد (ايغال آلون) . ان تركيب هذه النواة الاساسية لا تتبدل لكن بعض الوزراء امثال وزير النقل او الداخلية قد يدعيان الى اجتماعات «اللجنة الحكومية للأمن» .

تستمع اللجنة الى رئيس الاركان الجنرال حاييم بارليف الذي يقدم لها «اقتراحات» ياريف وتبدأ المناقشة • ان وزير الخارجية يهتم اكثر ، بحكم وظيفته ، «بالوضع» الدولي للعملية ، وهكذا فان السيد ابا ايبان قد عارض بحزم مثلا تحطيم طائرات النقل المدنية في كانون الاول ١٩٦٨ على مطار بيروت الدولي ، لكن احدا لم يقره على رأيه •

باستثناءات نادرة لا تقيم «لجنة الامن» عمليا اي وزن لردود الفعل الدولية المحتملة ، مهما تكن غير مستحبة •

ان اعمال الردع تابعة بشكل اساسي لردود الفعل الداخلية وموجهة ايضا «لثني» قيادات الجيوش النظامية العربية • فضغوط الرأي العام ، والصحافة ، ولجان مختلف الاحزاب ، واللجان البرلمانية هي اكبر في اسرائيل منها في اي مكان آخر • ان من المستحيل ، ولا يمكن ان يتصور مثلا الا يحدث موت طفل في هجوم «ارهابي» رد فعل فوري تقريبا بمنتهى العنف• على المستوى العاطفي المحض ليس للحكومة الخيار• ولا يوجد طبعا اية «تعرفة» مثبتة في نصوص ، لكن من المفيد ملاحظة ان غالبية المواطنين العظمى تخطىء قليلا من حيث العموم عندما تخمن عمليات الردع التي ستشن •

لا يحسب عمليا اي حساب للرأي العام العربي اذ يعتبر متقلبا جدا، كي يتأثر بغارة مهما تكن • يعتقد في تل ابيب ان اي بلاغ خيالي ينشر في القاهرة او في دمشق (١) قادر على مسح ، في ثوان معدودات ، النتائج النفسية لغارة اسرائيلية • لذلك فان تلك الغارات تحسب تبعا للانفعال الذي ستحدثه في دوائر الاركان العامة العربية التي هي قادرة على تقييمها بواقعية اكبر • لهذا السبب فان اغلب اعمال

(١) ان محاولة النيل من عاصمة عربية محددة معناه مزيداً من العداوة الصهيونية لهذه العاصمة.

الكوموندو تجيء من مصدر اعلامي اسرائيلي رغم ما تعقب من ادانة دولية بشكل دائم تقريبا ، ليكون ذلك بمثابة بلاغ الى العسكريين الاعداء ولجبرهم على التثبت محليا من نوعية الانذار .

الهدف دائما محدد جدا رغم بعض «زلات» عند التنفيذ كالغارة على مصنع ابي زعبل الذي كانت حصيلتها ٧٠ قتيلا بين السكان المدنيين المصريين . قواعد الفدائيين الفلسطينيين غالبا ما تهاجم في العمق لكن المبدأ الاسرائيلي لم يتبدل منذ الغارة الكبيرة التي قام بها رجال اريك شارون ضد قبية : كل دولة عربية مسؤولة عن تصرفات «الارهابيين» المتمركزين على اراضيها .

عندما يختار مجلس الوزراء المصغر بين «المغلفات» التي يطرحها ياريف عندئذ يدخل رفول المسرح ليهيىء فنيا العملية التي يهتم بها عامة عن قرب موشيه دايان، وهو مستشار مستحب باعتباره اخصائيا في ضربات الكوموندو ، اذ انه ينحاز في اغلب الاحيان الى جانب الحل الاكثر بهلوانية ، شريطة ان يكون قد أُعد بعناية . تلك الاجتماعات التحضيرية هي ، غالبا ما تكون طريفة . يحدث ان يشترك فيها رجال تركوا الجيش منذ فترة طويلة ، ليطلب اليهم تقديم «نصيحة» او «فكرة» . ومن المفيد ايضا ذكره ان رئيس مجلس الوزراء الحالي هو امرأة طاعنة في السن ، مدام غولدا ماير «جدة اسرائيل» ، مناضلة اشتراكية قديمة وهي التي تحسم المواقف بالدرجة الاخيرة في حالة الصراع واختلاف الرأي. انها تصوت في اغلب الاحيان الى جانب الحل الاكثر جرأة عندما يؤكد لها دايان ، عدوها القديم ، ان ذلك «سيمشي» .

لقد ابتعد كثيرا الزمن الذي كان فيه سلفها المباشر (ليفي اشكول) يفرض استعمال سرية مظليين كاملة بينما الاركان العامة لا تريد ان تلقي غير جماعة صغيرة . وهكذا فان الغارة ضد الموقع الاردني في سالموا في

١٣ تشرين الثاني ١٩٦٦ كان لا شك بداية مقدمــة الحرب الثالثة بسبب اتساعها ولأن السيد اشكول الطيب كان قد طلب استخدام قوى هامة جـدا .

كثير من القادة الاسرائيليين يؤلمهم ان يروا صورة بلدهم الممتازة قد تحولت الى دولة محاربة «واثقة من نفسها ومتسلطة» . كذلك كان حلم مؤسسي اسرائيل الذين تصوروها وطنا يهوديا اشتراكيا ومسالما . قـد يحدث ان مناقشات حادة تنفجر داخل الاحزاب او فـي قلب الحكومـة لتنتقد بعض الاعمال التي حكم على قسوتها الشديدة . لكن ثمة دائما رجل او امرأة ينهض ليلقي : «اننا لا نريد البتة ان نرى من جديد مـا حدث خلال الفي عام» . اما مدام غولدا ماير فانها تورد عندئذ فقرة من التوراة اثناء اجتماع مجلس الوزراء ، كما كان بن غوريون يفعل : «لا، انه لا ينام ولا يغفل ، الذي يحفظ اسرائيل» !!

غدا ، في شهر ، في سنة ، رجال رفول ، المنبثقون من الليل، سيضربون من جديد . الجنرال ياريف سيمضي ايضا عديدا من الليالي البيضاء في مكتبه ، والعالم سيدين ايضا في مرات كثيرة موقف بلد صغير احبه حين كان في خطر الموت اكثر مما احبه منتصرا . ولمدة طويلة ايضا سيبقـى جواسيس اسرائيل الذين لا تدفع لهم اجرة عالية خير ضمان لبقائها . انهم يكونون عنصرا ثقيل الوزن في ميزان القوى في الشرق الادنى وفي التاريخ المعاصر لهذه المنطقة .

فهرست